تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي
السنة الخامسة . العدد ٥١ . كانون الثاني ١٩٨٣ م . الموافق ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ .

وعاء الأرنب
العهد السلجوقي



زوبعة في الصحراء

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تعنى بشؤون التاريخ

العدد ٥١ ــ كانون الثاني ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

أمين التحرير : د. محمد أمين فرشوخ

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الاردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١,٥ دينار

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ١٢٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- تدفع قيمة الاشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 5 No. 51, Jan. 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

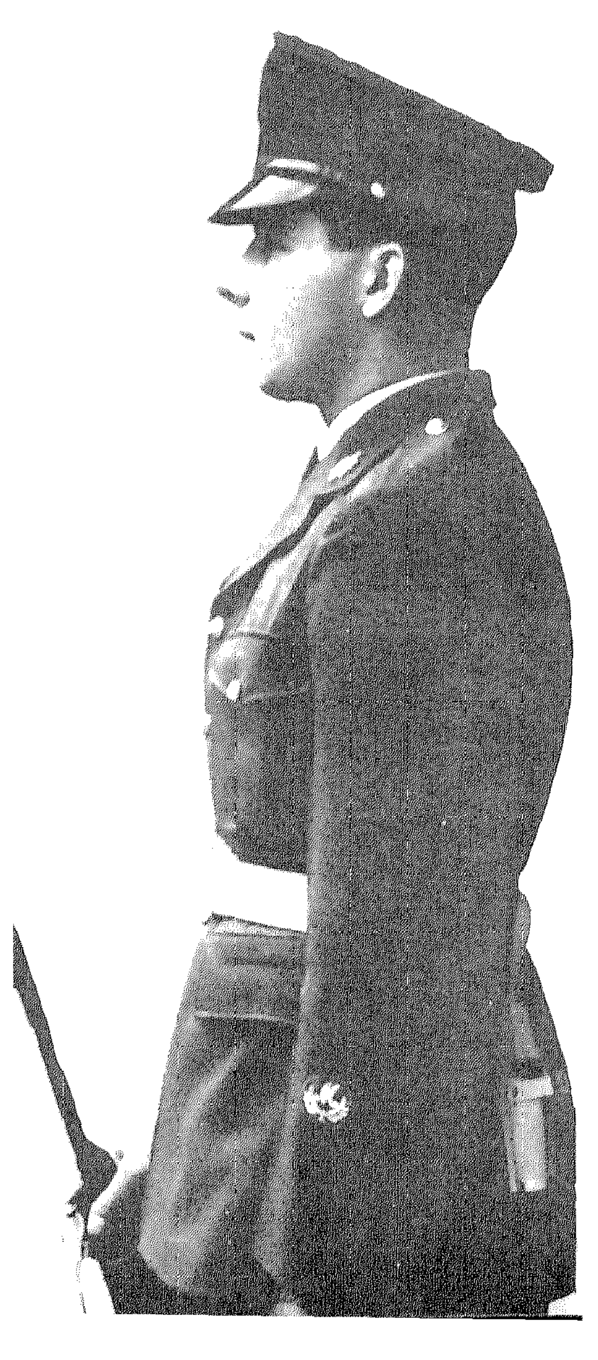
■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■



جبل طارق (الحلقة الأولى)

معقل إسلامي عبر القرون الوسطى (٩٢-٨٦٦هـ / ٧١١-١٤٦٢م)

د. أمين توفيق الطيبي

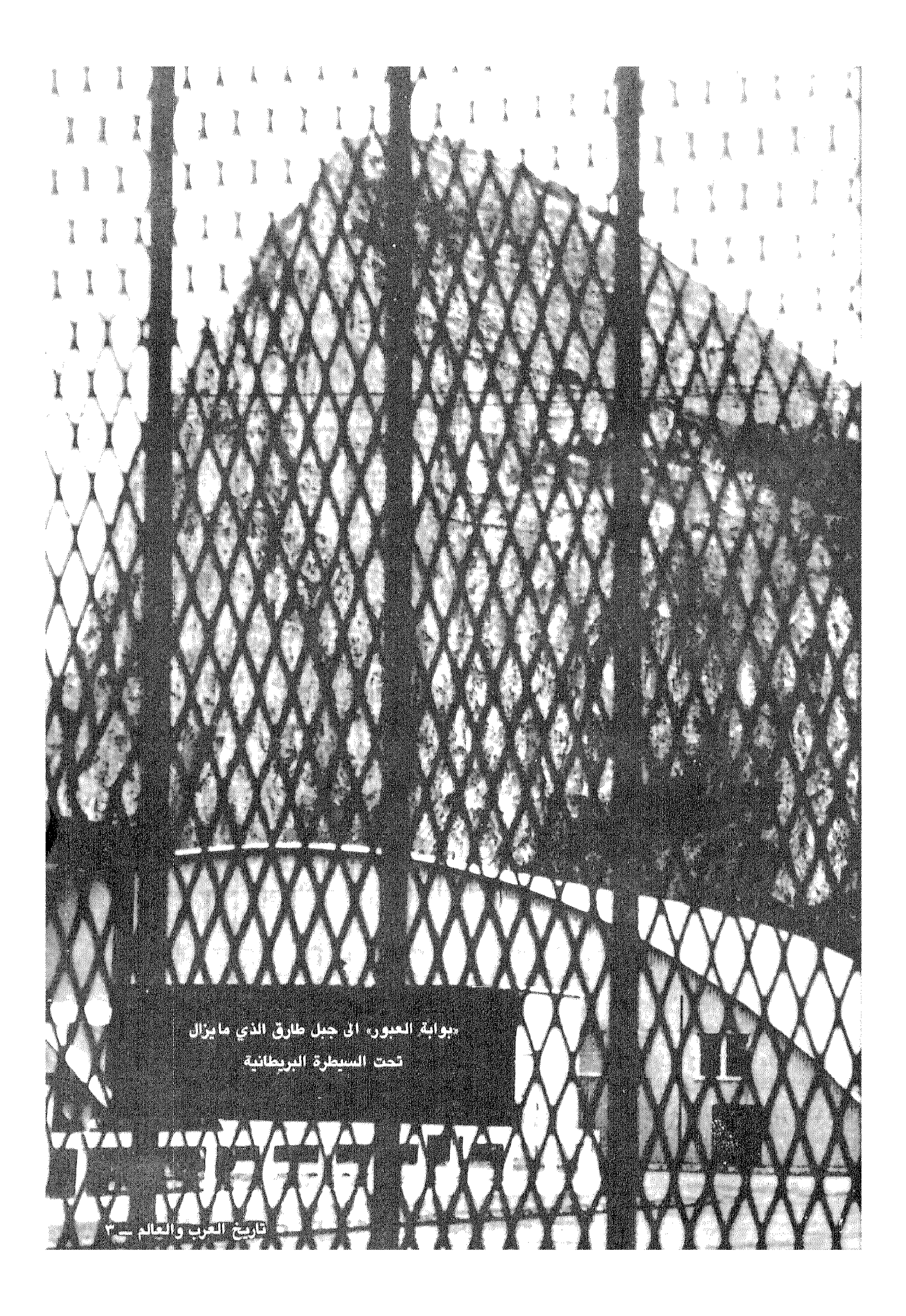


نظراً للنقص الذي نعانيه في المشرق العربي في ميدان الدراسات التاريخية المتعلقة بالمغرب العربي، ورغبة في سد هذا النقص بالنسبة للقارىء الشرقي، فاننا نستأذن مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي في ان نقتبس الدراسة القيمة للدكتور أمين توفيق الطيبي في موضوع جبل طارق عن مجلة المركز: «مجلة البحوث التاريخية»، العدد الأول، يناير ١٩٧٩ م وان نعيد نشرها في مجلة «تاريخ العرب والعالم»، وذلك تعميماً للفائدة واسهاماً في توسيع نطاق قراءة الدراسات التاريخية عن المغرب العربي.

عرض تاريخي



منذ ان نزل المسلمون في جبل طارق عام ٩٢هـ = ٧١١م الى ان احتله الاسبان النصارى عام ٨٦٦هـ = ١٤٦٢م اتخذته الدول الاسلامية المتعاقبة في الأندلس والمغرب قاعدة عسكرية ومعقلاً مهماً باعتباره مفتاحاً لشبه جزيرة ايبرية من الجنوب ونقطة تتحكم في حركة الملاحة عبر مضيق جبل طارق او بحر الزقاق، سواء أكان العبور من عدوة المغرب الى الأندلس او بالعكس. وكان الجبل اول بقعة اسبانية نزلها الفاتح الشهير طارق بن زياد، ومن الجبل بدأ الفتح العربي



«بوابة العبور» الى جبل طارق الذي مايزال
تحت السيطرة البريطانية

المظفر للأندلس. كما ان الموحدين فيما بعد (القرن السادس الهجري = الثاني عشر الميلادي) اتخذوه قاعدة عسكرية لتثبيت سلطانهم في الأندلس والعمل على استرداد ما فقده المسلمون من ارض هناك. وعلى حافة الجبل الغربية، امر اول سلاطين الموحدين عبد المؤمن بن علي ببناء مدينة الفتح، وقام بتحصينها، كما اعاد تسمية الجبل فسماه جبل الفتح تيمناً بما كان يزمع القيام به من جهاد واسع النطاق في الأندلس. وقد ازدادت اهمية الجبل الحربية في القرن الثامن الهجري = الرابع عشر الميلادي ايام بني مرين سلاطين المغرب وبني الأحمر ملوك غرناطة حينما تقلصت ممتلكات المسلمين في الأندلس واحتل ملك قشتالة مينائي طريف والجزيرة الخضراء على بحر الزقاق ــ وهما مفتاحا الأندلس من العدوة[١] ــ مهدداً بذلك مواصلات المسلمين البحرية، فأصبحت لجبل طارق بالتالي اهمية دفاعية خاصة لتأمين الاتصال بين المغرب ومملكة غرناطة. ولذلك، فان السلطان المريني أبا الحسن وابنه ابا عنان حرصا على تعزيز تحصينات الجبل، فأحيط الجبل برمته بسور «إحاطة الهالة بالهلال» على حد قول ابن مرزوق[٢].

وفي هذا العرض التاريخي سنتناول، اعتماداً على المصادر العربية الأصلية في المقام الأول، تاريخ جبل طارق (جبل الفتح) طوال الفترة التي كان فيها هذا المعقل تحت سيادة المسلمين، والتي دامت سبعة قرون ونيفاً.

جبل طارق شبه جزيرة[٣] في اقصى الطرف الجنوبي من اسبانيا. ويبلغ طول شبه الجزيرة نحو اربعة كيلومترات ونصف الكيلومتر، وعرضها نحو كيلومتر ونصف الكيلومتر، وتبلغ مساحتها حوالي خمسة كيلومترات مربعة، ويبلغ ارتفاع اعلى نقطة في الجبل ٤٢٥ متراً عن سطح البحر.

وفي الخليج الواقع غربي جبل طارق، المعروف بخليج جبل طارق او خليج الجزيرة الخضراء، كان يقوم قديماً عمود هرقل (Pillar of hercules) في الجانب الأوروبي من المضيق، ويقابله في الجانب الافريقي عمود آخر حيث تقع مدينة سبتة. وكان يطلق على الجبل قبل الفتح الاسلامي الاسم الفنيقي الأصل (جبل كالبي Mont Calpe) ومعناه تجويف، وذلك لوجود كهف معروف في سفح الجبل[٤].

ويسيطر جبل طارق من ناحية الشمال الشرقي على المضيق الذي يفصل اوروبا عن افريقيا، والبحر المتوسط عن المحيط الأطلسي، وكان يعرف هذا المضيق في التاريخ القديم باسم مضيق قادس او مضيق هرقل. اما في العهود الاسلامية، فقد عرف المضيق باسم الزقاق او بحر الزقاق، كما عرف ايضاً باسم المجاز، لكونه المعبر او طريق الجواز الى الأندلس من المغرب (العدوة)[٥]. ونظراً الى قلة عرض المضيق ــ حوالي ١٥ كم ــ فان بحر الزقاق لم يعق يوماً الاتصال بين اسبانيا وافريقيا، وكثيراً ما كان معبراً سهلاً للفاتحين من العدوتين. وكان القدامى يعتبرون مضيق جبل طارق نهاية العالم من ناحية الغرب، وقد جرى على ذلك الجغرافيون المسلمون فسموا المحيط الأطلسي بحر الظلمة[٦] او الظلمات او البحر المحيط.

من الفتح العربي حتى قيام دولة الموحدين:

من المعروف ان الاسم الحديث لجبل طارق (Gibraltar) او مختصراً (Gib) مشتق، بشيء من التحريف، من اسم الفاتح طارق بن زياد، مولى موسى بن نصير، والوالي الأموي على افريقية، كما درج المصنفون العرب على الاشارة الى الجبل احياناً باسم الصخرة، وحذا الأوروبيون حذوهم في ذلك، فالجبل يعرف بالانجليزية باسم (The Rock). وكان نزول طارق عند حافة الجبل في رمضان (رجب) سنة ٩٢هـ = ابريل ــ يوليو ٧١١م، على رأس قوة تقدر بسبعة آلاف رجل[٧]. ويحدثنا صاحب (أخبار مجموعة) عن هذا النزول فيقول: «وضمهم طارق الى جبل على شط البحر منيع فنزله، والمراكب تختلف حتى توافي جميع اصحابه»[٨]. ويذكر الأدريسي ان المسلمين تحصنوا بالجبل، وعمد طارق الى احراق المراكب التي جاز البحر فيها لكي يعزز ثقة جنده به



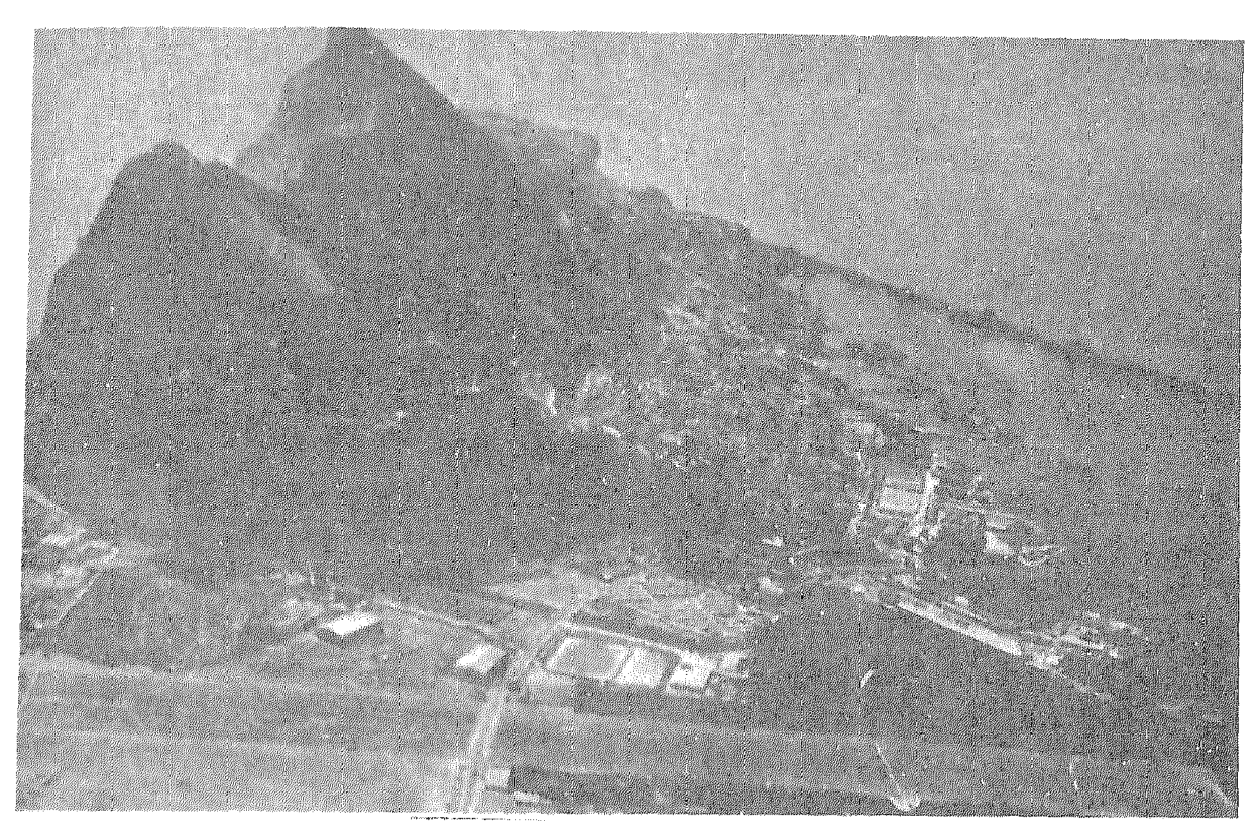
القائد «بيلاج» الذي انتصر على العرب في معركة «كوفادونكا» عام ٧١٨م

ويدفعهم على الاستماتة في الجهاد[٩]. ويقول ابن عذاري ان المسلمين حاولوا الطلوع في الجبل، وهو حجارة حرش، فوطأوا للدواب بالبراذع وطلعوا عليها، فلما حصلوا في الجبل، بنوا سوراً على انفسهم يسمى سور العرب، وقيل انهم فتحوا حصن قرطاجنة، وكان في سفح هذا الجبل من نظرة الجزيرة الخضراء[١٠]. ويقول ابن الأثير ان طارقاً نزل من الجبل الى الصحراء[١١] وافتتح الجزيرة الخضراء وفارق الحصن الذي في الجبل[١٢]. ويبدو ان المسلمين نزلوا على سفح الجبل، واتخذوا لأنفسهم مرصداً او نقطة مراقبة في اعلاه، حيث يتسنى للمرء الرؤية لمسافات بعيدة براً وبحراً، وذلك تحوطاً من هجوم مباغت قد يشنه القوط. اما قرطاجنة التي يذكرها ابن عذاري فهي تحريف لاسم قارطية (Carteya)، المستوطنة الفنيقية القديمة، والتي يشير اليها الحميري باسم قرطاجنة الجزيرة (تمييزاً لها عن قرطاجنة الحلفاء على الساحل بشرق الأندلس) ويقول انها تقع «عند جبل طارق» وهي مدينة للأول غير مسكونة... وتعرف بقرطاجنة الجزيرة»[١٣]. ويتحدث الادريسي عن جبل طارق فيقول انه «جبل منقطع مستدير، في اسفله من ناحية البحر كهوف وفيها مياه قاطرة جارية»[١٤]. ويضيف الحميري بأن «جبل طارق مرسى يكن من كل ريح»[١٥].

عند نزول طارق بن زياد في الجبل الذي عرف باسمه وخلده منه نزوله، كان ملك القوط رودريك يقود حملة في شمال اسبانيا ضد قبائل الباسك (البشكنس) فتوجه جنوباً فور سماعه بنزول المسلمين، وفي ٢٨ رمضان سنة ٩٢هـ = ١٩ يوليو سنة ٧١١م تم اللقاء بجيش طارق على ضفة وادي لكة/ بكة (Gnadalete) ما بين شريش ومدينة شذونة[١٦] واحرز المسلمون نصراً حاسماً، وقتل رودريك في ساحة القتال او اختفى ولم يعثر له على اثر. وتقدم طارق بعد ذلك نحو قرطبة وحاصرها، واوقع بالنصارى هزيمة عند استجة، ثم قصد طليطلة عاصمة القوط واستولى عليها، وواصل زحفه شمالاً في اتجاه سرقسطة ثم عاد لتمضية الشتاء في طليطلة. وحسبنا ان نذكر هنا انه بعد الانتصارات الباهرة السريعة التي احرزها طارق بن زياد سرعان ما توطدت اقدام المسلمين في شبه الجزيرة، ولم تنقض اكثر من خمس سنوات على نزول طارق في الجبل الذي يحمل اسمه (٩٢ــ٩٦هـ = ٧١١ــ٧١٦م) حتى اصبحت كل شبه جزيرة ايبرية تقريباً تحت سيطرة المسلمين[١٧].

تعتبر الفترة بين نزول طارق بن زياد في جبل طارق عام ٩٢هـ = ٧١١م وتشييد مدينة الفتح بأمر من الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، من اكثر الفترات غموضاً في تاريخ جبل طارق: فهل استوطن المسلمون الجبل في هذه الفترة التي امتدت اربعة قرون ونصف القرن[١٨]؟ كما ان المكان الذي نزل فيه طارق غير معروف تماماً على وجه التحديد، إذ ان ما ذكره المؤرخون والجغرافيون العرب لا يعين على تحديده. وهم متفقون على اية حال على ان طارقاً تحصن في الجبل بعد نزوله، ثم ارسل قوة للاستيلاء على مدينة قرطاجنة الجزيرة (قرطبة Carteya). ولا شك في ان جبل طارق لعب طوال الفترة الاسلامية دوراً هاماً كحصن منيع، ومرسى امين للمراكب، بينما نمت مدينة الجزيرة الخضراء (Algeciras)، واصبحت قاعدة كورة في الطرف الجنوبي من الأندلس، يتبعها جبل طارق.

وفي فترة ملوك الطوائف (القرن الخامس



صخرة جبل طارق كما تبدو من الجو

الهجري = الحادي عشر الميلادي) ـ اي بعد ثلاثة قرون من الفتح العربي للأندلس ـ يرد ذكر جبل طارق وقت ان كان يشكل جزءاً من مملكة بني عباد، وكان ملحقاً بكورة الجزيرة الخضراء.

والمعروف ان صاحب اشبيلية المعتضد بن عباد (حكم في الفترة ٤٣٣ ـ ٤٦١هـ = ١٠٤٢ ـ ١٠٦٨م) كان دائماً يخشى على ملكه من اعداء قادمين من المغرب، فلما وصله كتاب سقوت البرغواطي، صاحب طنجة وسبتة، يذكر فيه ان المرابطين قد بلغوا موضع مراكش، قال المعتضد لوزيره الذي اخذ يهوّن امرهم ويشير الى بعدهم «هو والله الذي اتوقعه واخشاه... اكتب الى فلان ـ يعني عامله على الجزيرة (الخضراء) ـ بحفظ جبل طارق حتى يأتيه امري»[١٩]. وهذه الرواية انما تدل على اهمية جبل طارق استراتيجياً لغازٍ محتلٍ للأندلس من الجنوب، كما تدل على انّ الوالي على الجزيرة الخضراء كانت تشمل ولايته حصن جبل طارق.

ولما استفحل خطر ملك قشتالة الفونس السادس على ممالك الطوائف بالأندلس، استصرخ ملوكها السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين. وكان في جملة الوفد الأندلسي الذي توجه للاجتماع بابن تاشفين وزير المعتمد بن عباد (حكم في الفترة من ٤٦١ ـ ٤٨٤هـ = ١٠٦٨ ـ ١٠٩١م) ابو بكر بن زيدون، نجل الشاعر ابي الوليد بن زيدون.. وقد بحث الوفد مع السلطان المرابطي المكان الذي تنزله عساكر المرابطين «فاشار ابن زيدون بجبل طارق، وسئل الجزيرة الخضراء»[٢٠]، إلّا ان ابن تاشفين لم يقبل بهذا العرض. ويذكر الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، وكان معاصراً للأحداث مشاركاً فيها، ان المرابطين سرعان ما نزلوا في الجزيرة الخضراء واحتلوها «فأرسل المعتمد لابنه الراضي وكان والياً عليها في إخلائها لهم»... واراد [المعتمد] ان يضع ابنه الراضي بمرسية عوضاً عن الجزيرة»[٢١].

بناء الموحدين لمدينة الفتح في جبل الفتح

كان الموحدون اول من ادرك الأهمية الحربية لجبل طارق، فبادر اول خلفائهم عبد المؤمن بن

على ببناء مدينة حصينة عند سفح الجبل (حيث تقوم حالياً مدينة جبل طارق) سماها مدينة الفتح كما سمى جبل طارق جبل الفتح، مدللاً بذلك على نيته في إعادة فتح ما فقده المسلمون من قواعد واراض في الأندلس. ومنذ ذلك الحين (٥٥٥هـ = ١١٦٠م) اصبحت المدينة ومبناؤها وتحصيناتها معقلاً وقاعدة حيوية للمسلمين على بحر الزقاق.

في طريق عودته الى المغرب من حملته في افريقية حيث خلص المهدية والساحل من احتلال نورمان صقلية (٥٥٥هـ المعروفة بسنة الأخماس) بعث الخليفة الموحدي عبد المؤمن من مدينة قسنطينة بأوامره الى ولديه ــ وكانا واليي اشبيلية وغرناطة ــ بالشروع في بناء مدينة جديدة في جبل طارق، تكون قاعدة للقوات التي كان يزمع ارسالها للجهاد في الأندلس ضد النصارى الذين ما انفكوا يغيرون على اراضي قرطبة واشبيلية وغرناطة. ولندع عبد الملك بن صاحب الصلاة، وهو من مؤرخي دولة الموحدين وكان معاصراً للأحداث التي يرويها، يسرد علينا قصة بناء هذه المدينة الجديدة ــ مدينة الفتح ــ فهو يقول: «ووصل الأمر العزيز ببناء مدينة كبرى... بالجبل الميمون القديم البركة على جزيرة الأندلس، السامق الشاهق جبل طارق... تكون هذه المدينة منزلاً للأمر عند اجازة العساكر المنصورة، ومحلاً ريثما تتقدم الرايات المظفرة والأعلام المنشورة الى بلاد الروم. وكان في الكتاب امر جزم الى السيد الأجل ابي سعيد عثمان ابن الخليفة امير المؤمنين بالمشي من غرناطة [وكان والياً عليها] بنفسه واصحابه وجملة عسكره الى جبل طارق... [ومشاورة عدد من الأشخاص ذكرت اسماؤهم لتحديد موقع البناء]... ان يستنفروا جميع الفعلة من البنائين والجيارين والنجارين والعرفاء [اي المهندسين المعماريين] من جميع بلاد الأندلس التي تحت نظر الموحدين... ويستعجلوا بالوصول الى الجبل لامتثال الأمر الكريم...

وتقدم السيد الأجل ابو سعيد على ما امر به من موضعه بغرناطة اليه، ومشى من اشبيلية العريف احمد بن باسة[٢٢] بجميع البنائين... ونزلوا فيه وابتدأوا البناء... بسيف البحر مما يلاصقه. ويليه، وزادت آمال اهل الأندلس... وتحققوا اليمن والسعد والفتح في بنيان هذا الجبل... واحكم البناؤون فيه بناءً من القصور المشيدة والديار، واخترعوا في اسسها طيقاناً وحنايا لتعتدل بها الأرض...

وكان الحاج يعيش المهندس[٢٣] [من مالقة] مدة اقامته للبناء... قد صنع في اعلى الجبل رحى تطحن الأقوات بالريح، عاينها الثقات مدة البناء المذكور، فلما رجع الى مراكش عند اكتمال ما امر به فسدت الرحى لعدم الاهتمام بها. واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور بناء السور والباب المسمى باب الفتوح في الفرجة التي كان يدخل منها الى الجبل بين البحر المحدق به من كلا جانبيه، فجاء فرداً في المعاقل التي لا يتمكن لطامع فيها طمع»[٢٤]...

ويذكر الحميري بأنه حفرت «في سفح الجبل مواضع نبع فيها الماء، وجمع بعضها الى بعض حتى سال منها جدول عم المدينة... من اعذب الماء واطيبه، يصب في صحن عظيم اتخذ له، واجري الى الجنات المغترسة بها من امره، فللحين ما جاءت مدينة تفوق المدن حسناً وحصانة، لا يدخل اليها إلا من موضع واحد [باب الفتوح الذي ذكره ابن صاحب الصلاة] قد حصن بسور منيع من البنيان الرفيع، وسميت بمدينة الفتح»[٢٥].

وكان ابتداء بناء مدينة الفتح في ٩ ربيع اول من سنة ٥٥٥هـ = ١٩ مارس ١١٦٠م، وتم البناء في ذي القعدة من نفس العام/ نوفمبر ١١٦٠م[٢٦] ــ اي ان بناء المدينة استغرق نحو ثمانية شهور. ولما تم بناء المدينة او كاد، عبر عبد المؤمن المجاز من سبتة ونزل في مرفأ جبل طارق، وذلك في شهر ذي القعدة عام ٥٥٥هـ = نوفمبر ١١٦٠م لينظر كيف يكون غزو الروم[٢٧]. ويذكر عبد الواحد المراكشي ان عبد المؤمن هو الذي سمى الجبل، جبل الفتح «وبنى هناك مدينة هي باقية الى اليوم [املي المراكشي كتاب «المعجب» سنة ٦٢١هـ = ١٢٢٤م]... ووفد عليه وجوه الأندلس للبيعة... وكان له بالجبل يوم عظيم... واستدعى الشعراء في هذا اليوم ابتداء، ولم يكن يستدعيهم قبل



علبة مجوهرات بالزخرفة الاسلاميه تعود الى حوالي عام ٩٦٨م

ذلك، انما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم»(٢٨).

وقد اشار الشعراء في قصائدهم الى جبل الفتح، وما يرجونه من جهاد مظفر للخليفة عبد المؤمن في الأندلس. فمن قصيدة القرشي المعروف بالطليق المرواني:

حدث عن الروم في اقطار اندلس
والبحر قد ملأ العبرين بالعرب
وطود طارق قد حل الامام به
كالطود كان لموسى أعين الرتب
منه عاود هذا الفتح ثانية
اضعاف ما حدّثوا في سالف الحقب(٢٩)

ومما انشده عبيد الله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي:

إلى جبلٍ قد كان للفتح منزلاً
ولأذ به بالفتح موسى وطارق(٣٠)

ومما انشده محمد بن غالب البلنسي المعروف بالرصافي:

لله ما جبل الفتحين من جبلٍ
معظم القدر في الأجيال مذكور
من شامخ الأنف في سحنائه طلس
له من الغيم جيب غير مزرور
أخلق به وجبال الأرض واجفة
ان يطمئن غداً من كل محذور(٣١)

وانشد أبو جعفر بن سعيد العنسي (من آل بني سعيد اصحاب القلعة المعروفة باسمهم قرب غرناطة) قصيدة منها:

وجدد فيها ذلك الخبر الخبر
اطل على اهل الجزيرة سعدها
ولا بن نصير لم يكن ذلك النصر
فما طارق إلّا لذلك مطرق
كما حل عند التم بالهالة البرر(٣٢)
هما مهداها كي تحل بأفقها

وقد كان عبد المؤمن حين اراد العبور الى جزيرة الأندلس استنفر اهل المغرب عامة، فكان فيمن استنفره العرب الذين كانوا ببلاد بني حماد [شرق الجزائر] وهم قبائل من هلال بن عامر، وقد استجاب له من قبائل العرب جمع ضخم وزعهم في نواحي قرطبة واشبيلية وشريش «فهم بها باقون الى وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١هـ [١٢٢٤م] ـ وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلق كثير... فبالجزيرة اليوم من زغبة ورياح وجشم بن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرجالة»(٣٣).

وبعد هذا كان انصراف امير المؤمنين عبد المؤمن الى المغرب، في اول عام ٥٥٦هـ = اوائل يناير ١١٦١م، اي بعد ان امضى نحو شهرين في مدينة الفتح(٣٤). ■

الهوامش

(١) ابن عذارى: «البيان المغرب». ٣٠٧/٢.
(٢) المقري: «نفح الطيب» ١٤١/٦. السلامطي: الاستقصاء ١٢٣/٣.
(٣) يدعوه المقدسي جزيرة طارق، كما درج العرب على تسمية شبه جزيرة العرب بجزيرة العرب، وعلى تسمية شبه جزيرة ايبرية بجزيرة الأندلس، (المقدسي: احسن التقسيم ٢٢٣).
(٤) الأدريسي: «صفة جزيرة الأندلس»،... ص ١٧٧؛ الحميري: «الروض المعطار» ١٢١. انظر كذلك

التعليق رقم ٥، ص ٢٣٤، نفاضة الجراب، للمحقق أحمد مختار العبادي.

(٥) الادريسي: «صفة جزيرة الاندلس». ص ١٧٦؛ المراكشي: «المعجب» ٩.

(٦) الادريسي: «صفة جزيرة الأندلس». ص ١٧٦.

(٧) ابن القوطية: «تاريخ افتتاح الأندلس» ٣٣؛ مؤلف مجهول الاسم: «اخبار مجموعة» ٦؛ ابن عذاري: «البيان المغرب» ٢/٨؛ ابن الأثير: «الكامل في التاريخ» ٤/١٢٢.

(٨) مؤلف مجهول الاسم: «اخبار مجموعة» ٧.

(٩) الادريسي: «صفة جزيرة الأندلس»...، ص ١٧٧.

(١٠) ابن عذاري: ٢/١٣.

(١١) البادية في اصطلاح المغاربة والأندلسيين بمعنى الريف، وليس الصحراء اثلاقاً.

(١٢) ابن الأثير: «الكامل في التاريخ» ٤/١٢٢.

(١٣) الحميري: «الروض المعطار» ١٥١.

(١٤) الادريسي: «صفة جزيرة الأندلس»...، ص ١٧٧.

(١٥) الحميري: «الروض المعطار» ١٢١.

(١٦) يرى المستشرق ليفي ــ بروفنسال ان المعركة درات رحاها على ضفاف نهر (Barbate) وبحيرة (La janda) قرب الساحل. انظر ليفي ــ بروفنسال: «تاريخ اسبانيا الاسلامية» (بالفرنسية) ١/١٩، وما بعدها.

(١٧) واط (Watt): A History of Islamie Spain، ص ١٤.

(١٨) نوريس (norris): The Early Islamic Settlement in Gibraltar بمجلة: Journal of the Royal Arnthrgological institute مجلد ٩١، (جزء ١)، لعام ١٩٦١، ص ٣٩.

(١٩) ابن الآبار: «الحلة السيراء» ٢/٥١.

(٢٠) نفس المصدر ٢/٩٩.

(٢١) عبد الله بن بلقين: «التبيان»، (مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين)، ١٠٣، ١٠٨.

(٢٢) كان احمد بن باسة «شيخ العرفاء» باشبيلية، وهو الذي تولى تشييد جامع اشبيلية الأعظم وصومعته الشهيرة المعروفة باسم (الدوارة Geralda). انظر تعليق المحقق رقم ٣، ص ١٣٩، وتعليقه رقم ٣، ص ٤٧٤، كتاب المن بالامامة، وكذلك متن الكتاب، ص ٢٠٦، ٤٦٧، ٤٧٤.

(٢٣) الحاج يعيش المالقي من اشهر المهندسين في عهد الموحدين، وهو الذي صنع بمدينة مراكش مقصورة في المسجد الجامع وضعت على حركات هندسية ترفع بها عند خروج الخليفة وتخفض لدخوله، كما قام في سنة ٥٦٧هـ = ١١٧٢م بتسريب الماء لسقي البحيرة الملكية وتوصيله الى داخل اشبيلية، وبنى كذلك خزاناً للماء لتزويد احياء مدينة اشبيلية به. انظر «الحلل الموشية»، ص ١١٩ ــ ١٢٠ و«المنّ بالامامة»، ص ٤٦٨ ــ ٤٦٩.

(٢٤) ابن صاحب الصلاة: «المنّ بالامامة»، ١٣٨ ــ ١٤٠، ١٤٣.

(٢٥) الحميري: «الروض المعطار»، ١٢١.

(٢٦) ابن ابي زرع: «روض القرطاس»، ١٩٩.

(٢٧) ابن صاحب الصلاة: «المنّ بالامامة»، ١٤٨.

(٢٨) المراكشي: «المعجب»، ٢١٣.

(٢٩) ابن صاحب الصلاة: «المنّ بالامامة»، ١٦٠ ــ ١٦١.

(٣٠) نفس المصدر، ص ١٦٥.

(٣١) المراكشي: «المعجب»، ٢١٩ ــ ٢٢٠.

(٣٢) ابن الخطيب: «الاحاطة» ١/٢٢٤؛ مؤلف مجهول الاسم: «الحلل الموشية»، ١٣٠.

(٣٣) المراكشي: «المعجب»، ٢٢٤، ٢٢٦.

(٣٤) ابن صاحب الصلاة: «المنّ بالامامة»، ١٧٢.

المراجع

١ ــ مصادر عربية:

ــ ابن أبي زرع الفاسي: «روض القرطاس»، الرباط، ١٩٧٣.

ــ ابن الآبار: «الحلة السيراء». الجزء الثاني، القاهرة ١٩٦٣.

ــ ابن الأثير: «الكامل في التاريخ». المجلد الرابع، بيروت ١٩٦٣.

ــ ابن بطوطة: «رحلة ابن بطوطة» (تحفة النظار في غرائب الأمصار)، بيروت ١٩٦٨.

ــ ابن بلقين: عبد الله: «التبيان» (مذكرات الأمير عبد الله)، القاهرة، ١٩٥٥.

ــ ابن الخطيب، لسان الدين: «اعمال الأعلام» (تاريخ اسبانيا الاسلامية)، بيروت، ١٩٥٦.

ــ «نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب»، القاهرة، ١٩٥٥.

ــ ابن خلدون، عبد الرحمن: «كتاب العبر وديون المبتدأ والخبر»، المجلد السابع، بيروت، ١٩٥٩.

ــ ابن صاحب الصلاة: «تاريخ المنّ بالامامة». بيروت، ١٩٦٤.

ــ ابن عذاري المراكشي: «البيان المغرب». الجزء الثاني، بيروت، ١٩٥٠.

ــ «البيان المغرب»، الجزء الثالث (تاريخ الموحدين)، تطوان، ١٩٦٠.

ــ ابن القوطية: «تاريخ افتتاح الأندلس. بيروت، ١٩٥٧.

ــ الأدريسي: «صفة افريقية والاندلس» (مستخرجة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، ليدن، ١٨٦٦.

ــ الحميري، ابن عبد المنعم: «صفة جزيرة الأندلس» (منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار)، القاهرة، ١٩٣٧.

ـــ السلاوي، احمد الناصري: «الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى»، الجزءان الثالث والرابع، الدار البيضاء، ٥٤ ــ ١٩٥٦.

ـــ عنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال»، القاهرة، ١٩٦١.

ـــ المراكشي، عبد الواحد: «المعجب في تلخيص اخبار المغرب»، القاهرة، ١٩٤٩.

ـــ المقدسي: «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، ليدن، ١٩٠٦.

ـــ المقري: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، الجزءان الأول والسادس، القاهرة، ١٩٤٩.

ـــ مؤلف مجهول الاسم: «أخبار مجموعة»، مدريد، ١٨٦٧.

ـــ مؤلف مجهول الاسم: «الحلل المشية» (تحقيق علوش)، الرباط، ١٩٣٦.

ـــ النباهي، ابن الحسن: «كتاب المرقبة العليا (تاريخ قضاة الأندلس)، بيروت (بدون تاريخ).

٢ ــ مراجع غير عربية:

— *Balbas, L. Torres:* Al Andalus (1942), Vol. VII. pp. 168-216.

— *Cattenoz, H. G.:* Tables de Concordance des Eres Chretienne et Hegirienne, Rabat, 1954.

— *El:* The Encyclopaedia of Islam (First Edition-English), Leiden, 1913-34; Vol. III, pp. 464-66, S. V. Merinids.

— *El²:* The Encyclopaedia of Islam (New Edition-English), Leiden-London, 1965; Vol. II, pp. 352-3, S. V. Djabal Tarik.

— *Highfield, R.:* Spain in the Fifteenth Century, Bristol, 1972.

— *Julien, Charles-Andre:* Historie de l'Afrique du Nord; English transiation: History of North Africa, London, 1970.

— *Lone-Poole, S.:* The Mohammedan Dynasties, Paris 1925.

— *Levi-Provencal, E.:* Historie de l'espagne Musulmane, Vol. I, ParisLeiden 1950.

— *Norris, H. T.:* The Early Islamic Settlement in Gibraltar, Journal of the Royal Anthropological Insitute, Vol. 91 (Part 1), London 1961, pp. 39-51.

— *O'Callaghan, J. F.:* A History of Medievale Spain, Cornell University Press, London 1975.

— *Watt, W. M.:* A History of Islamic Spain, Edinburg 1965.



العلم والملك

□ قدم هشام بن عبد الملك حاجاً الى بيت الله الحرام، فلما دخل الحرم قال ائتوني برجل من الصحابة، فقيل يا أمير المؤمنين قد تفانوا، قال: فمن التابعين، فأتي بطاوس اليماني، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم بأمير المؤمنين ولم يكنه وجلس الى جانبه بغير اذنه وقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام من ذلك غضباً شديداً حتى هم بقتله! فقيل له: أنت يا أمير المؤمنين في حرم الله وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم لا يكون ذلك. فقال يا طاوس: ما حملك على ما صنعت؟ قال وما صنعت؟ قال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تسلم بأمير المؤمنين ولم تكنني وجلست بأزائي بغير اذن وقلت يا هشام كيف أنت، فقال له طاوس: أما خلع نعلي بحاشية بساطك فاني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاتبني ولا يغضب علي، وأما قولك لم تسلم علي بأمير المؤمنين فليس كل المؤمنين راضياً بأمرتك فخفت أن أكون كاذباً. وأما قولك لم تكنني فان الله عز وجل سمى أنبياءه فقال: يا داود يا يحيى يا عيسى، وكنى أعداءه فقال: تبت يدا أبي لهب. وأما قولك جلست بأزائي فاني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: إذا أردت أن تنظر الى رجل من أهل النار، فأنظر الى رجل جالس وحوله قوم قيام! فقال له: عظني! فقال: سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول: ان في جهنم حيات وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته! ثم قام طاوس فخرج وعينا هشام بالدمع مخضلتان.



د. نقولا زيادة

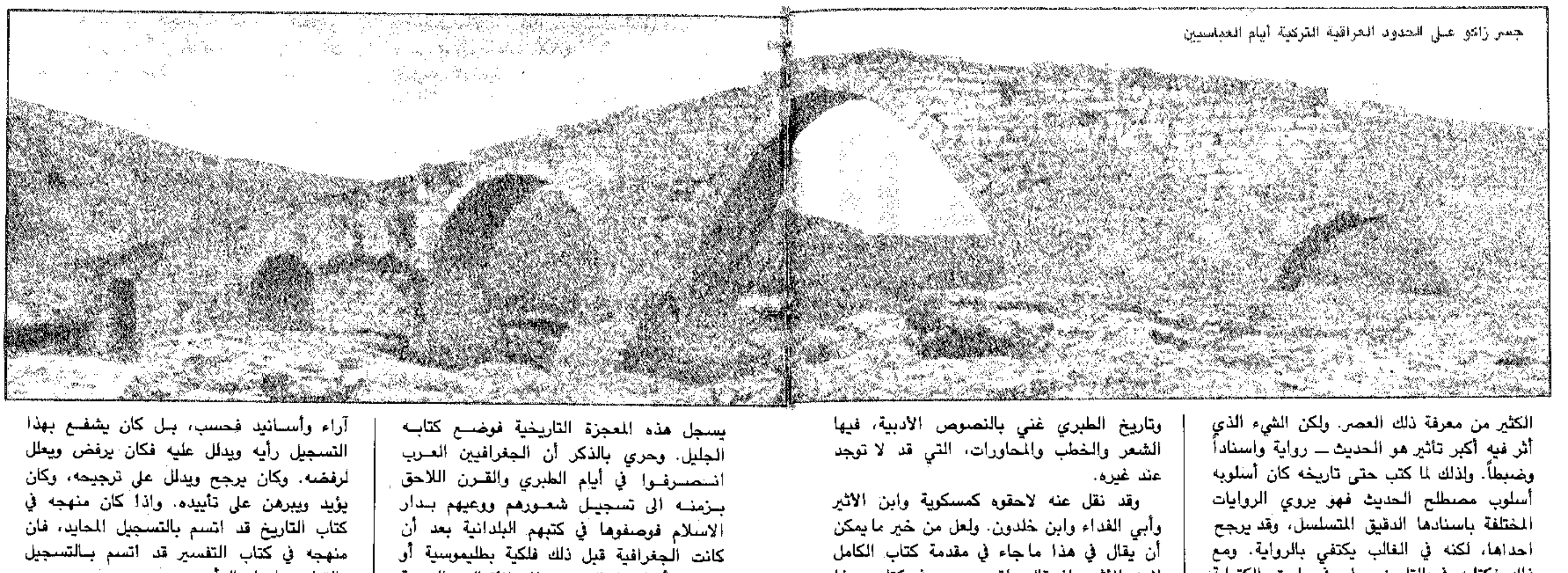
المفكرون الثلاثة الذين تتناولهم هذه المقالة هم الطبري، أول المؤرخين الكبار في عالم العرب والاسلام، اذ أنه بعد أن وضع كتابه استقى القراء من غيره. والمسعودي الذي كان مؤرخاً جغرافياً رحالة. ولعله أول من تنبه، بين مفكري العرب، الى الارتباط القائم بين الأرض والانسان وأثر الأولى في تطور حياة الثاني. والادريسي أول من وضع خريطة للعالم مبنية على القياسين الرياضي والفلكي، مع أن ثمة من سبق في وضع مخططات للعالم العربي الاسلامي.

تاريخ الرسل والملوك والتفسير للطبري



ولد أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في آمل عاصمة اقليم طبرستان سنة ٢٢٥ للهجرة (أي ٨٣٩ للميلاد) وتوفي في بغداد سنة ٣١٠ هجرية (أي سنة ٩٢٣ ميلادية). وبين سنتي الميلاد والوفاة وموضعهما تنقل صاحبنا متعلماً في آمل وغيرها من مدن طبرستان ثم في الري ثم في البصرة ثم في واسط والكوفة وبغداد وبيروت ومصر ثم يعود صاحبنا الى بغداد مروراً بالشام فيحط رحاله في عاصمة العباسيين الى أن اختاره الله الى جواره. وهو في تنقله في طلب العلم ينهل من المنابع الثرة في الحديث والتفسير والقراءات والفقه والتاريخ، فيلمّ بهذه كلها في نواحيها المختلفة. فاذا انصرف الى العمل كاتباً ومؤلفاً أخرج كتاب التاريخ الكبير والتفسير المشهور وكتباً في الفقه لعل أوضحها في بيان مقدرته اختلاف الفقهاء.

الطبري من أهل القرن الثالث للهجرة أي القرن التاسع للميلاد، وهو القرن الذي اتصل فيه العرب والمسلمون بينابيع الفكر المختلفة من الشرق والغرب والقديم والحديث لكن الطبري لم يتجه نحو العلوم الفلسفية أو العلوم الطبيعية وان كنا لانشك قط في أنه أطلع على



جسر زاكو على الحدود العراقية التركية أيام العباسيين

الكثير من معرفة ذلك العصر. ولكن الشيء الذي أثر فيه أكبر تأثير هو الحديث ــ رواية واسناداً وضبطاً. ولذلك لما كتب حتى تاريخه كان أسلوبه أسلوب مصطلح الحديث فهو يروي الروايات المختلفة باسنادها الدقيق المتسلسل، وقد يرجح احداها، لكنه في الغالب يكتفي بالرواية. ومع ذلك فكتابه في التاريخ معلم في طريق الكتابة التاريخية العربية الاسلامية. ولسنا نقصد هنا الناحية الفنية، ولكننا نعني أنه كنز من كنوز المعرفة التاريخية الهامة.

فهو، اذا أخذناه من هذه الناحية، وجدنا أنه أول كتاب في التاريخ العام. كان تتمة من سبقه ومصدراً لمن جاء بعده. وقد جمع الكثير من أخبار العرب في الجاهلية وبذلك حفظت من الضياع. وما أكثر ما نقل عنه لاحقوه في هذا الباب. أما أخباره عن العصور الاسلامية الى أيامه فمن أثمن ما وصل الينا. خصوصاً وأن الكثير مما كتبه من تسبقه ضاع. ولعله من الحق علينا أن نذكر أن تاريخ الفرس في الأزمنة السابقة للاسلام متوفر في كتاب الطبري، ولا يوجد له مصدر سواه. ويقول محمد أحمد الحوفي «قد تبين من البحث المفصل في تاريخ الروم أن الطبري دقيق فيما ذكره عنهم لأنه نقل عن نصارى الشام وسمع منهم وكانوا هم نقلوا من وثائق صحيحة وأدوها اليه بأمانة».

وتاريخ الطبري غني بالنصوص الادبية، فيها الشعر والخطب والمحاورات، التي قد لا توجد عند غيره.

وقد نقل عنه لاحقوه كمسكوية وابن الاثير وأبي الفداء وابن خلدون. ولعل من خير ما يمكن أن يقال في هذا ما جاء في مقدمة كتاب الكامل لابن الاثير، اذ قال «لقد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد. فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الامام أبوجعفر الطبري اذ هو الكتاب المعول عليه عند الكافة والرجوع اليه عند الاختلاف. فأخذت فيه جميع تراجمه. ولم أخل بترجمة واحدة. وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذات عدد كل رواية منها مثل التي قبلها أو أقل منها. وربما زاد الشيء اليسير أو نقصه، فقصدت أتم الروايات فنقلتها».

ولنا نحن رأي في كتاب تاريخ الطبري نود أن نعرضه هنا، وهو أمر لا يتعلق بأهمية الكتاب أو أسلوبه أو فنه. فتلك أمور متفق عليها. ولكننا نرى أن الطبري يمثل موقفاً خاصاً في الحياة الفكرية العربية الاسلامية. ذلك بأن الرجل كان يعيش في عصر أدرك فيه البعض الأهمية الخاصة للدولة العربية الاسلامية بمقارنتها بغيرها ممن سبقها أو عاصرها. وهذا الوعي بأهمية الدولة والمجتمع الذي كانت ترعاه ويحتضنها يمثله في رأينا الطبري الذي أراد أن يسجل هذه المعجزة التاريخية فوضع كتابه الجليل. وحري بالذكر أن الجغرافيين العرب انصرفوا في أيام الطبري والقرن اللاحق بزمنه الى تسجيل شعورهم ووعيهم بدار الاسلام فوصفوها في كتبهم البلدانية بعد أن كانت الجغرافية قبل ذلك فلكية بطليموسية أو هندية، أساسها التقسيم الى الأقاليم السبعة ووضع الأزياج.

ونظر الطبري حوله فرأى أن الناس تشعبوا فرقاً كثيرة، وأنهم كلهم يعتمدون القرآن الكريم في اتخاذهم مواقف معينة، ولم يجد كتاباً شافياً وافياً في التفسير. فندب نفسه للأمر ووضع تفسيره الكبير. ومن الأمور التي حاولها أن يخلص التفسير من الاسرائيليات التي علقت به وكانت قد كثرت.

يقول الحوفي في توضيحه لقيمة التفسير «قد تبين من مصادره ومن منهجه (أي التفسير) أنه السجل الجامع الأمين لما روي عن النبي وعن الصحابة والتابعين من آراء في التفسير. وهو بهذه الصفة ينفرد بين كتب المفسرين، وينهض وحده باسعاف الباحثين اذا ما ارادوا التعرف على آراء السلف. وهو الى هذا حافل بآراء في اللغة والفقه والتاريخ والنحو والقراءات، وثري بأشعار من الجاهلية والاسلام. ومن الانصاف للطبري العظيم أن نشهد له بأنه لم يكن مسجل آراء وأسانيد فحسب، بل كان يشفع بهذا التسجيل رأيه ويدلل عليه فكان يرفض ويعلل لرفضه. وكان يرجح ويدلل على ترجيحه، وكان يؤيد ويبرهن على تأييده. واذا كان منهجه في كتاب التاريخ قد اتسم بالتسجيل المحايد، فان منهجه في كتاب التفسير قد اتسم بالتسجيل والتعليق وابداء الرأي».

وقد عرف القدامى قدر كتاب التفسير للطبري وعنوا به عناية كبرى. فكان الكتاب يحمل شرقاً وغرباً فيقرأه علماء الوقت. وللسيوطي، وهو عالم جليل لا يلقي الكلام على عواهنه، عبارة جميلة في تفسير الطبري وهي «كتاب الطبري في التفسير أجل التفاسير وأعظمها، فانه يتعرض لتوجيه الاقوال وترجيح بعضها على بعض. وللاعراب والاستنباط فهو يفوق بذلك تفاسير الأقدمين... والطبري رأس المفسرين على الاطلاق. وقد جمع في تفسيره بين الراوية والدراية، ولم يشاركه في ذلك أحد لا قبله ولا بعده». وأحرى بالذكر أن كلمات السيوطي هذه كتبت بعد وفاة الطبري بنحو خمسة قرون.

على أننا نجد الطبري يتميز في ناحية أخرى من نواحي العلوم الاسلامية وهي الناحية الفقهية. وليس غريباً على من يضع مثل هذا التفسير أن يكون مطلعاً على الفقه ومذاهبه.

ولنذكر أنفسنا بأن الصبغة العامة للفقه في القرنين الثاني والثالث للهجرة (أي في القرنين الثامن والتاسع للميلاد) أنه كان يعتمد على الاجتهاد وحرية الرأي. وفي أواخر القرن الثالث وفي القرن الرابع للهجرة (القرن العاشر للميلاد) جاءت مرحلة التقيد بواحد من المذاهب الأربعة. وصار الاجتهاد اجتهاد مذهب لا اجتهاداً مطلقاً.

والطبري درس المذاهب كلها ومع أنه سار مع المذهب الشافعي بعض الوقت، فانه لم يلبث أن استقل بمذهب اختاره لنفسه. وقد أوضح موقفه من ذلك في كتابه المسمى «لطيف القول في أحكام شرائع الاسلام». وقد روى ابن فرحون المالكي أنه كان للطبري تلاميذ في مذهبه يدافعون عنه. لكن ذلك انقطع بعد القرن الرابع (أي القرن العاشر). ومن سوء الحظ أن كتب الفقه التي ألفها الطبري في مذهبه فقدت ولم يسلم منها الا كتاب «اختلاف الفقهاء».

في هذا الكتاب تناول صاحبه عدداً من الأحكام الفقهية. وكان يورد بالنسبة الى كل مسألة آراء الفقهاء عامة وهم أبوحنيفة وأبويوسف الشافعي ومالك والأوزاعي وابن حنبل وغيرهم ممن سبقهم. وقد يورد آراءهم مفصلة. فاذا انتهى من ذلك أبدى، في بعض المواضع، رأيه هو.

وبين اختلاف الفقهاء وكل من التاريخ والتفسير فرق وهو أنه لم يورد الاسناد في الاختلاف، بل اكتفى بوضع الرواية أو الرأي. والمهم أن الطبري يبدو، في هذا الكتاب، صاحب معرفة بالفقه، كما بدا من قبل مؤرخاً ومفسراً.

الطبري قمة من قمم الفكر العربي الاسلامي الشوامخ. فهو مؤسس علم التاريخ وواضع الكتاب الرئيسي في التفسير. ■

مروج الذهب للمسعودي

كان من المألوف أن ينتقل طالبو العلم في الدولة العربية الاسلامية من مكان الى آخر لتلقي المعرفة والأخذ عن أهل العلم. ونحن اذا أخذنا أهل القرنين الثاني والثالث للهجرة (أي الثامن والتاسع للميلاد) لوجدنا أن الرحلة في طلب العلم كانت تقتصر على زيارة الحجاز وبغداد والشام ومصر والريّ وما اليهما. فقد كانت هذه هي المناطق التي يعثر فيها كل مايشتهي، سواء في ذلك طلاب الفقه والفلسفة واللغة والأدب والطب وعلوم الطبيعة والرياضيات والفلك. وبمعنى آخر كانت الرحلة تقتصر على شرق المنطقة العربية الاسلامية والى هذه المراكز كانت تشد الرحال من المغرب والأندلس، الا اذا رحل بعض العلماء غرباً وأقام هناك. وحتى الجغرافيون الذين كتبوا وألفوا في ذينك القرنين وفي القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) اقتصروا على ديار الاسلام أو جزء منها فقط. وقد كان ثمة رحلة لأداء فريضة الحج، ولاشك أنه كان يرافق ذلك اهتمام بطلب العلم، لكن الأمر لم يكن يعدو ماذكرناه من حيث الرقعة. وقد حفظ لنا التاريخ أسماء أفراد انتقلوا الى خارج ديار الاسلام في تجارة أو سفارة، لكن أكثرهم لم يدونوا ماشاهدوه. ويستثنى من ذلك سليمان التاجر ومواطنه أبوزيد السيرافي، وهما من أهل القرن الثالث (التاسع) اللذان دونا أخبار زيارة الى الهند والصين، وسليمان هو الأصل وأبوزيد هو المكمل للوصف لكن الوصف الذي نحصل عليه وصف عادي كتبه تاجر لم يكن من أهل العلم. وعندنا أيضاً رحلة لابن فضلان الذي سفر للخليفة المقتدر بالله العباسي في مطلع القرن الرابع (العاشر) وخلّف لنا وصفاً لبلاد الفولغا ومناطق من الروسيا.

لكن الرجل الذي قفز بالرحلة من الحج أو التجارة الى طلب العلم مشاهداً مجرباً مختبراً فهو المسعودي. وقد وسع نطاق رحلته بحيث زار، بالاضافة الى الشرق العربي الاسلامي، مناطق من الهند والصين والحبشة وكتب عن

البلاد التي زارها وعن شعوبها كتابة علمية.

وأبو الحسن علي بن حسين المسعودي ولد في بغداد سنة ٢٨٧ للهجرة و(٩٠٠ للميلاد) وتوفي في مصر سنة ٣٤٦ (أي سنة ٩٥٨) وبين هاتين السنتين قضى المسعودي ربع قرن وهو يتنقل بين الأقطار المختلفة. فزار الأطراف الشرقية من الدولة العباسية مثل فارس وكرمان وأذربيجان، وتجول في مدن الهند المختلفة، ووصل الى جزيرة سيلان ومنها انتقل الى جزيرة مدغشقر وشرق أفريقية. هذا فضلاً عن زيارة لجميع المدن الكبيرة في العراق والشام ومصر.

وشخصية المسعودي شخصية فذة في زمنها. فالرجل مؤرخ رحالة جغرافي، هذا الى أنه كان يلم بجميع فروع المعرفة التي تيسرت للعرب والمسلمين في أيامه. وكان المسعودي يقرأ ويتنقل وهو مفتح العين والذهن والأذن فضلاً عن أنه كان نقادة راغباً دوماً في الحصول على الأخبار الموثوق بها. ولذلك فالذي خلفه لنا المسعودي فيه شيء جديد اذا قيس بمن سبقه. شيء جديد لا من حيث المادة فحسب ولكنه كان جديداً في النظرة والأسلوب.

وقد فقدت كتب المسعودي الكبيرة مثل أخبار الزمان والكتاب الأوسط، الا اذا صح أن أجزاء ضئيلة منهما قد عثر عليها مؤخراً. كما ضاع الكثير من رسائله وكراساته الصغيرة نسبياً، والتي يبلغ عددها الثلاثين. ومع ذلك فللمسعودي كتابان هامان وصلا الينا وهما «التنبيه والاشراف» و«مروج الذهب». والأول القسم الأكبر منه يمكن أن يحسب بين كتب الجغرافية اذ أنه يتحدث فيه عن الأفلاك والنجوم والعناصر وقسمة الأزمنة والفصول والأرض وشكلها وعامرها وغامرها والأقاليم السبعة. وبعد ذلك يخص تاريخ العالم من آدم إلى أيام الرسول بقسط من الكتاب وينتقل بعدها ليؤرخ للرسول والبعثة والدول الاسلامية إلى سنة ٣٤٥ للهجرة (٩٥٧ للميلاد) أي قبل وفاته بعام واحد.

الا أننا نود أن نقف عند مروج الذهب وقفة أطول وقد عرف المسعودي كتابه هذا بقوله: «وقد سميت كتابي هذا بكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لنفاسة ماحواه وعظم خطر ما استولى عليه: من طوالع بوارع ما تضمنته كتبنا السالفة في معناه وغرر مؤلفاتنا في مغزاه، وجعلته تحفة للاشراف من الملوك وأهل الدرايات، لما قد ضمنته من جمل ماتدعو الحاجة اليه، وتتنازع النفوس الى علمه من دراية ما سلف وغبر في الزمان».

والمسعودي في الذي كتبه في التنبيه والاشراف وفي مروج الذهب اختط نهجاً جديداً في التاريخ والجغرافية بما في ذلك الرحلة. فقد كان المؤرخون قبله، وعلى رأسهم الطبري، يكتبون التاريخ حوليات أي يؤرخون الأحداث سنة بعد سنة. ولأنهم كانوا يعتمدون الرواية فقد كانت الأحداث والأخبار، بما في ذلك أخبار الرؤساء والمعارك، تكاد تحتكر القسم الأكبر من كتبهم، ولو أنهم كانوا يوردون أخباراً أخرى تتعلق بالأرضين والناس. أما المسعودي فلم يكن ينظر الى الأحداث، مهما عظمت على أنها مستقلة أو أنها أمور تجري في فراغ. لذلك اهتم بحضارات الأقوام السالفة والمعاصرة وأصبحت الشعوب، بالاضافة الى الخلفاء والملوك والأسر الحاكمة، محوراً لكتابة التاريخ عنده. وقد تجنب الحوليات. كما أنه كتب في مقدمة المروج نقداً لمصادره التاريخية.

ولأن المسعودي اعتمد على المشاهدة كثيراً، فقد كان باستطاعته أن يتحدث عن الشعوب وما مر بها حديث مجرب، مختبر. ونحن اذا أردنا أن نستعمل وصفاً منتزعاً من أيامنا للمسعودي قلنا عنه أنه كان أول مؤرخ جغرافي كتب بالعربية. ففضلاً عن أنه اهتم بالشعوب في تاريخه فقد ربط أيضاً بين الشعوب والأرض التي تقطنها. وهذا يبدو واضحاً من حديثه عن المجتمعات التي وصفها والحياة الاقتصادية التي كانت تلك المجتمعات تحياها. وكان علينا أن ننتظر حتى أيام ابن خلدون ليطلع علينا مؤرخ آخر يضع اصبعه على العلاقة بين الأرض والناس ويؤسس علم العمران.

ويمكن القول اجمالاً بأن المسعودي، في تنبيهه ومروجه، كان صاحب فلسفة في التاريخ، كما أنه استعمل النقد التاريخي للحكم على الأمور الماضية وحتى الخلفاء العباسيين الذين عاصرهم.

ولم يدون المسعودي أخبار رحلاته تدويناً زمنياً. فهو لم يرحل من أجل ذلك، وانما رحل وتنقل ليفهم العالم ومايدور فيه، ولذلك كان يفيد من هذه المعرفة حيث جاءت. وقد قال ابن خلدون عن المسعودي «فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده وتتبين به أخباره. وقد كان الناس يفردونه بالتأليف كما فعل المسعودي في كتاب مروج الذهب: شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلاثمائة غرباً وشرقاً، وذكر بخلهم وعوائدهم، ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك، والدول، وفرق شعوب العرب والعجم، فصار اماماً للمؤرخين يرجعون اليه، وأصلاً يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه».

ولعل حديث المسعودي نفسه عن رحلاته يستحق أن ينقل بعضه هنا، فقد كان في أسفاره على حد قوله يعاني من «... تقاذف الأسفار وقطع الأقفار، تارةً على متن البحر، وتارة على ظهر البر، مستعملين بدائع الأمم بالمشاهدة، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة، كقطعنا بلاد السند والزنج والصين، وتقحمنا الشرق والغرب، فتارة بأقصى خراسان وتارة بوسائط أرمينية وأذربيجان والران والبيلقان، وطوراً بالعراق وطوراً بالشام. فسيرى في الآفاق سرى الشمس في الاشراق».

فالمسعودي يربط في كتاباته التاريخية والجغرافية بين الزمان والمكان والسكان. وهو في ذلك يصدر عن فكر ثاقب ونظر بعيد وتفكير عميق. ومن قوله بالنسبة الى ارتباط صور البشر وأخلاقهم بالبيئة الطبيعية مايلي: «والأخلاق والصور تناسب البلد وتحاذيه وتقاربه وتوافقه وتضاهيه. وكل بلد اعتدل هواؤه وخف ماؤه ولطف غذاؤه، كانت صور أهله وخلائقهم تناسب البلد وتحاذيه، وتشاكل ما عليه أركانه وما أسس عليه بنيانه. وكل بلد يزول عن الاعتدال انتسب أهله الى سوء الحال».

والمسعودي المؤرخ الجغرافي الرحالة العالم عني بأمور النفس وكتب في تدبير العساكر والممالك وفي أصول الأحكام وأصول الملة وأصول الديانات. ومع أن أكثر هذه قد فقد، فان كثيراً من آرائه وارد في التنبيه والمروج. وصنف العلوم على أنها الارتماطيقي أي علم العدد والجومطريقي أي علم المسافة والهندسة والاسترونوميا وهو علم النجوم والموسيقى وهو علم تأليف الألحان. وكان للموسيقى في نفسه أثر كبير على مايبدو مما قاله عنها في المروج.

هذا هو المسعودي العالم المحيط بفروع المعرفة والمركب لها.

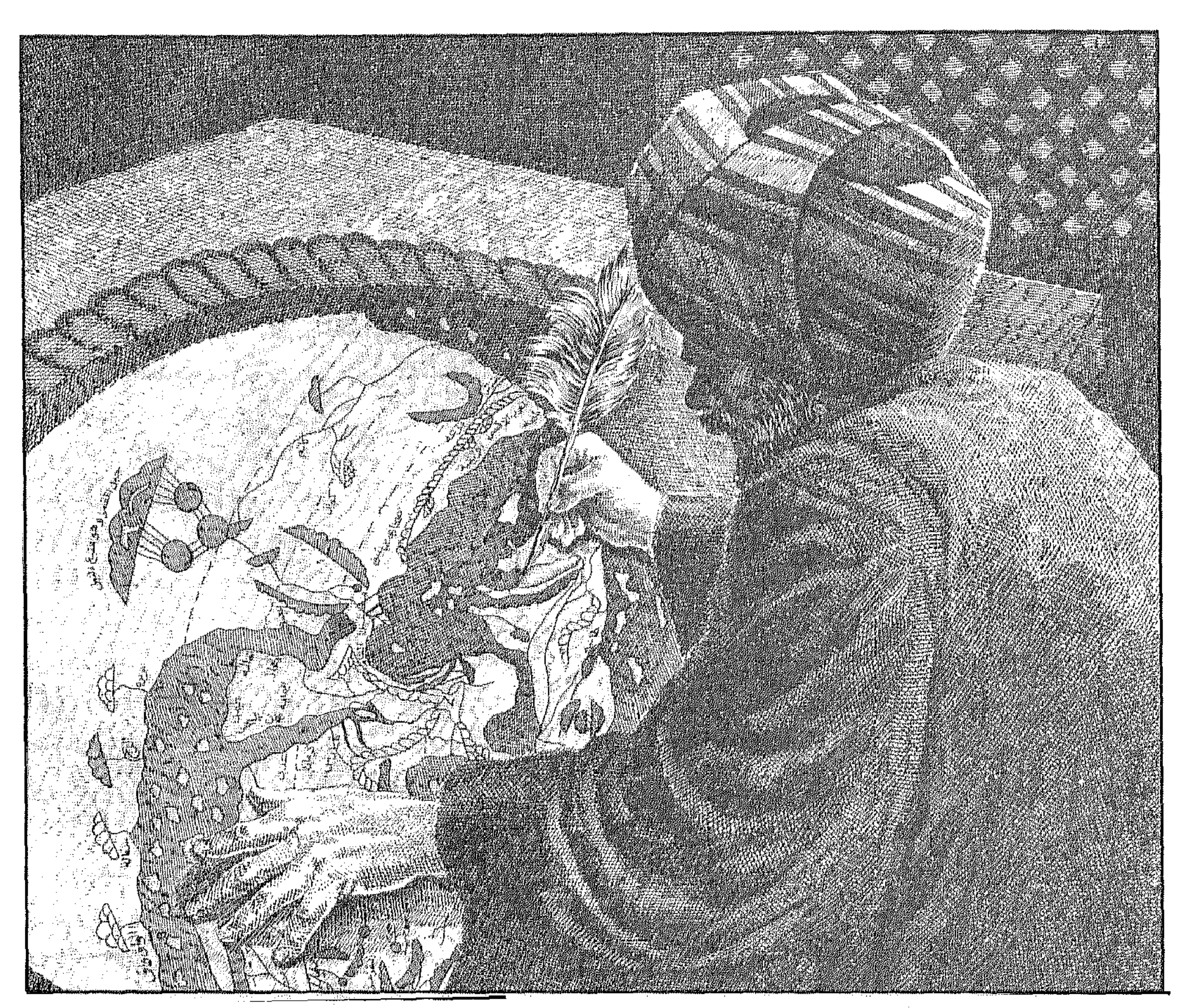
■

خارطة العالم للادريسي



عرف العرب الجغرافية أول ماعرفوها عن اليونان والهنود، وكان بطليموس اليوناني حجتهم، كما كان قد سبق وكان حجة غيرهم قروناً طويلة. وكان الاتجاه الأول في علم الجغرافية عند العرب فلكياً من الجهة الواحدة ومتعمداً تقسيم الأرض الى أقاليمها السبعة من الوجهة الثانية. وأكثر الجغرافيين الذين ظهروا في القرنين الثاني والثالث للهجرة (أي القرنين الثامن والتاسع للميلاد) كانوا يعنون بوضع الأزياج وتقدير المسافات على سطح الأرض. كما كان أكثرهم يقدمون لكتبهم بأمور تتعلق بشكل الأرض ودوران الكون حولها اذا قبلوا ذلك. لكن منذ أواخر القرن الثالث وخاصة في القرن الرابع الهجري (أي القرن العاشر الميلادي) طرأ على الجغرافية العربية الاسلامية تطور كبير. فقد ظهر في هذه الفترة الجغرافيون البلدانيون وهم الذين عنوا بوصف الأقطار والتحدث عن المدن والأسواق والغلات والشعوب. ولذلك أصبحت هذه الكتب الموضوعة سائدة مفيدة. ولعل أشهر هؤلاء البلدانيين الاصطخري وابن رستة وابن حوقل والمقدسي.

والبلدانيون اهتموا بديار الاسلام أصلاً،



ابو عبد الله محمد الشريف الادريسي (٤٩٣ ـ ٥٦٢هـ) الموافق (١١٠٠ ـ ١١٦٦م)

فمنهم من تناولها كلها، ومنهم من اقتصر على جزء منها. وأكثرهم كتب عن مشاهدة وتدبر، وان كان ثمة بعض النقل. وقد كان المقدسي شديد النقد لمن سبقه لأنه نقل عن غيره وأوضح أنه هو تحمل وعثاد السفر وصعوبة العيش في تنقله حتى وضع كتابه أحسن التقاسيم. والمسعودي هو الوحيد من أهل تلك الفترة الذي تحدث عن بلاد خارج ديار الاسلام.

ولهؤلاء البلدانيين فضل آخر. فان كلا منهم وضع خرطاً للبلاد التي تحدث عنها، وان كان ضاع الكثير من هذه الخرط. لكن في واقع الأمر كان هؤلاء قد تخلوا عن العناية بالعروض والأطوال، فجاءت خرطهم مصورات تشير الى الاتجاهات العامة في الشواطيء واتجاه سلاسل الجبال ومجاري الأنهار، لكنها لا توضح هذه الأبعاد نسبياً بمعنى بعد المكان عن المكان درجات في الطول أو العرض.

وقد عرف القرن الخامس الهجري (أي القرن الحادي عشر الميلادي) جغرافيا عربياً مبرزاً هو البكري، وخاصة فيما كتبه عن الأجزاء الغربية من العالم الاسلامي. وفضلاً عن ذلك فقد وضع البكري قاموساً جغرافياً عن جزيرة العرب يعتبر من أدق ما وضع في أيامه.

لكن القرن السادس الهجري (أي القرن الثاني عشر الميلادي) ازدان بظهور جغرافي مبرز كان في عمله بلدانياً، بمعنى وصف الأقطار والمدن والناس ومعايشهم وما الى ذلك، وكان الى ذلك فلكي التفكير بمعنى أنه رسم خارطة على أساس الأطوال والعروض وبذلك كان له فضل كبير على الجغرافية والجغرافيين العرب والمسلمين وغيرهم. هذا هو الشريف الادريسي.

وهو أبو عبد الله محمد الشـريف الادريسي، ويرتفع نسبه الى ادريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة في المغرب في عهد هرون الرشيد. ولد في سبتة بالمغرب سنة ٤٩٣ للهجرة (١١٠٠ للميلاد) حيث نشأ نشأة علم وتربية عالية. ولعله أتم دراسته بقرطبة، التي كانت مركزاً من مراكز العلم يومها. والذي عليه الباحثون هو أن ثقافته وتعليمه اشتملا على العلوم الرياضية والجغرافية والفلكية والطبية وما يتبع هذه من اهتمام بالنبات ومنافعها.

وأخذ الادريسي نفسه بالتنقل والرحلة، وهو بعد في شرخ الشباب فزار الشمـال الافريقي والأندلس وجزءاً من فرنسا. واتجه شرقاً فزار آسية الصغرى ومصر والشام وقضى في الشرق بعضاً من الوقت. ويرى الاستاذ عبد الله كنون أن الادريسي أمل أن يجد له في المشرق مستقراً، لكن أمله خاب وقد عبر عن ذلك بأبيات من الشعر منها:

ان عـيـبـاً عـلى المـشـارق أن أر
جـع عـنـهـا الى ذويـل المـغـارب
وعـجـيـب يضـيـع فـيـهـا غـريـب
بـعـدمـا جـاء فكـره بـالـغـرائـب
ويـقـاسي الظما خـلال أنـاس
قسمـوا بينهم هـدايـا السـحـائب

ثم يظهر الادريسي في بلاط روجار صاحب صقلية حيث ينتهي سنة ٥٤٨هـ (١١٥٤م) من وضع كتابه **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. واذا كان الادريسي عمل في الكتاب الخارطة خمس عشرة سنة فمعنى هذا أنه كان في أنحاء المغرب قرابة عشرين سنة قبل أن يستقر في بلاط روجار في بلرمو. ولا شك عندنا أن الرجل زاد معرفته وخبراته في هذه المدة.

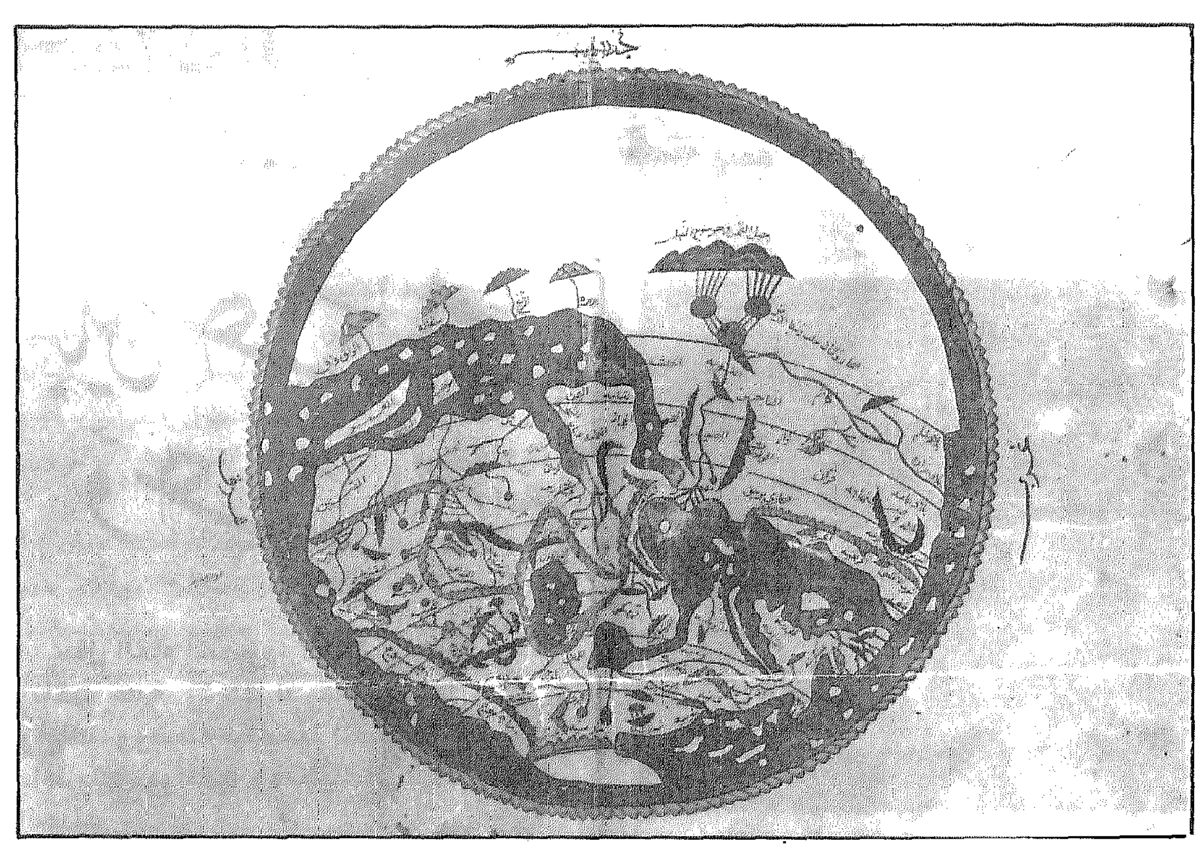
ذهب الادريسي الى صقلية بناء على دعوة من روجار ملكها. ومعنى هذا أن الرجل كان قد أصبح معروفاً عنه أنه مهتم بالشؤون الجغرافية والفلكية. وكان للملك رغبة في أن يؤلف له كتاب في وصف مملكته والممالك المجاورة لها والمتصلة بها. وكانت صقلية يومها ذات صلات تجارية وثيقة بشواطىء البحر المتوسط. وطلب روجار من الادريسي أن يقوم بذلك. فصادف الطلب هوى في نفسه، فانصرف اليه بكليته.

ويبدو أن عمل الادريسي كانت له مظاهر ثلاثة وهي: أولاً رسم مناطق العالم وأماكنه على أسس مواقعها من خطوط العرض والطول على دائرة عظيمة صنعت من الفضة الخالصة. وقد قدر ميلر مساحتها بثلاثة أمتار ونصف طولاً ومتر ونصف عرضاً، ثانياً أن ينقل عن هذه الدائرة الفضية الصور نفسها على الورق بحيث تتجمع لديه خارطة كبيرة للعالم. وثالثاً أن يصف هذا كله في كتاب. والذي نعتقده أن الادريسي عمل على هذه الجبهات الثلاث معاً.

وكان الادريسي يعتقد بكروية الأرض، وهي فكرة انقسم الناس بشأنها منذ أن بدأ الفلاسفة اليونان بالتفكير بشكل الأرض في القرن السادس ق.م. واستمـر الانقسام عبـر العصـور بـين الفلكيـين والجغرافيـين. وكان الادريسي يقبـل الفكـرة بأن المعمـور من الأرض هو نصفهـا الشمالي فقط، وأن الجنوب لا حياة فيه. وكان يرى، كما كان غيره يقبل ذلك، أن خط الاستواء يقسم سطح الأرض الى قسمين متساويين. ولكن الادريسي لما أراد أن يضع منابع النيـل على دائرته اضطر أن يصل الى درجة ١٦ جنوبي خط الاستواء.

فالخارطة الادريسية التي رسمها الجغرافي الكبير على الدائرة الفضية تشمل الجزء المعمور من الأرض المعروف يومها في آسية وأفـريقية وأوروبة. وقد قسم هذا القسم المعمور الى سبعة أقاليم موازية لخط الاستواء كان أولها ينتهي بخط ٢٣ شمالاً والأقاليم الخمسة التالية يشغل كل منها ست درجات والاقليم السابع يشغل تسع درجات بحيث ينتهي عند الخط ٦٣ شمالاً. ثم قسم كل اقليم عشرة أقسام جزئية من الغرب الى الشرق. وهذا التقسيم قام عنده مقام خطوط الطول.

على الدائرة الفضية أثبت درجات العـرض بقياس هندسي دقيق. وعين على هـذه الدائرة الأقطار المختلفة بحيث أن الفرق بين ما فعله الادريسي وبين تعيين هذه الأقطار أربعة قرون بالنسبة لخطوط العرض الآن لا يختلف الا في أجـزاء صغيرة من الدرجـة. ولم يقتصر عمل الادريسي على نقش الأقطار على الدائرة الفضية، بل أنه نقش الخلجان والأنهار والمدن الكبرى.



«خارطة العالم» للادريسي تعود الى القرن الثاني عشرم

وهنا تظهر عبقرية الادريسي.

ورغبة منه في أن تكون الأخبار التي حصل عليها دقيقة فقد طلب الى روجار أن يمكنه من استقصاء المعلومات واستقائها من الرحالة المتجولين والتجار وأهل البحر. ولم يثبت منها الا ما كان عليه اتفاق.

والعمل الثاني هو أنه رسم لكل جزء من الأجزاء السبعين التي ظهرت على الدائرة الفضية خارطة خاصة به بحيث أعطى العالم أول خارطة عالمية دقيقة منتظمة. وضم أخيراً ما عنده من الأخبار الصادقة بعضها الى البعض الآخر وجعلها في كتاب هو «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

وقد أتلفت الدائرة الفضية في ثورة وقعت في بلرمو بعد الفراغ منها بمدة قصيرة. لكن الخارطة العالمية وصلت الينا وقد جمعها ورسمها البحاثة الألماني ميلر سنة ١٩٣١، ورسمها المجمع العلمي العراقي بشكل كبير ملون بالعربية سنة ١٩٥١. أما النزهة فبين أيدينا وها قد أخذت جماعة من العلماء بنشره نشرة علمية دقيقة.

ومع أن الباحثين وجدوا أن بعض الأخطاء قد تسربت الى النزهة، فلا يزال الكتاب يعتبر كنزاً جغرافياً، وحتى المعلومات التي يحويها الكتاب عن بلاد نائية مثل الهند والصين وما اليهما تتسم بالصحة على وجه العموم.

وهكذا فان المعرفة الجغرافية الفلكية والبلدانية التي دارت بين العرب والمسلمين أربعة قرون، وتقلبت أحوالها وصيغ التعبير عنها وتنوعت الاهتمامات بها، خرجت مجتمعة مكتنزة موضحة منظمة على يد الشريف الادريسي. هذه مأثرة هذا الرجل. هذا الى أسلوب عربي ناصع مبين وضع به كتابه.

ويبدو أن الادريسي برح به الشوق الى بلده بعد مدة، ولو أن غليوم بن روجار أكرمه كما أكرمه أبوه من قبل، فعاد الى سبتة حيث قضى بقية أيامه. ولعله اهتم وقتها بالنبات وخواصه الطبية. وقد توفي في سبتة سنة ٥٦٠ للهجرة (١١٦٤ للميلاد). ■

السفير د. حليم أبو عز الدين

بين عام وعام

حفل العام المنصرم، ١٩٨٢، بأحداث جسام أناخت عليه، وتركت آثارها بارزة على شهوره وأيامه، ووسمته بطابعها المقيم، بل وانتقلت، بأكثريتها، بواقعها وعنائها، الى العام الحالي، الجديد.

هذه الأحداث، اخترنا منها للبحث في هذه الدراسة، ستة أحداث، ثلاثة منها عربية، وثلاث دولية.

الأحداث العربية هي، بالطبع: حرب لبنان، حرب الخليج، القمة العربية في فاس.

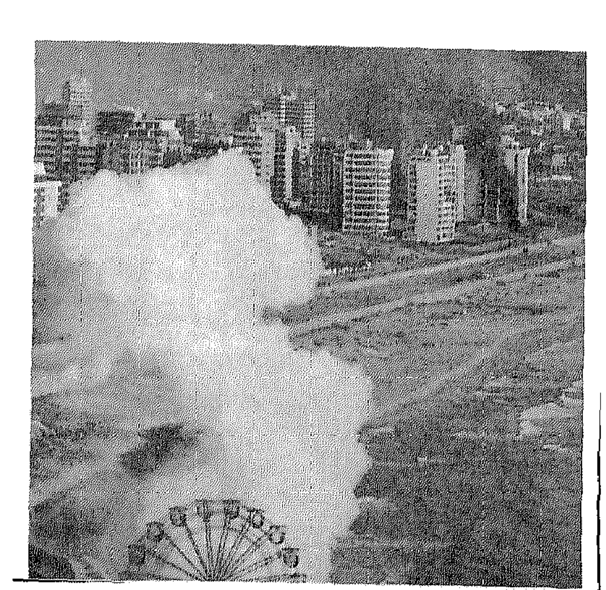
والأحداث الدولية تتناول: موت بريجنيف وصعود أندروبوف، ومتاعب بولونيا، وحرب جزر فوكلندز. ونبدأ، ولا شك، بحرب لبنان.

حرب اسرائيل في لبنان



في ٤ حزيران ١٩٨٢ قام الطيران الحربي الاسرائيلي بغارات جوية ـ هي الأولى منذ تموز ١٩٨١ ـ على المنطقة الغربية في بيروت وعلى ضاحيتها الجنوبية، وعلى الجنوب اللبناني.

تمثلت هذه الغارات بتسع طلعات متتالية قصفت منشآت المدينة الرياضية، جنوبي بيروت، ومخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة وطريق المطار وبئر حسن، واستهدفت خاصة مواقع المقاومة الفلسطينية والتنظيمات اللبنانية في الحركة الوطنية وحركة أمل.



وشمل القصف أحياء سكنية ومؤسسات صحية وتربوية. وأصيبت منشآت المدينة الرياضية بأضرار جسيمة وتهدم القسم الأكبر منها. كذلك اصيبت المخيمات ومواقع بعض التنظيمات بالدمار.

هذه الغارات جرت قبل ثلاثة أيام من الموعد المقرر لوصول مبعوث الرئيس الاميركي الخاص الى منطقة الشرق الأوسط، السفير فيليب حبيب.

وهذا التوقيت لا يحير من تتبع بدقة مخططات السياسة الأميركية في الشرق الأوسط، ومثلها في الشرق الأقصى.

وعلى سبيل المثل والقياس التاريخي نذكر ـ وأتذكر جيدا إذ كنت عندها سفيراً في القاهرة ـ أنه عندما تصاعدت عمليات الحشود العسكرية المصرية والاسرائيلية على حدود سيناء في أوائل حزيران ١٩٦٧، عرضت حكومة الولايات المتحدة الأميركية، على عهد الرئيس ليندون ب. جونسون، ان توفد نائب الرئيس الاميركي الى القاهرة بداعي العمل على تهدئة الحال. فأجابت القاهرة بالقبول، بل انها اقترحت أن توفد هي نائب الرئيس عبد الناصر في ذلك الحين، زكريا محيي الدين ومستشار

الرئيس للشؤون الخارجية الدكتور محمود فوزي، الى واشنطن لبحث الوضع مع الحكومة الاميركية. وفعلاً تم الاتفاق على ذلك بين الفريقين، وتقرر أن يسافر محي الدين وفوزي إلى واشنطن في ٦ حزيران ١٩٦٧، بعد ان تعهدت الجمهورية العربية المتحدة ـ كما كانت تدعى مصر في ذلك الحين ـ بعدم البدء بالقتال.

وصباح يوم ٥ حزيران غزت القوات الاسرائيلية مصر براً وبحراً وجواً.

وهذا ما حدث في لبنان.

ولعل ذلك يعود الى عامل الصدفة!

ونعود الى حرب لبنان.

تقدم لبنان بشكوى الى مجلس الأمن على العدوان الجوي الاسرائيلي. وصدر، في اليوم التالي، أي في ٥ حزيران، قرار مجلس الأمن رقم ٥٠٨ القاضي بـ «الحث» على وقف اطلاق النار.

ولكن اسرائيل، بدلاً من ان توقف اطلاق النار، بادرت في ٦ حزيران الى غزو لبنان بقوات معززة بالدبابات وناقلات الجند على ستة محاور في القطاعات الشرقي والأوسط والغربي، على جبهة عرضها تسعون كيلومتراً. وتجاوزت القوات الاسرائيلية مواقع القوات الدولية واشتبكت مع القوات المشتركة، من لبنانية وفلسطينية، التي تصدت لها ببسالة!

وفي نفس اليوم اصدر مجلس الأمن قراره رقم ٥٠٩ داعياً اسرائيل الى سحب قواتها فوراً، ومن دون شروط، الى ما وراء حدود لبنان المعترف بها دولياً.

ولم تأبه اسرائيل لهذين القرارين، بل زادت من عدوانها، وتقدمت كتل الحديد والنار الاسرائيلية في الأراضي اللبنانية، تساندها الطائرات من الجو والدوارع من البحر، تصب جام نيرانها على اللبنانيين والفلسطينيين.

وهنا لا بد للمتتبع المدقق من أن يتساءل: ألم يكن بامكان الولايات المتحدة أن تلجم اسرائيل. ولو حتى يستكمل السفير حبيب مهمته؟

أم أن واشنطن وجدت في الغزو الاسرائيلي مقدمة مثمرة لمهمة حبيب؟

هذه التساؤلات نتركها في ذهن القارىء، ولعلها مستقرة في ذهنه منذ ٤ حزيران!

وتقدمت جحافل اسرائيل في لبنان فاحتلت الجنوب ودخلت الجبل، ساحلاً وجرداً، ووصلت إلى طريق الشام، بل وتخطتها قرب الساحل. وتوقفت على مداخل القطاع الغربي من بيروت، وقام الوسيط الاميركي بنقل انذارات اسرائيل بوجوب اخلاء بيروت من القوات الفلسطينية والسورية.

وضمنت واشنطن عدم دخول اسرائيل غربي بيروت بعد خروج القوات الفلسطينية والسورية منها.

وخرجت تلك القوات استجابة لطلب لبنان.

وما أن غادرت تلك القوات بيروت حتى غزتها القوات الاسرائيلية بقضها وقضيضها.

وتجلت بذلك قيمة الوعود الاسرائيلية والضمانات الاميركية. وأنا أؤكد على ذلك تحذيراً لبني قومي وتقريراً للواقع.

وبعد ان كانت مهمة القوات الاسرائيلية في لبنان تأمين «سلامة الجليل» ـ وهو الاسم الذي اطلق على العملية ـ إذا باسرائيل تتوسع بالاحتلال، وترغي وتزبد، وتطالب بمعاهدة مع لبنان، وببعض المواقع الستراتيجية فيه، وبتطبيع العلاقات معه.

ولا يزال واقع الاحتلال الاسرائيلي على حاله حتى كتابة هذه السطور في آخر كانون الأول ١٩٨٢.

حرب الخليج

بين العراق وايران خلاف قديم على رسم الحدود بينهما، الحدود البحرية في منطقة شط العرب، والحدود البرية في بعض المناطق المتاخمة.

وكثيراً ما تأزمت العلاقات بين البلدين بسبب هذه الخلافات وغيرها مما يعود الى التاريخ.

وحدث ان التقى، في ٦ آذار ١٩٧٥، في الجزائر، نائب الرئيس العراقي (حينذاك) السيد صدام حسين، وشاه ايران السابق، في اجتماع عقدته الدول المنتجة للنفط. وبمبادرة من الرئيس الجزائري هواري بومدين ـ كما جاء في مقدمة اتفاق الجزائر ـ «أجريا محادثات

مطولة حول العلاقات بين العراق وايران. وقد اتسمت هذه المحادثات ببديع الصراحة الكاملة وبارادة مخلصة من الطرفين للوصول الى حل نهائي دائم لكل المشاكل القائمة بين بلديهما، وتطبيقاً لمبادىء سلامة التراب وحرمة الحدود، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية». واتفق الفريقان على «اجراء تخطيط نهائي لحدودهما البرية بناء على بروتوكول القسطنطينية للعام ١٩١٣، ومحاضر لجنة تحديد الحدود للعام ١٩١٤». كما اتفقا على «تحديد حدودهما النهرية حسب خط تالوك».

على أن الأمور ما لبثت ان تعقدت. واشتكى العراق من تلكؤ ايران في تطبيق ما يعود عليها من موجبات نص عليها اتفاق الجزائر.

وما لبث ان انفجر القتال بين البلدين في ١٤ ايلول ١٩٨٠. والرئيس الايراني بني صدر اعترف في ١٧ ايلول بان ايران لم تطبق اتفاق الجزائر.

وفي ذلك اليوم بالذات اعلن العراق انتهاء العمل باتفاق الجزائر بسبب تخلف ايران عن تطبيقه كما اعلن عودة شط العرب الى السيادة العراقية.

وقامت حرب شرسة بين البلدين. ودخلت القوات العراقية الأراضي الايرانية. ثم عادت فانكفأت الى الأراضي التي تطالب بها العراق.

وصدرت عدة قرارات عن مجلس الأمن بوقف اطلاق النار بين البلدين، وقبل العراق التقيد بتلك القرارات، ولكن ايران رفضتها.

كما قامت وفود عربية واسلامية ومن دول غير منحازة بمساع لوقف القتال في الخليج، ولكن بدون ان تتوصل الى نتيجة بسبب موقف ايران الرافض.

وفي ٢٠ حزيران ١٩٨٢ اعلن العراق «ان القطعات العراقية باشرت الانسحاب من داخل المدن والأراضي الايرانية حتى الحدود الدولية، وأن عمليات الانسحاب ستنتهي في مدة اقصاها عشرة ايام من هذا اليوم، وأن بغداد ستستمر في العمل مع هيئات مختلفة تولت الوساطة لانهاء النزاع بين العراق وايران بغية التوصل الى تسوية عادلة ومشرفة طالب بها العراق منذ بداية المعارك.

ولكن ايران استمرت في الرفض طالبة اعلان العراق دولة معتدية، والتعويض عن الخسائر التي لحقت بايران من جراء الحرب.

وفي ٢٩ حزيران اعلن العراق انهاء سحب قواته من الأراضي والمدن الايرانية التي كان يحتلها.

ولكن ايران اعلنت، في نفس اليوم، متابعة الحرب مع العراق. واستمرت حرب الخليج، ودخلت قوات ايرانية بعض الأراضي الحدودية في القطاعين الأوسط والجنوبي من العراق.

ولما تضع الحرب اوزارها بعد.

القمة العربية الثانية عشرة في فاس

هذه القمة العربية كانت ذات شقين.

الشق الأول انعقد في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٨١ ولكن اجتماعه الأول كان الأخير بسبب تغيب بعض الدول عنه، وبسبب بعض الصعوبات التي واجهها.

وعرضت على تلك القمة قضيتان اساسيتان هما قضية لبنان: «وضع ستراتيجية عربية شاملة تهدف الى منع اسرائيل من العدوان، ووضع تصور لمواجهة العدوان الاسرائيلي إذا ما وقع»، وكذلك عرض على القمة مشروع سعودي للسلام في الشرق الأوسط.

القمة وافقت على القرار الخاص بلبنان، وارجأت درس موضوع مشروع السلام السعودي الى دورة مقبلة وانفض اجتماع الشق الأول من القمة الثانية عشرة.

وعادت القمة العربية الثانية عشر الى الاجتماع ثانية في فاس في ٦ أيلول ١٩٨٢. واستمرت جلساتها حتى ٩ أيلول، وأصدرت قراراتها حول موضوعين رئيسيين هما حرب الخليج، ومبادرة السلام السعودية.

ففيما يتعلق بحرب الخليج دعت القمة الطرفين المتنازعين الى «ضرورة الالتزام الكامل بقراري مجلس الأمن رقم ٤٧٩ للعام ١٩٨٠، و٥١٤ للعام ١٩٨٢ (وقف اطلاق النار)، والعمل على تطبيقهما».

وفيما يعود الى مبادرةالسلام السعودية قررت القمة اعتماد المبادىء الآتية:

«١ ــ انسحاب القوات الاسرائيلية من

جميع الأراضي التي احتلتها في العام ١٩٦٧، بما فيها القدس العربية.

٢ ــ ازالة المستعمرات التي اقامتها اسرائيل بعد العام ١٩٦٧ في الأراضي العربية.

٣ ــ ضمان حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية لجميع الأديان في الأماكن المقدسة.

٤ ــ تأكيد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وممارسة حقوقه الوطنية الثابتة غير القابلة للتصرف بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ممثله الشرعي والوحيد، وتعويض من لا يرغب في العودة.

٥ ــ تخضع الضفة العربية وقطاع غزة لفترة انتقالية تحت اشراف الأمم المتحدة ولمدة لا تزيد عن بضعة اشهر.

٦ ــ قيام الدولة الفلسطينية المستقلة بعاصمتها القدس.

٧ ــ يضع مجلس الأمن الدولي ضمانات سلام بين جميع دول المنطقة بما فيها الدولة الفلسطينية المستقلة.

٨ ــ يقوم مجلس الأمن الدولي بضمان تنفيذ تلك المبادىء».

وهنا لا بد لنا من الاشارة إلى ان الرئيس الاميركي ريغان كان، في اول ايلول ــ أي بضعة ايام قبيل قمة فاس ــ اطلق مبادرته لتسوية قضية الشرق الأوسط، وخلاصتها «ان حكماً ذاتياً من جانب الفلسطينيين للضفة الغربية وقطاع غزة، مرتبط بالأردن، يوفر افضل فرصة لسلام دائم وعادل وثابت».

على ان اسرائيل سارعت الى رفض مبادرة ريغان، كما رفضت، بالطبع، المشروع العربي.

واليوم يقوم الأردن باجراء اتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية من جهة، ومع الادارة الاميركية من جهة اخرى، في محاولة للتوصل الى تسوية بين الموقفين.

وفاة بريجنيف وصعود اندروبوف

ننتقل الآن الى الأحداث الدولية البارزة خلال العام ١٩٨٢.

ونبدأ بحادث موت بريجنيف، الأمين العام للحزب الشيوعي السوفياتي ورئيس مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي. ففي



١١ تشرين الثاني ١٩٨٢ اعلنت موسكو ــ متأخرة حوالي ٢٦ ساعة عن الحدث ــ وفاة ليونيد بريجنيف، بعد ان حكم الاتحاد السوفياتي حوالي ١٨ عاماً.

ولم تمض ٢٤ ساعة على الاعلان حتى اجتمعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي وانتخبت بالاجماع يوري اندروبوف، الرئيس السابق للمخابرات السوفياتية، اميناً عاماً للحزب، خلفاً لبريجنيف الذي كان يتولى ايضاً منصب رئاسة مجلس السوفيات الأعلى.

ورشح اندروبوف لهذا المركز أبرز منافسيه قسطنطين تشيرنينكو.

الزعيم السوفياتي الجديد شدد، في اول خطاب له، على التزام سياسة بريجنيف، وعلى بناء القوة العسكرية للاتحاد السوفياتي. وقال: «اننا نعرف جيدا ان السلام لا يستجدى من الامبرياليين، ولا يمكن الذود عنه الا بالاعتماد على القوة المنيعة للقوات المسلحة السوفياتية. وكان ليونيد ايليتش بريجنيف، بصفة كونه قائداً للحزب والدولة وكرئيس لمجلس الدفاع، يبدي عناية على الدوام بأن تكون القدرة الدفاعية للبلاد في مستوى متطلبات العصر».

المراقبون رأوا ان القيادة السوفياتية الجديدة ستتمسك بالخطوط العريضة لسياسة بريجنيف على الصعيدين الداخلي والخارجي. وانه ما زال من المبكر الكلام عن احتمال قيام

اندروبوف بمراجعة لهذه السياسة، غير انهم يتوقعون ان يحظى الوضع الاقتصادي باهتمام استثنائي.

كما رأى محللون أن القيادة الجديدة ستعمد الى اعادة تشكيل الهيئات القيادية، وانها قد تلجأ الى «ترقيات استثنائية» تجاوز التقليد الذي كان متبعاً حتى الآن.

ويرى هؤلاء المحللون ان عملية اعادة تشكيل القيادات تنطلق من هم مزدوج: الأول ضرورة ايجاد توازن افضل في قمة الهرم بين القوميات المختلفة في البلاد، والآخر اشراك عناصر شابة في الهيئات القيادية التي تضم عدداً كبيراً من المسنين.

وفي الواقع، فقد أجرت اللجنة لمركزية للحزب الشيوعي السوفياتي تعديلاً على تشكيل المكتب السياسي للحزب الشيوعي صار بموجبه حيدر علييف الرجل الثاني في المكتب السياسي بعد اندروبوف. وكان علييف من أقرب معاوني اندروبوف في لجنة امن الدولة العليا.

ولكن مجلس السوفيات الأعلى ختم دورته في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٨٢ من دون انتخاب رئيس جديد للدولة خلفاً لبريجنيف. وكان المرشحون لهذا المنصب ثلاثة هم اندروبوف نفسه، وتشيرنينكو، وغروميكو.

وترك عدم انتخاب رئيس الدولة تساؤلات لم تتضح عليها عليه بعد.

أحداث بولونيا

وننتقل من الاتحاد السوفياتي الى بولونيا الخلاف بين الحزب الشيوعي البولوني والحكومة البولونية من جهة، ونقابات «التضامن» العمالية من جهة أخرى اشتد وبات ينذر بعواقب وخيمة.

وكانت فئة منشقة من نقابيي الحزب الشيوعي البولوني، وعلى رأسها ليش فاليسا، قد قامت بعدة اضرابات في مصانع السفن البولونية في غدانسك، وتمكنت من مواجهة السلطة البولونية لدرجة انها أقدمت على تأسيس نقابات جديدة، خارجة عن نطاق الحزب الشيوعي البولوني، دعتها نقابات «التضامن».

السلطة البولونية اعترفت بهذه النقابات،



ولكن ليس عن رضى. ولهذا بقيت العلاقات بين الفريقين متوترة وقابلة للانفجار في أي وقت.

وفعلاً قامت الحكومة البولونية، في ١٣ كانون الأول ١٩٨١، واستبقت مواجهة مع نقابات «التضامن»، بعد انقطاع الحوار بينهما، واعلنت «حالة الطوارىء» واضعة البلاد تحت حكم عسكري بعد نحو ١٥ شهراً من الاضرابات والاضطرابات العمالية.

وشكلت الحكومة «المجلس العسكري للانقاذ الوطني»، واتخذت اجراءات فيها تقييد للحريات العامة، والقت القبض على عدد من المسؤولين السابقين في الحزب وفي النقابات ورئيس «التضامن»، ليش فاليسا.

وأعربت موسكو عن ارتياحها الى الخطوة التي اقدمت عليها الحكومة البولونية، واعتبرت ان القلاقل التي وقعت في بولونيا سببتها محاولات بعض الأوساط في الغرب للتدخل في الشؤون البولونية.

هذه الاجراءات الصارمة قابلها زعماء «التضامن» الذين بقوا خارج المعتقلات بالرفض مما ادى الى انتشار القلاقل في بولونيا. ولكن السلطة والجيش ما لبثا ان امسكا بالموقف.

ثم اعلنت الحكومة البولونية ان لا عودة بعد الى نقابات «التضامن».

وقد أطلقت السلطات سبيل زعيم التضامن ليش فاليسا في آخر العام ١٩٨٢ ولكنها وضعته تحت الرقابة المشددة. ولا تزال الأوضاع في بولونيا قلقة.

حرب الفوكلندز

ونأتي في الختام الى الحديث عن حرب «جزر فوكلندن» وهي مجموعة من الجزر قابعة جنوبي المحيط الأطلسي تجاه شواطىء الأرجنتين.

هذه الجزر تحتلها بريطانيا منذ اكثر من قرن ونصف. وسبق ان احتلتها فرنسا، كما كانت جزءاً من الأرجنتين.

ولم تعترف الأرجنتين بالاحتلال البريطاني لهذه الجزر، وظلت تطالب بملكيتها طوال تلك السنين.

وبقيت العلاقات بين بريطانيا والأرجنتين، بسبب مشكلة هذه الجزر، بين مد وجزر.

وظلت الأرجنتين تطالب باستعادة الجزر، ولكن بلا فائدة.

واشتد الخلاف بين البلدين.

ولم تعتقد بريطانيا ان الأرجنتين ستجرؤ على غزو الجزر، لذلك لم تعزز قواتها الطفيفة فيها.

وفوجئت بريطانيا، والعالم، في ٢ نيسان ١٩٨٢، بقوة ارجنتينية أطلقها الحكم العسكري في بوينس ايرس لاحتلال الجزر.

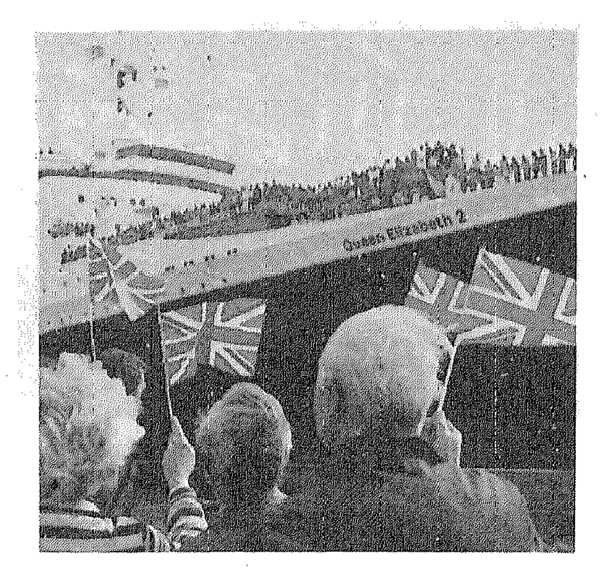
ونزلت هذه القوة على اراضي الجزر برغم مقاومة الحامية البريطانية الصغيرة فيها.

بريطانيا شكت الأمر لمجلس الأمن ثم انذرت الأرجنتين بوجوب اخلاء الجزر حالاً، وعمدت الى اعداد قوة بحرية كافية لاسترداد الجزر الواقعة على بعد آلاف الأميال منها.

واعلنت لندن في ٤ حزيران انها ستحرر جزر فوكلندز من الاحتلال الأرجنتيني اذا لم تعمد الأرجنتين فوراً الى سحب قواتها منها.

ولكن الأرجنتين سدرت في احتلالها. وفي ٥ حزيران، تحركت قوة بحرية بريطانية باتجاه الجزر وبدأت واشنطن القيام بمساع ووساطة بين بريطانيا والأرجنتين. وفرضت اكثر دول اوروبا الغربية حظراً على ارسال الأسلحة الى الأرجنتين. أما الاتحاد السوفياتي فأعلن أن وجود بريطانيا في جزر فوكلندز يناقض مبادىء الأمم المتحدة وحق الشعوب في تقرير المصير.

وبدأ الأسطول البريطاني يقترب من الجزر، واشتدت الوساطة الأميركية للحؤول دون التصادم.



وفي ٢٥ نيسان قصفت طائرة عامودية بريطانية اقلعت من حاملة طائرات، غواصة ارجنتينية قرب جزيرة جورجيا جنوبي الفولكندز. وفي ٢٦ منه نزلت طلائع القوات البريطانية في جزيرة جورجيا. وفي ٣٠ اعلنت واشنطن، بعد ان رفضت الأرجنتين اقتراحاً اميركياً للسلام يقضي باقامة ادارة مشتركة بريطانية — ارجنتينية في فوكلندز، اعلنت تأييدها لبريطانيا، واعتبرت الأرجنتين معتدية.

وبادرت الأرجنتين اذ ذاك، الى اعلان قبولها قرار مجلس الأمن الذي يدعوها لاخلاء الجزر.

ومن ثم احاط الأسطول البريطاني بالجزر وبدأت الطائرات البريطانية بقصف مدرج مطار بورت ستانلي عاصمة الجزر لتعطيله وحرمان الأرجنتينيين من استعماله.

ونزلت احدى قوات «الكوماندو» البريطانية على الشاطىء. واشتدت المعارك براً وبحراً وجواً، بين الفريقين. وتقدم البريطانيون في الجزر وفصلوا بين مجموعتين منها. وطلبت الأرجنتين في ٢٥ أيار وقف اطلاق النار بلا شرط. واستسلمت القوات الأرجنتينية في الجزر.

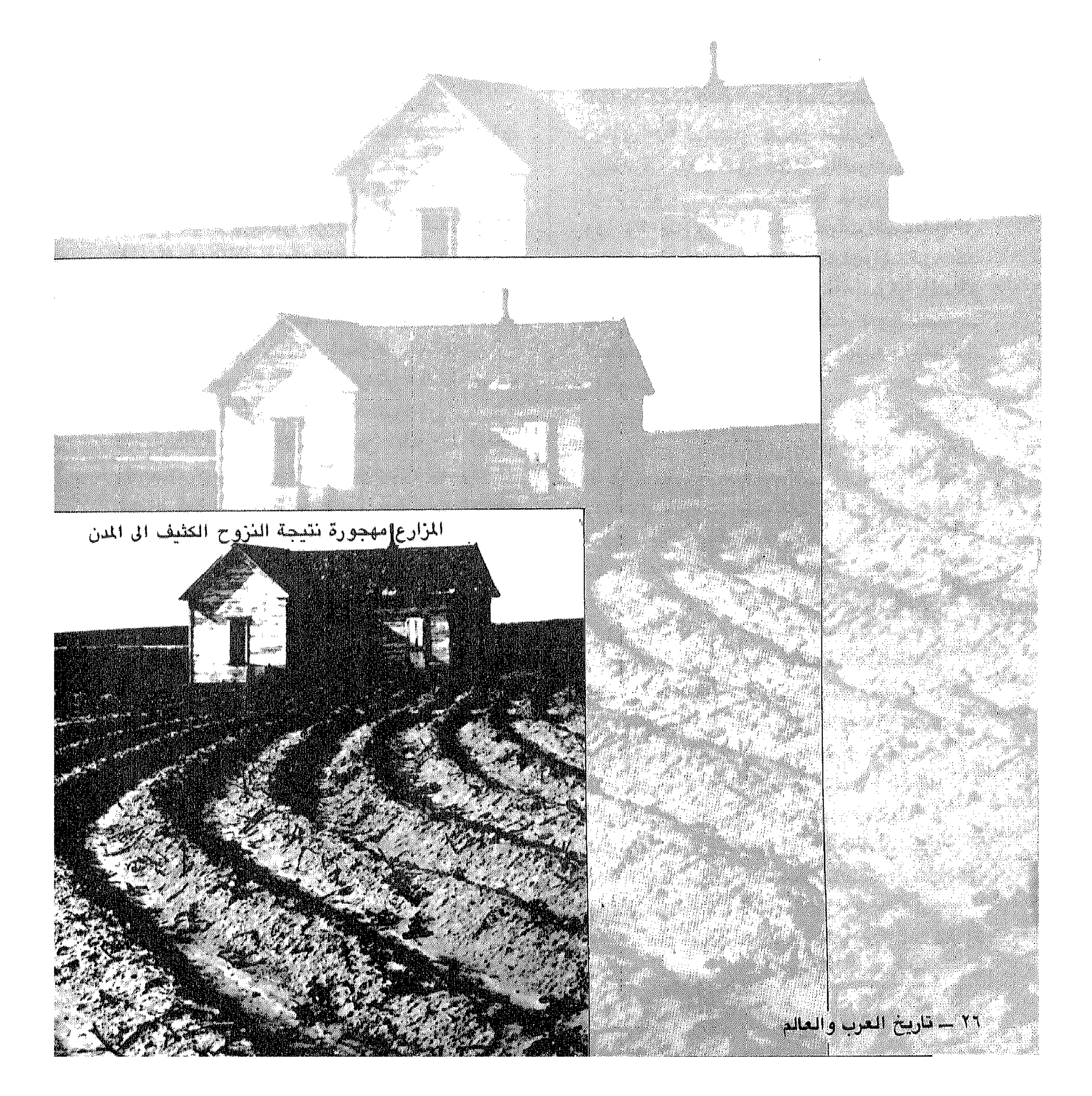
وأعادت بريطانيا احتلال الجزر، وأبقت على القوات الأرجنتينية في الأسر، ولكنها عادت فأفرجت عنها وأعادتها الى البر الأرجنتيني.

وانتهت حرب الفولكندز باعادة الوضع الى ما كان عليه.

وأكدت هذه الحرب، كغيرها، ان القوة لا تزال الوسيلة الفاعلة لحل النزاعات. ■

قصّة الكساد الاقتصادي الكبير (١٩٢٩ - ١٩٣٣)

د. يوسف شبل



المزارع مهجورة نتيجة النزوح الكثيف الى المدن

ليس توقيت كتابة هذا المقال مجرد صدفة وان كان تاريخ الأحداث في مجلة متخصصة كمجلة «تاريخ العرب والعالم» لا يحتاج الى تبرير. غير ان الأحداث الاقتصادية الراهنة في العالم الصناعي وخصوصاً في الاقتصاد الاميركي، حيث ارتفعت البطالة الى حوالي ١١٪ من مجمل اليد العاملة، وحيث يخيم الركود الاقتصادي منذ مدة عامين في وقت اخفقت فيه معظم السياسات الاقتصادية، أعاد شبح الكساد الكبير الى اذهان المسؤولين ورجال الأعمال والمواطنين على حد سواء. لذلك فان سرد قصة الكساد الاقتصادي الكبير يكتسب اكثر من معنى.

لم تعرف البلدان الصناعية في تاريخها الاقتصادي الطويل فترة أقسى من فترة الكساد الكبير (Great Depression)، الذي عصف باقتصاد البلدان الصناعية وخصوصاً الولايات المتحدة الأميركية واوروبا الغربية خلال فترة اربعة اعوام بدأت في نهاية عام ١٩٢٩ واستمرت حتى عام ١٩٣٣. وقد تركت هذه الأزمة الاقتصادية الخانقة آثاراً وبصمات لا تنسى من ذهن المسؤولين والمواطنين كما انها غيرت النظرة كلياً الى مسار الاقتصاد الرأسمالي ودور الدولة في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية. واخيراً افرزت نظرية اقتصادية جديدة للعمالة والأسعار والانتاج صاغها الاقتصادي البريطاني الشهير «جون ماريرد كينز» في عام ١٩٣٦ وقد اصبحت لفترة طويلة من الزمن اساساً لجميع السياسات الاقتصادية في معظم البلدان الصناعية خارج الاتحاد السوفياتي.

ولكن ما هي قصة وأسباب هذا الكساد الكبير؟ هذا ما سنحاول ايجازه في هذا المقال.

خلال الفترة ١٩٢١ ــ ١٩٢٩ كان الاقتصاد الأميركي قد وصل الى اوج ازدهاره ونضوجه. فقد ظهرت صناعة السيارات على نطاق واسع بعد ان قام جون فورد بصنع اول سيارة في التاريخ كما ارتفع انتاج القطاع الزراعي بشكل كثيف نتيجة ادخال المكننة والأسمدة الكيمياوية على نطاق واسع. وساهم في هذا الازدهار اتساع حجم السوق الأميركي وارتباط مختلف انحاء الولايات المتحدة بشبكة حديثة من مختلف انواع المواصلات.

اما سوق الأوراق المالية البورصة في نيويورك) فقد وصل الى ذروة نشاطه وازدهاره حيث ارتفعت قيمة الأسهم بشكل دراماتيكي بحيث جنى كثر من المستثمرين ارباحاً طائلة وكونوا ثروات هائلة. واندفع المستثمرون الاميركيون في موجة مضاربة هائلة نتيجة تفاؤل عارم حول مستقبل اسعار الأسهم ومسيرة الاقتصاد الأميركي.

غير انه في شهر تشرين الأول من عام ١٩٢٩ بدأت تظهر في الاقتصاد الأميركي بوادر ازمة سيولة، حيث شعرت فيها المصارف التجارية نتيجة إقدام البنك الاتحادي الفيدرالي على خفض حجم الكتلة النقدية بحوالي ٤٠٪.. والكتلة النقدية تتألف من النقد المتداول مضافاً اليها الودائع تحت الطلب. وقد ادت هذه الظاهرة الى وقوع المصارف التجارية في ازمة سيولة خانقة ادت الى إفلاس كثير منها واغلاق ابوابها.

وكان رئيس الولايات المتحدة آنذاك هربرت هوفر (Hoover) الذي انتخب في عام ١٩٣٠ قد بذل جهوداً ورسم سياسات اقتصادية ضمن تصور تقليدي لمسيرة الاقتصاد الرأسمالي حيث يقتصر دور الدولة على ضمان اجواء المنافسة بينما يقوم القطاع الخاص بكافة اعمال التثمير والانتاج والتوزيع في الاقتصاد. غير ان انهيار الثقة بالمؤسسات والمصارف العاملة قد عطل جميع السياسات الاقتصادية الموضوعة.

وفي رأي الاقتصادي الشهير «جون كينيث غالبريث» الذي الف كتاباً بعنوان «الحطام الكبير» (Great Crash) في عام ١٩٥٥، ان هنالك خمسة اسباب وعوامل رئيسية وراء الكساد الكبير وهي على النحو التالي:

(أ) النظام المصرفي في الولايات المتحدة الذي كان يضم مصارف عديدة صغيرة الحجم نسبياً والتي كانت معرضة لأي نكسة بمجرد تهافت المودعين على سحب اموالهم من هذه المصارف.

(ب) سوء توزيع الثروات والدخل في الولايات المتحدة الذي حد من اتساع السوق الاستهلاكي وجعل الاستثمار والانفاق على السلع الانتاجية معرضاً للهبوط السريع.

(ج) قيام بعض المؤسسات التجارية والصناعية بخداع الجمهور والمواطنين عن وضعها المالي الحقيقي الأمر الذي جعلها غير قادرة فعلاً على تحمل اي هزة او نكسة مالية.

(د) تراكم الديون الأوروبية في الولايات المتحدة ولجوء الأخيرة الى اتباع سياسة اقراض خاطئة، ولجوء حكومة الولايات المتحدة الى وضع تعرفة جمركية مرتفعة في وجه السلع الأوروبية مما جعل الدول الأوروبية المدينة غير قادرة على الوفاء بالتزاماتها عن طريق زيادة صادراتها للسوق الأميركي.

(هـ) عدم وجود سياسة اقتصادية على مستوى التحديات الاقتصادية التي واجهت الاقتصاد الأميركي.

كان الهبوط المريع في اسعار الأسهم في بورصة نيويورك العالمية اول مؤشر عن بدء الكساد الكبير. فخلال الفترة الواقعة بين ١٩٢١ ــ ١٩٢٩ اندفع المستثمرون الأميركيون من جميع الفئات: رجال الأعمال، الأساتذة، الأطباء، المهندسون، الطلاب، العمال في موجة مضاربة هائلة على شراء الأسهم. وكان يكفي آنذاك ان يدفع المستثمر ٢٠٪ من قيمة السهم وتقسيط الباقي لقاء رهن السهم حتى يتأكد من انه سيحقق اضعاف اضعاف الفائدة والعمولة التي يدفعها على رهن السهم. ويصف الاقتصادي الشهير «بول ساميلسون» حامل جائزة نوبل في علم الاقتصاد هذه الفترة بأن جميع الذين ضاربوا على اسعار الأسهم حققوا ارباحاً اكثرها «ورقيّ» وهذه الأرباح تتلاشى بمجرد ان يحاول كل فرد ان يقبض ثمنها. ويصف سلوك هذا النوع من المضاربة بقوله: «حين يصبح العالم بامكانه مختلاً يصبح التعقل ضرباً من الجنون»!.

وفجأة بدأ السوق المالي في الانهيار وبدأت اسعار الأسهم بالهبوط السريع بشكل دراماتيكي حتى ان كثيراً من الأسهم المضمونة شهرة وربحاً هبطت ما بين ٧٠ ــ ٨٠٪ من قيمتها الأمر الذي اوقع خسائر هائلة ودفع بعض المستثمرين الى الانهيار وبعضهم اقدم على الانتحار فعلاً.

انتقلت عدوى هبوط اسعار الأسهم الى المصارف التجارية التي بدأت تتعرض لضغوطات سحب كثيفة من المودعين مما ادى الى اغلاق كثير من البنوك واعلان عدم قدرتها على الوفاء بالتزاماتها. فالبنوك بطبيعتها لا تحتفظ بأكثر من نسبة مئوية ضئيلة يحددها القانون على شكل ودائع سائلة. وفي مثل هذه الحالة فان استرداد التسليفات المقدمة يصبح عملية مستحيلة نظراً لأن معظم المؤسسات والشركات غير قادرة على دفع ديونها في وقت هبطت فيها المبيعات وتدنت الأسعار بشكل كبير. لذلك اقدم كثير من المصارف على إغلاق ابوابه كما حدث خلال ازمة إنترا الشهيرة في لبنان.

انتشر الكساد الكبير كالنار في الهشيم وبدأت كثير من الشركات في إعلان افلاسها وتصفية موجوداتها وارتفعت البطالة حتى وصلت الى ٣٥٪ (١٢ مليون عاطل عن العمل) من مجمل القوى العاملة واشرفت كثير من الطبقات الفقيرة على المجاعة وقامت مظاهرات صاخبة في كثير من المدن الأميركية مثل نيويورك وديترويت (مركز صناعة السيارات) وفيلادلفيا وبلتمور وغيرها تطالب الحكومة الفيدرالية بالتحرك السريع لايجاد فرص عمل للعاطلين واعطاء معونات تقدير لمواجهة متطلبات الحياة. ومن المشاهد المألوفة آنذاك وقوف المواطنين في طوابير طويلة للحصول على الغذاء والمعونات المالية.

ومما زاد الأمور تعقيداً انهيار «نظام قاعدة الذهب»، الذي كان معمولاً به في البلدان الصناعية. وقد حدث هذا الانهيار في خريف عام ١٩٣١. وبموجب هذا النظام كانت الدول الصناعية تعلن عن سعر تبادل لعملتها تجاه الذهب وتلتزم بالدفاع عنه. فاذا حقق هذا البلد فائضاً في الميزان التجاري فان ذلك يعني تدفق

الذهب الى داخل الاقتصاد. واذا حقق عجزاً فانه يسدد هذا العجز بما قيمته ذهباً. وهذه الميكانيكية في العمل تؤدي الى إحداث تغيير في مستوى الأسعار العام بحيث ترتفع في البلد الذي يتسلم الذهب وتنخفض في البلد الذي يخسر رصيداً من ذهبه. وهذا التأثير يحصل من خلال التأثير على حجم الكتلة النقدية. وعندما انهار نظام قاعدة الذهب لم يعد هنالك ثقة كافية في قيمة العملة الورقية مثل الدولار والاسترليني والمارك الالماني وغيرها من عملات البلدان الصناعية.

في وجه هذا التدهور حاول الرئيس «هوفر» معالجة الكساد الكبير عن طريق تقديم مساعدات للمزارعين والعاطلين عن العمل. وقد الف «هوفر» «مؤسسة اعادة الاعمار» لتقديم قروض الى المصارف والشركات الواقعة في مشكلة سيولة مالية، غير ان جميع هذه الاجراءات لم تحقق شيئاً حتى وصول «فرانكلين روزفلت» الى رئاسة الولايات المتحدة في عام ١٩٣٣. وعندما استلم روزفلت الحكم كان القطاع المصرفي قد شارف على الانهيار الكامل كما ان ٩٠,٠٠٠ شركة كانت قد اغلقت ابوابها وحوالي ١٥ مليون عامل عاطلين عن العمل. لقد اهتز كيان الاقتصاد الأميركي واصبح النظام الرأسمالي بأسره على شفير الهاوية. ومما زاد الأمور تعقيداً ان السياسة النقدية التي اتبعها البنك الاتحادي الفيدرالي ادت الى خفض حجم الكتلة النقدية بـ ٤٠٪ عما كانت عليه عام ١٩٢٩. وكانت السياسة الاقتصادية ترتكز على اساس عدم التدخل في الشؤون الاقتصادية والاكتفاء بدور الحكم والمراقب. وقد اضطر روزفلت الى اعلان عطلة مفتوحة للمصارف حتى يتمكن من اعادة الثقة الى النظام المصرفي.

وعندما باشر «روزفلت» صلاحياته اعلن عن «البرنامج الجديد» (New Deal)، الذي ارتكز على اساس برنامج انعاش ضخم عهد به الى عدد كبير من المؤسسات الحكومية. وشمل البرنامج سياسة دعم الأسعار للمنتجات الزراعية ومنح إعانات مالية وشق الطرق واقامة الجسور وتقديم العون المالي للمؤسسات



ذهول وشرود نتيجة البطالة على وجه مواطن اميركي



صورة عن الفقر خلال فترة الكساد الكبير

المحتاجة. وقد ادى ذلك الى اتباع سياسة انفاقية ترتكز على حصول عجز في الميزانية العامة للدولة. كما اقدمت الولايات المتحدة على الانسحاب من نظام قاعدة الذهب بعد ان سبقتها بريطانيا في الانسحاب.

بدأ التحسن طفيفاً ابتداء من عام ١٩٣٤ غير انه في عام ١٩٣٧ حصلت نكسة اقتصادية عندما هبط الانفاق الحكومي ولم تتحسن الأمور إلا في مطلع الاربعينات عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية.

ولم تكن الولايات المتحدة وحدها ضحية الكساد الكبير. فالمانيا تعرضت بدورها لكساد كبير تمثل في هبوط في الدخل القومي ما بين ١٩٢٩ ــ ١٩٣٢ قدره ٤٠٪ وارتفعت البطالة الى مستوى لم تعرفه المانيا من قبل، حيث كان هنالك ستة ملايين عاطل عن العمل. وقد وقعت المانيا فريسة للديون الخارجية. وفي كانون الثاني من عام ١٩٣٣ وصل «ادولف هتلر» على رأس الحركة النازية حيث عمد الى الغاء جميع نقابات العمال والأحزاب السياسية، وبدأت الحكومة في اتباع سياسة انفاق واسع لمحاولة محاربة البطالة خصوصاً شق الطرق والاتوسترادات الواسعة وبناء قوة عسكرية كبيرة في محاولة للقضاء على «معاهدة فرساي» التي وقعتها المانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. وقد انفق «هتلر» مبالغ طائلة

لتقوية الترسانة العسكرية عن طريق السيطرة على المزيد من الموارد المالية التي اقتطعها من القطاع الخاص في المانيا. ويمكن القول بأن «هتلر» نجح في إيصال الاقتصاد الالماني الى مستوى العمالة الكاملة، ولكن عن طريق بناء اقتصاد حربي توطئة لشن هجومه المنتظر على جيرانه في اوروبا.

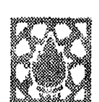
على ضوء ما تقدم يمكن القول بأن كلا من الاقتصاد الأميركي والاقتصاد الالماني لم يخرجا فعلاً من حالة الكساد الكبير إلّا في اواخر الثلاثينات عندما بدأت الحرب العالمية الثانية وان كانت الفترة الواقعة بين ١٩٣٤ ــ ١٩٣٩ يمكن وصفها بفترة الركود الاقتصادي اكثر منها بفترة الكساد الكبير نظراً للتحسن الطفيف الذي طرأ على مستويات الدخل والانتاج والعمالة والأسعار والأرباح.

والواقع ان الكساد الكبير قد طرح على الأنظمة الاقتصادية الرأسمالية تحدياً جديداً. فلم يعد مضموناً استقرار اقتصاديات هذه البلدان على مستوى العمالة الكاملة كما كانت تبشر بذلك النظرية الكلاسيكية. ولا شك ان حجم الصدمة وعمق الأزمة قد دفع بالاقتصاديين لاعادة النظر في ميكانيكية الأسواق وفي قدرة القطاع الخاص على ان يوفر فرصاً للعمل لجميع المواطنين الذين يريدون الحصول على وظيفة أو مصدر رزق. لذلك اتجهت الأنظار الى ضرورة اعطاء القطاع العام دوراً متزايداً في عملية توزيع الموارد المتاحة بهدف تدعيم جهود القطاع الخاص. وكانت الدول الصناعية حتى وقوع الكساد الكبير غير راغبة في إدخال الدولة الى مجال الحياة الاقتصادية إلّا من زاوية كونها مراقبة لمجرى الحياة الاقتصادية للتأكد من ان التبادل والانتاج التجاري يتم في اجواء تنافسية مثالية. غير ان التغيير الهيكلي الذي ضرب اعماق الاقتصاد الأميركي واقتصادات اوروبا الغربية خلق تحديات فكرية لمعالجة الخلل الحاصل وكانت حصيلة ذلك ظهور «نظرية كينز» عام ١٩٣٦ للانتاج والدخل والعمالة. وقد دعت هذه النظرية الى تدخل متزايد للدولة في الشؤون الاقتصادية عن طريق تنفيذ مشاريع واسعة ومن خلال التحكم بحجم الانفاق والاستثمار من خلال سياسات مالية ونقدية وضرائبية متنوعة لمساعدة الاقتصاد الوطني للوصول الى حالة العمالة الكاملة.

وفعلاً بدأت الدول الصناعية في اعتناق السياسات الكينزية ابتداء من عام ١٩٣٨، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية لتزيد من حجم الانتاج والعمالة لمواجهة الجهد العسكري المطلوب لكسب الحرب. وبعد انتهاء الحرب وانحسار الانفاق العسكري بدأ الانفاق الاستهلاكي يتعاظم وظهرت سلع استهلاكية رفيعة المستوى لم يعرفها الانسان في حياته من قبل. وبدأت الاختراعات والتطورات التكنولوجية تتوالى بحيث ادت الى زيادة الانتاج وتخفيض كلفة الانتاج وأوجدت حالة من الرفاهية الواسعة.

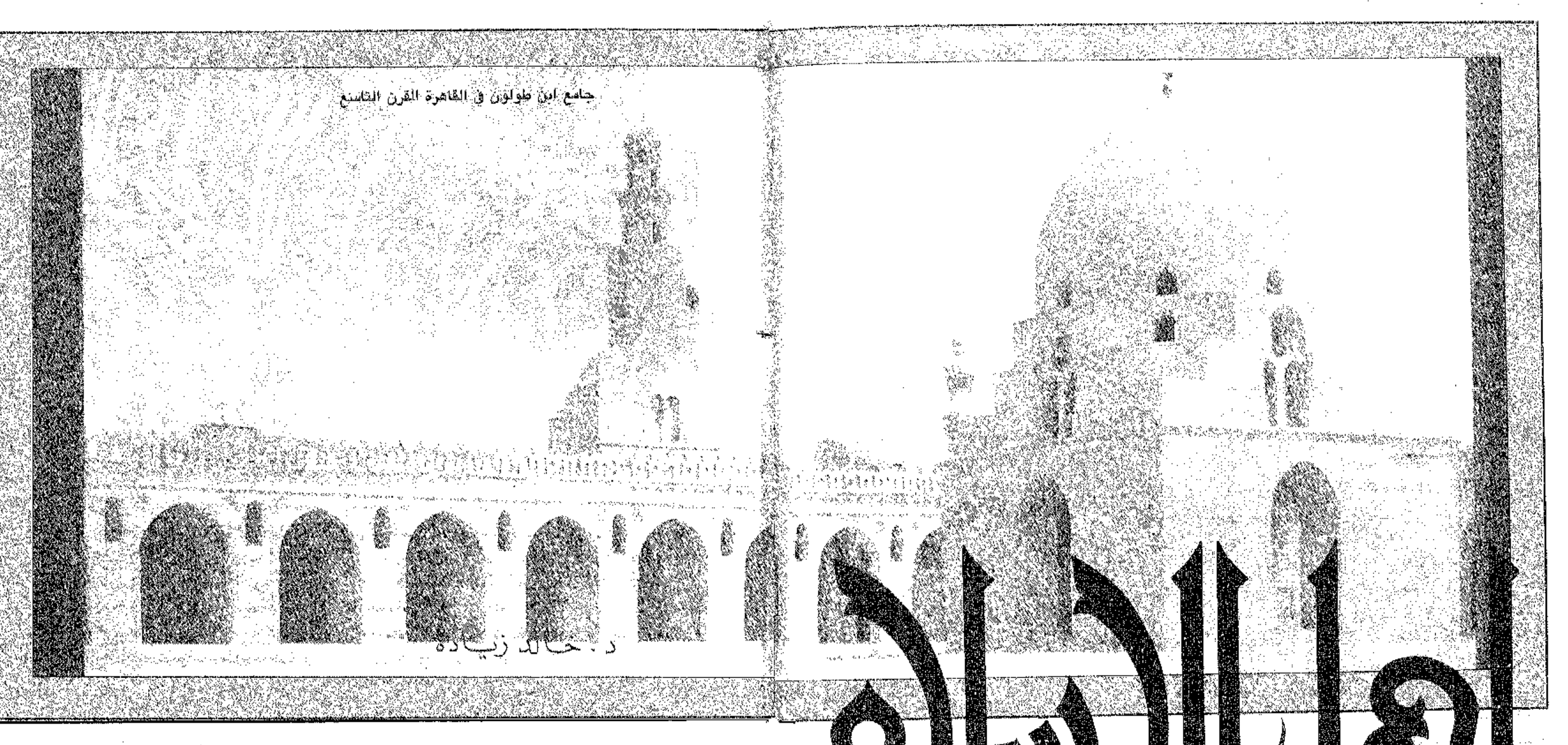
واخيراً هل يعيد التاريخ الاقتصادي نفسه في البلدان الصناعية؟

اغلب الظن لا. نظراً لتوفير منبتات آلية داخل اقتصادات البلدان الصناعية التي تمنع تحول الركود الاقتصادي الى كساد اقتصادي كبير. ولا شك ان عام ١٩٨٣ سيكون له القول الفاصل في هذا الموضوع. ■



اعرابي وحمل

□ مر الأصمعي على اعرابي يأكل حملاً مطبوخاً بشراهة، فقال له: ياهذا على رسلك أراك تأكل بشماتة كأنما أم الحمل نطحتك، فأجابه الأعرابي: وأنا أراك تحنو عليه كأن أمه أرضعتك. فضحك الأصمعي وانصرف.



جامع ابن طولون في القاهرة القرن التاسع

د. خالد زيادة

أهل الإسلام

قليلة هي المؤلفات التي تستطيع أن تجمع الجهد العلمي الى التعاطف الصبور على غرار كتاب أهل الإسلام (Les Hommes de L'islam)، للويس غارديه الذي صدر قبل خمس سنوات عن دار هاشيت في باريس، والذي صدرت ترجمته قبل أشهر قليلة في دمشق.

فهذا الكتاب الذي أخرجه مؤلفه بعد أن تجاوز السبعين من العمر يعتبر خلاصة مكثفة لذلك التعاطي الذي أقامه رجل من الغرب خلال عقود مع الإسلام، يكمل من خلاله مؤلفه السابق «المدينة الإسلامية» الذي يعتبر بحد ذاته أحد الأعمال البارزة في الدراسات الإسلامية التي أخرجتها المدرسة الفرنسية.

ويمكن أن نعتبر «أهل الاسلام» للويس غارديه محاولة للتعرف إلى هذا الإسلام، والتعريف به لدى جمهور غربي أساء الفهم باستناده إلى معلومات ضئيلة أو بالية لم يسع إلى تجديدها. هذا ما يذكره المؤلف أكثر من مرة في سياق كتابه. كذلك فإن الغرب لم يتعرف إلى المسلم الكلاسيكي، بل إلى المسلم الذي صيرته وصنعته قرون الانحطاط، وهذا يبين لنا مدى الالتباسات البعيدة عن أن تكون بددت جميعاً، كما يقول المؤلف (ص ٣٠٢، ترجمة عربية). كذلك المسلم الراهن لا يجابه الإسلام الذي كان بل اسلام الانحطاط والتصلب وهو ما يحاول الابتعاد عنه.

ثمة رغبة إذاً عند المؤلف في التعرف إلى ذلك الاسلام عبر سيرورته التاريخية دون إهمال جانب من الجوانب خشية الوقوع في الخطأ أو إساءة التفسير، وخشية أن يفسر عمله بسوء القصد والنية.

من هنا يجهد غارديه الى تكوين صورة متكاملة تجمع الاجتماعي الى الفكري إذا جاز التعبير. فهنا جهد يبغي إلى تفهم فئات الشعب في المدينة، أو تكون التنظيمات الحرفية ليضعها ازاء تأويلات الأشعري أو اخفاقات المعتزلة السابقة لأجل استخراج المغزى المشترك، أو لتفهم تلك السيرورة الممتدة أربعة عشر قرناً عبر الزمن.



الزخرفة الاسلامية الرائعة في جامع «الجمعة» في اصفهان، ١٣١٠م

إنه جهد تركيبي لا يخلو من الصعوبة ولم يعدم التوفيق. الا ان عملاً كهذا، مثل كل الأعمال التركيبية، تكتنفه عاهة أساسية تتلخص في محاولة استخلاص جميع النتائج التي ينطوي عليها تاريخ ما، في عدد ــ مهما كثر ــ محدود من الصفحات.

ما هي العقلية الاسلامية، وهل بالامكان الحديث عن عقلية مشتركة ذات مميزات مشتركة؟ ذلك هو التساؤل الأول الذي يطرحه المؤلف الذي يبحث عن جذور هذه العقلية عند العرب قبل الاسلام في قوة الكلمة: «لنقل بقوة سحر الخطاب الذي لا يقتضي فيه أن يبتكر مواضيع جديدة قدر ما يقتضي أن يكرر أن يذكر المواضيع القديمة المستديمة.. وكأن هناك انعكاساً على الصعيد الثقافي لملكة الكلام السامية لقدرة التحقيق للكلمة الملفوظة» (ص ٢٨). وكذلك الأمر في خصال العرب، في أعظم المزايا تقديراً «الحلم» الذي يجهد المؤلف لايصال معناه إلى قراء الفرنسية، في التضامن أو «العصبية» كما في الضيافة..

لكن ماذا تمثل هذه القيم العربية (الجاهلية) بالنسبة للاسلام. ثمة انقطاع وثمة استمرار. ففي العهد الأموي سيبقى المجتمع قريباً من منابعه العربية مع إدانة أجزاء من هذا الماضي بتأثير تعاليم القرآن. لكن الموالي ممن أسلموا وتعربوا خلال فترات زمنية متفاوتة لم يشاركوا في الذهنية العربية الجاهلية، وحين تطبعوا بتلك السمات العربية فقد أضافوا اليها تأثيرهم الخاص فساهموا في تصميمها على نطاق واسع.. ان أحد أهم الأسباب التي أدت الى سقوط الأمويين عدم استيعابهم لهذا الشمول المحتوى في دعوة الاسلام (ص ٤٢).

ويتحدث المؤلف في جزء ثان عن الانسان المسلم وعن الأمة الاسلامية وعن الشعور القوي بروح الجماعة. وبهذه التساؤلات ينهي القسم الأول من الكتاب لينتقل إلى القسم الثاني فيأخذ البحث طابع الدراسة الاجتماعية ليتحدث عن ثلاثة أصناف أو ثلاث فئات: غير المسلمين ــ النساء ــ الرقيق. وعند الحديث عن غير المسلمين سيحشد المؤلف غارديه ــ وهو راهب كاثوليكي ــ الكثير من المادة التاريخية محاولاً الخروج بموقف موضوعي قدر الامكان ليخلص إلى ثلاثة استنتاجات:

١ ــ قناعة المسلم بحقيقة وأفضلية الاسلام.

٢ ــ تسامح خالص في عهود الأوج يضرب جذوره في «الحلم» البدوي.

٣ ـــ الحذر من توحيد «الذميين» لمصالحهم مع مصالح الدول الاسلامية.

لكن ما يحتاج إلى نقاش هو قول غارديه بأن الذميين كانوا مواطنين من الدرجة الثانية. وعند الحديث عن وضع النساء سنجد بعض التفاوت بين ما تحدده الشريعة وبين السيرورة الاجتماعية التي أبرزت قواعد صارمة بحق النساء. أما الرقيق فقد حظي بحقوق لم تقرها القوانين الرومانية ويلاحظ: أن خليط العبيد البيض والسود حال دون الوقوع في تمييز عنصري طائش. لقد ظل العبد كائناً انسانياً مساوياً لكل انسان على صعيد أحكام الله (ص ١١٠).

ويكمل صورة الحياة المدينية حين يتحدث في فصل مستقل عن الأصناف أو الفئات الاجتماعية الغالبة أو العليا، فيشير إلى رجال الحكم: الأمراء والسلاطين المحليين الذين يحيطون أنفسهم بالموظفين والوزراء القادة.. ويستأجرون لحسابهم جنداً من المرتزقة (ص ١٢١) ثم يتحدث عن رجال العلم والأدب، وقد كان علم شؤون الدين محاطاً باحترام عظيم وبحرص أن لا يدخله زيف (ص ١٣١)، وعن الأغنياء كالملاك العقاريين والتجار ويلاحظ بشأن الآخرين: كان هؤلاء التجار الحديثو النعمة ينجحون دائماً في ارتياد القصر وتجعل ثرواتهم منهم شخصيات في البلاط والمدينة. (ص ١٤٩).

أما شعب المدينة فيشمل عالم الطلاب بجوامعه وجامعاته، وأصحاب الحرف والدكاكين: «كان الباعة والحرفيون موزعين في الأزقة الضيقة المسقوفة للأسواق والبازرات، مجمعين حسب المهنة: سوق الحدادين، والنجارين والحاكة والصاغة والعطارين. أما سوق الدباغين، فبسبب رائحة الجلود المحضرة والمعطنة، وصفة النجاسة الملصقة بها، كانت مقامة في مداخل المدن. بينما كان سوق الكتبية في جوار الجامع ـــ الجامعات والمدارس. وهذا التوزيع للمهن المدنية لا يزال موجوداً الى اليوم في المدن أو الأحياء الباقية على الطراز القديم (ص ١٦٠).

لكن المهن ليست واحدة فثمة مهن نظيفة وأخرى دنسة أو وضيعة ومن بين المهن الوضيعة في المدن الاسلامية. كان السقاؤون والحمالون والحمارون المكرون للتجوال في المدينة أو المكلفون بإزالة الفضلات من الأزقة. لكن المؤلف لا يطيل الحديث عن هذا التمييز بين المهن وعن أصوله، على عكس روبير برونشفيك .R) (Brunschvig الذي يخصص دراسة مسهبة عن المهن الخسيسة في الاسلام وعن أصول الموقف منها، نجدها في:

(R. Brunschig: Etudes D'islamologie, tome per. Paris 1976).

أما الأصناف المهنية فنجد أن المؤلف يقف بين وجهتي نظر بخصوصه، وجهة نظر ماسينيون الذي يعتقد أنها وجدت منذ القرن العاشر ميلادي، ووجهة نظر كلود كامن الذي يشك بوجودها بشكل مستقل عن التنظيمات الحكومية. ويترك الأمور معلقة بهذا الخصوص ليتحدث عن وظيفة «المحتسب» في الرقابة على الأسواق.

وبين شعب المدينة سنجد المتسولين: ويمكن التحدث في مدن العصر الكلاسيكي عن نقابات متسولين ذات رتبويات وتنظيم (ص ١٧١) وثمة العيارون، وهذه الكلمة تحمل معنى التشرد وعدم الاستقرار إضافة إلى الحيلة والمهارة في التخلص والعيار هو الرجل الذي ليس له وضع اجتماعي. الذي يكافح ليعيش والذي يتدبر أموره بوسائل غير أخلاقية في الغالب (١٧٢).

انها صورة مختصرة ولكن ناجحة ينقلها غارديه لعالم المدينة الاسلامية، يكملها بالحديث عن شعب الأرياف حيث يمكن الحديث بقوة عن الأعراف والعادات وعن رؤساء القرى والأعيان والشخصيات المحترمة أو الدهاقين حسب التعبير الساساني وعن ثورات الفلاحين الكبرى حيث تلتقي النزعات الاجتماعية مع النزعات الشعوبية ضد الفاتح العربي. تلك الثورات كانت تلقى قبولاً لدى الفلاحين: لكن انبعاث قوة المذاهب السنية في القرن الحادي عشر، واعادة السنة التي أجراها صلاح الدين ضد فاطميي القاهرة انعكسا على الأرياف. واكتسبت حياة القرى صفة انسانية.. (١٨٧).

إذا كانت هذه هي صورة عالم المدينة، بل عالم الاسلام، فكيف كان ينظر المسلم الى الاخر؟ لقد أبدى عالم المسلمين رغبة مستمرة في الاطلاع والتعرف وقد يكون ذلك ناتجاً عن توسع التجارة،

كما أن السفارات والبعثات الدبلوماسية أو السياسية قد ساهمت في تصريف معرفة المسلم بعالم غير المسلمين، مما أوجد أدباً خاصاً بالرحلة والسفر. ويستخلص المؤلف كعادته ثلاث سمات بارزة بخصوص كتب السفر:

(أ) رصانتها وموضوعيتها وابتعادها عن السرد الرومانسي.

(ب) الحفاظ على الموضوعية مع الاهتمام بالغريب والخرافي.

(ج) الاصالة المستمرة الى قيم الاسلام كمعيار سليم، (ص ١٩٤).

القسم الثالث من الكتاب يخصصه المؤلف للحديث عن تشعبات الاسلام الى فرق ومذاهب، يقول: «صحيح أن الفرق ستتناحر، بعنف احياناً، وبالسيف غالباً. لكن باسم صفاء وحقيقة الاسلام، إذن باسم القرآن وتعاليم النبي والدين «العتيق» (٢١٣). وبداية الانقسامات مبكرة ومعروفة وترد الى معركة صفين (٣٧هـ/٦٥٧م) حين كانت المواجهة، كما يلاحظ المؤلف، بين العرب أنفسهم. وضمن هذا القسم سيتناول في فصول مستقلة الخوارج ــ الشيعة ــ السنة والتصوف. لكن ما يمكن الاشارة هنا بخصوص هذا المبحث هو دراسة غارديه للمذاهب والفرق على ضوء التطورات الاجتماعية والعرقية، لا على ضوء الفكر والتأمل الفلسفي فقط. وتستدعي بعض التصنيفات مزيداً من التأمل أو إعادة النظر: ما علاقة البربر بالخوارج وما علاقة الفرس بالشيعة؟ ويبدي المؤلف تعاطفاً مع السنة في أكثر من مجال: «أهل السنة هم الذين لم يخرجوا في صفين. ومن الخطأ أن يرى فيهم أنصار معاوية مثلما الشيعة هم أنصار علي» (ص ٢٦٥) و: «ليس الانتماء الى هذا المذهب الخاص أو ذاك هو الذي سيجعل المسلم سنياً. بل هو روح الاعتدال والتزام الوسط، وبالتالي سعي دائم التجدد لتمثل قيم من المصادر الأشد تنوعاً. (ص ٢٧٤).

وفي الأقسام الثلاثة الأولى تحدث غارديه على التوالي عن المسلم وعالمه ومعتقده، أما القسم الرابع والأخير فيخصصه للحديث عن: الذهنيات الاسلامية في العهدين الحديث والمعاصر. ويعطيه ربع حجم الكتاب تقريباً.

ما هو زمن الاسلام، يخضع غارديه هذا الزمن الى توقيت ثلاثي. في الوقت الأول عرف الاسلام مجده من الدعوة وحتى القرن الثالث عشر. في الوقت الثاني: من القرنين الخامس عشر والسادس عشر الى نهاية القرن التاسع عشر. بعد قرنين (أو قرنين ونصف) انتصرت فيهما القوة العسكرية العثمانية كانت حقبة طويلة من الجمود ثم الانحطاط رغم نجاحات حقيقية محدودة ظهرت في ايران الصفوية وفي الامبراطورية المغولية. أما الوقت الثالث فيمتد: منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر تأكد عزم وجهد للتجديد، في البلاد العربية والمستعربة، لكن أيضاً في تركيا وايران والهند، ثم الباكستان وأندونسيا.. (ص ٣٠١).

لكن غارديه الذي يرى أن فهم المسلم الراهن لا يتم إلا بالعودة الى الماضي الكلاسيكي وكذلك عصور الانحطاط، لا يوافق الفكرة السائدة والتي تحمل العثمانيين الأتراك كل مسؤولية الانحطاط، رافضاً ما يستشم منها من تنافس عنصري. ويذكر بأن الترك كانوا موجودين في عالم الاسلام في عهود أوجه.. وأن النخبة والعسكر التركيين شاركا بقسط كبير في حياة العهود الثقافية المجيدة..

وفي القرن السادس عشر كانت القوة العثمانية في ذروتها ومستوى الحياة في الريف والمدن متماثل ضمن حدود الدولة العثمانية واوروبا. لكن الغرب كان في طريقه نحو التصنيع بينما كانت البلاد الاسلامية تتجمد في نمط حياة ليس الاسلام مسؤولاً عن جموده بالضرورة، لماذا؟

«لم تساير البلاد الاسلامية اوروبا في نهضتها الصناعية، بل ان نظام العقود الزراعية، أو الحرفية المدنية، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كانت تشتد صرامة، ففي ذلك الحين وضعت «دساتير» النقابات المهنية. وبعض نواميس الفتوة. وعكفت الذهنيات الغالبة على صيانة وحماية مكاسب الماضي، بينما كان يستفحل تأثير الطرق». واستقر أدب وأسلوب حياة وسلوك كاملين في كل لا يتجزأ، وامتزجت، في الواقع، أعراف محلية كثيرة بالأحكام القرآنية، وكأن هذه الأحكام رتبتها في فهم جديد.. (٣١١).

ومهد هذا الوضع الى تحول مبدأ الأمان

الممنوح لغير المسلمين الى امتيازات تجارية وحصانات شخصية، وهذه الامتيازات هي بذرة المطامح الاستعمارية. وأفسحت هذه المجال لادراك ضرورة التحديث أو ما يسمى بالتنظيمات، لكن هذه التدابير لم تكن نتيجة لحركة المجتمع الداخلية، بقدر ما كانت: البلاد الاسلامية تتخلى عن قيمها الثقافية الخاصة كيما تتتلمذ على اوروبا. (٣١٣) وبدأ الاستعمار يقضم بلاد الاسلام منذ القرن الثامن عشر ابتداء من الهند.

لكن حسب غارديه فان نهب بغداد على يد المغول وسقوط الأندلس حدثان مهدا لأزمنة الانحطاط. أما الاستعمار وبفعل الصدمة التي أحدثها في الوعي، فنقطة انطلاق إرادة عميقة وعنيدة للتجديد سواء على الصعيد الثقافي أو على الصعيدين السياسي والاقتصادي.

وبعد أن يتحدث عن خلفيات الانحطاط الاقتصادية والذهنية يشير الى اتجاهات التحديث ونزع الاستعمار. ويشير الى التيار التحديثي الذي شمل كل مناطق العالم الاسلامي.. ولم يخل الأمر من دعوات تفرنج وانتساب الى الحضارة الاوروبية. لكن هذا التقبل(غير المتروي) للغرب سينتهي في ما بعد أمام حركات أمتن تنظيماً. لكن التحديث لم يخفق كقيمة، فثمة مفكرون أمثال العروي وجعيط يرون أن التحديث هو شرط محو الاستعمار وهم يسعون لتوضيح ودمج قيم الماضي الاسلامية (ص ٣٥١).

ان البحث عن الأصالة واعادة الاعتبار للماضي، واعادة فهم بل التساؤل عن الماضي تشكل معاناة مقلقة.

وتبقى مشكلة الاختيارات: اسلام أصولي أم حداثة علمانية؟ لكن خارج هذا التساؤل او الاختيار فان حركة الواقع تنم عن وجهات لا مناص منها، من ذلك الانتقال الواسع لسكان المدن الى أنماط حياة جديدة. ومن ذلك أيضاً الصراع بين الأجيال، ومسألة تثقيف المرأة واعطائها دورها، والتغيرات على الصعيد العائلي.

ويلخص في الخاتمة: «ان الحركة الجدلية المزدوجة التي التقيناها طوال بحثنا هي جواب بذاتها: الوحدة ـــ التنوع؟ الاتصال ـــ القطع.هذه الوحدة التي لا تنفك تجدد تبني التنوعات، دون العمل مطلقاً على محوها، تبقى، عبر الأمصار والقرون، واقع الاسلام الخاص..» (٤٠٣).

يمكننا بعد هذا الاستعراض الذي يشمل بعض أبرز ما أثاره المؤلف في كتابه، ان نبدي بعض الملاحظات. فقد أراد لويس غارديه في كتابه ان يلخص الاسلام قدر الامكان. وقد نجح في تأليف عناصر متعددة لاخراج عمل يستطيع أن يعرف هذا الاسلام عبر التاريخ وعبر امتداده العالمي ونجد خصوصياته المرافقة له. وفي سبيل هذه الغاية اعتمد المؤلف على نتائج أبحاث العديد من الباحثين الاوروبيين والمسلمين والعرب. وقد أعطى اهتماماً متعادلاً لمراحل تاريخية متباعدة، فبقدر اهتمامه بالحقبة السابقة للاسلام اهتم بالأمويين والعباسيين والعثمانيين والمغول. وقد أصغى لاولئك الذين ملكوا التأثير قديماً وحديثاً. فأصغى للغزالي والأشعري وابن عربي وغيرهم. بمقدار اصغائه للافغاني أو كمال أتاتورك أو سيد أمير علي. وبالنسبة للخطة الراهنة فقد استطاع غارديه أن يتابع انتاج المسلمين الشباب الذين نشروا انتاجهم قبل سنة أو سنتين فقط من نشر غارديه لكتابه.

ان القارىء يمكنه أن يتعاطف مع هذا الكتاب بقدر البحث عن الامتاع والفائدة. لكن القارىء الذي يبحث عن قضية بذاتها أو مسألة بعينها فانه لن يجد ثمة الشيء الكثير. وبهذا المعنى فان القارىء قد يخرج بالانطباع التالي: لقد قرأنا لا شيء تقريباً عن كل شيء تقريباً. على عكس الكتب التي تقول كل شيء تقريباً عن لا شيء تقريباً.

كلمة أخيرة يمكن ذكرها حول الترجمة العربية للكتاب، التي قام بها صلاح الدين برمدا، وهي ترجمة مرضية جداً وممتعة أيضاً إذا ما قورنت بالترجمات التي تطالعنا في هذه الأيام، لكن كان على المؤلف أن يتحرى الدقة في نقلها لبعض الأسماء. فأسماء المفكرين المغربيين التي ينقلها على التوالي على هذا النحو:

لروي ـــ أجايت ـــ بوهديبة ـــ لهباوي هي أسماء لـ: عبد الله العروي ـــ وهشام جعيط ـــ وبو حديبة ـــ ولحبابي.

إلا أن هذه الهفوات لا تؤثر إلا قليلاً على السياق العام. ■

ظاهرة ولادة النجوم والنجوم المتغيّرة والمزدوجة واحتضارها

الأستاذ نقولا شاهين

للنجوم كما للكائنات الحية دورات حياتية معينة، فهي تولد وتمر في أدوار حياتها من الطفولة الى سن البلوغ ثم تحتضر، وكثيراً ما يكون ذلك بشكل مثير يولد الدهشة والروعة في مشاعر من يتابع ذلك التطور. وليست ولادة الانسان والحيوان والنبات اقل تعقيداً او غرابة من ولادة النجوم. ولا يزال علماء الفلك يستنبطون النظرية تلو الأخرى في محاولة للتوصل الى ما يمكن اعتباره حلاً جذرياً لكيفية ولادة النجوم، وبالتالي لتمكينهم من المضي في محاولاتهم الرامية الى معرفة الكثير عن هذا الكون الشاسع الذي لا يعلم حدوده إلا باريه ومبدعه سبحانه.

لقد عرف العلماء الكثير عن النجوم وعن ظواهرها الطبيعية في السنوات العشر الماضية، وذلك بفضل ابتكار مراقب حديثة من ضوئية وراديوية، لكن ظاهرة ولادة النجوم ظلت تتأرجح بين آراء ونظريات متعددة مختلفة، ولم يكن من السهل ابداً لدى علماء الفيزياء والكيمياء وغيرهم من المتخصصين في العلوم التقليدية

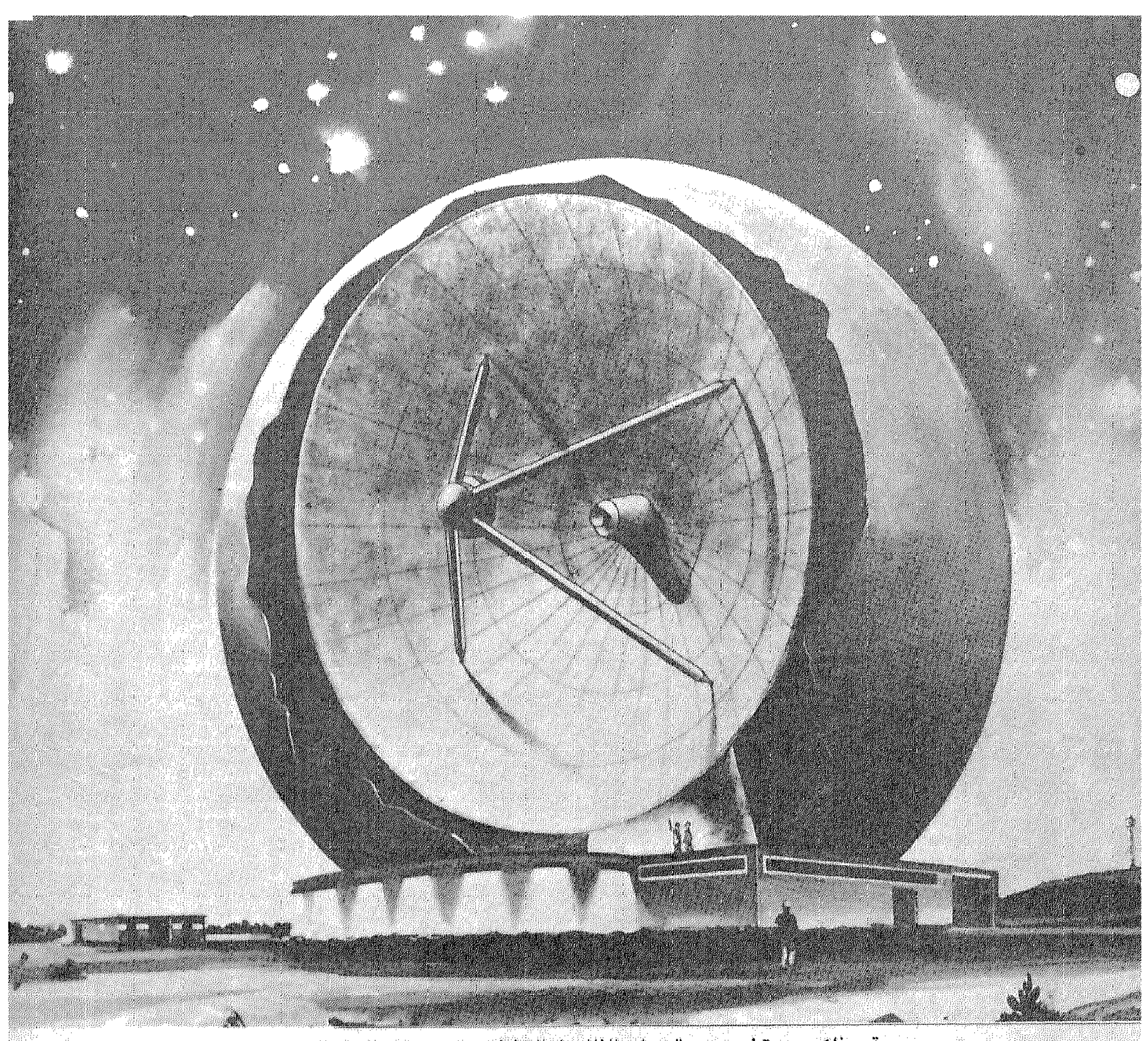
وضع صورة واضحة عما يجري في عالم المادة من تطورات وما يرافق الظواهر الطبيعية المختلفة من تغيرات، إلا بعد نقاش طويل واختلاف في الرأي. ففي عالم الحرارة وانتقالها من جسم الى آخر، وكذلك في القوى المغنطيسية وتأثيرها على بعض الأجسام، بالاضافة الى الشحنات الكهربائية في جسم ما وتأثيرها على جسم آخر دون ان يتلامس الجسمان، نجد ان نظريات علمية عديدة ساعدت على تفهم هذه الظواهر الطبيعية قبل ان يستقر الرأي على ما نعتبره اليوم تفسيراً وافياً.

إن اختلافات الرأي في ظاهرة ولادة النجوم واحتضارها هو امر طبيعي، بالرغم من استنباط مراقب ضخمة قوية تقرب الأجسام البعيدة الى حد يساعد العلماء على رؤيتها وكأنها على بعد مئات الكيلومترات بينما هي في الواقع تكون على بعد ملايين الكيلومترات. وسنعرض فيما يلي الى بعض الآراء المختلفة بصدد اجرام سماوية مرت عليها بلايين السنين، تتفاعل في تكوينها عوامل ألفناها وعلى الأرض وفي المختبرات العلمية.

كيف تولد النجوم

بعد ابحاث وافية ودراسات مستفيضة توصل علماء الفلك الى نظرية كلاسيكية حول ظاهرة ولادة النجوم وما يرافق ذلك من تطورات. وقد تمكنت هذه النظرية من اماطة اللثام عن كثير من الغوامض العلمية، إلا ان هناك اموراً اخرى بقيت دون تفسير. وبموجب هذه النظرية، يبدأ تكوين نجم عندما تفعل قوى الجاذبية في ذرات الايدروجين المنتشرة في الفضاء الى درجة تجعلها تتجمع لتؤلف سحابة غازية. وبعد ان تصل الكثافة في القسم المضغوط الى الدرجة الحرجة، تتولد حرارة عالية فتندمج نوى الذرات لتنطلق مقادير هائلة من الطاقة على نمط ما يحدث عند انفجار قنبلة ايدروجينية.

واذا ألقينا نظرة على النجوم نجد ان كتلها تختلف كثيراً، فمنها ما تساوي كتلته جزءاً من مئة جزء من كتلة شمسنا، ومنها ما تبلغ كتلته كتلة مئة شمس. والنجوم التي تفوق كتلتها كتلة الشمس تحترق في مدة تساوي جزءاً من مليون جزء من عمر شمسنا.



مرقب فلكي يستخدمه رجال علم الفلك في الكشف عن مصادر البث الراديوي

إن اية سحابة من الغاز والغبار الكوني تعادل كتلتها كتلة الشمس تبدأ بالتقلص بفعل الجاذبية، وعندما تصبح هذه السحابة في حجم نظامنا الشمسي، فان حرارتها قد تصل الى ١٠٠٠ درجة مئوية، وينطلق منها إشعاع في نطاق ما هو دون الأحمر. ومع الازدياد في التقلص، يتبخر الغبار وتنحل الجزئيات الى ايونات، فيتولد بسبب ما استنفد من طاقة، نقص في ضغط الغاز، وهذا ما يزيد في سرعة التقلص. وفي اقل من سنة تصبح السحابة على شكل كرة لها حجم يساوي مئة ضعف حجم شمسنا، غير ان ظاهرة التقلص هذه تتوقف عندما يحدث توازن بين قوى الجاذبية من جهة والحرارة والضغط من جهة اخرى.

تبلغ حرارة سطح هذه الشمس نحو ٤٠٠٠ درجة مئوية، وهي ترسل نوراً أحمر ساطعاً واشراقاً قوياً يساوي مئة ضعف اشراق شمسنا الحالية، وتتابع تقلصها مع بقاء درجة حرارة سطحها ثابتة تقريباً، بينما ترتفع درجة حرارة باطنها. وبعد عشرين عاماً، تصل الحرارة الى ١٠ ملايين درجة مئوية، وعندها تبدأ البروتونات بالاندماج لتتحول الى نوى الهيليوم. وبفضل الحرارة المتولدة عن هذا التحول، تتوقف عملية التقلص، وتستقر الحرارة الباطنية عند ١٠ ملايين درجة. في هذه الأثناء، تنتقل الحرارة الى السطح بتحرك الغاز الحار وتستمر هذه العملية نحو ١٠٠ مليون سنة، وعندها تمر هذه الشمس في آخر مرحلة، لتنطلق مع نجوم اخرى

في احدى ذراعي المجرة، وتكون قد بلغت كامل نموها بحيث يبلغ قطرها نحـو مليون ونصف مليون كيلومتر، وحرارتها حـوالي ٦٠٠٠ درجة مئوية، كما هو معروف اليوم عن شمسنا.

هذا فيما يتعلق بتنسيق عملية ولادة نجم من النجوم كما تفرضه النظرية الكلاسيكية، متخذة قوة الجاذبية عامـلاً اساسياً في تكتل الغـاز والغبار في الفضاء الكوني. ولكن هناك نقـطة ضـعـف في هـذا الافـتـراض، إذ ان غـاز الايدروجين في مجرتنا وربما في مجرات اخرى، رقيق للغاية، وان الجاذبية التي تلزم لتجمـع جزئيات هذا الغاز على شكل سحابة، يجب ان تكون خمسة اضعاف الجاذبية المتيسرة، لذلك لجأ الفلكيون الى تفسيرات اخرى حول تكوين النجوم وولادتها.

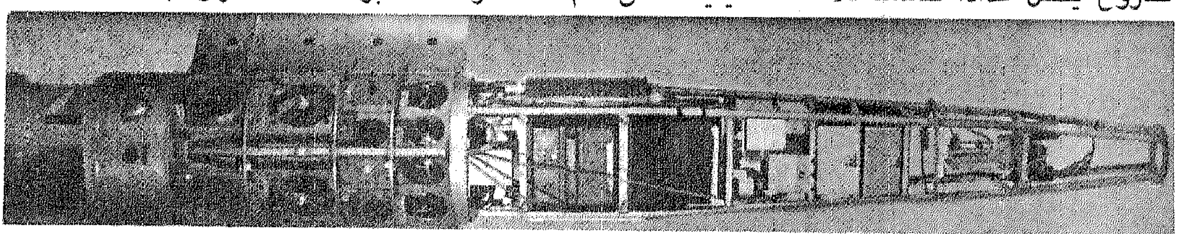
ففي عام ١٩٦٨، ظهرت نظرية جـديدة في كيفية ولادة النجوم، قوامها دراسات في الأشعة الكونية وابحاث ترتكز على معلومات من اقمار اصطناعية وسوابر غاصت في الفضاء السحيق، لتكشف عن عمليات تجري في مجرتنا. وتقول هذه النظرية أن الأشعة الكونية وهي دقـائق ذات طاقة عالية، تنطلق بسرعة تقرب من سرعة الضوء تقريبـاً، وتحدث اعـوجـاجاً في المجال المغنـطيسي الذي ينتشر في المجـرة. وبسـبب الأشعة الكونية يتولد التواء في المجال المغنطيسي بحيث يبدو وكأنـه قطعـة من الأرض تتخللها وهاد عميقة ومرتفعات عالية. اما دقائق الغاز المشحونة بالكهرباء، فانها تتبع خطوط التنسيق المغنطيسي، فتجذبها قوة جاذبية المجرة وتنزلها من القمم المغنطيسية لتهبط الى اسفل الوهاد كما يهطل المطر على سفوح التلال منحدراً نحو الوادي. وعندما يتجمع عدد كاف من الدقائق ليؤلف سحابة من الغاز الكوني، تصبح قـوة الجاذبية كافية لتكتل أجزاء هذه السحابة، ومن هنا تبدأ ظاهرة ولادة النجم. وهناك عدد كبير من الفلكيين يدعم هذه النظرية، لأن التجارب اثبتت صحتها. كما ان العمليات الحسابية بينت ان المسافة بين الوهاد في المجرة حيث يتجمع الغبار الكوني، تقارب من ٣٠٠ سنة ضوئية، وهـذا يتفق مع المقـاييس التي اجـريت عـلى المسافات بين سحب الغاز.

ظاهرة احتضار النجوم كنتيجة لنفاد وقودها وولادة الأقزام البيض

يتراوح عمر النجوم الحديثة مابـين عشرة ملايين وعشرين مليون سنة، ويرتفع هذا الرقم الى عشرين الف مليون سنة للمتقدمة في العمر. وعندما تبلغ هذه النجوم نصف عمرها، يحدث خطأ في الضوابط الحرارية الداخلية يجعل من المتعـذر على نجم من النجـوم الاستمـرار في الاشراق بصورة منتظمة لتـوليد ذرات ثقيلة. وعند ذلك تصبح النجوم التي ادركها الهرم في عداد مايعرف بالأوسـاط الفلكية بـ «العمـالقة الزرق». وهذه العمالقة، تتحول الى «العمـالقة الحمـر» ومن ثم الى «الأقزام البيض» وتبـدأ ظاهـرة التغيير هـذه عنـدمـا ينخفض مقـدار الايدروجين الذي يغذي النجم، وحينما يقترب النجم من الاضمحلال تحدث تغيرات في لونه واشراقه، ويحتمل ان يصبح نـابضاً بصـورة منتظمة.

فـالأقـزام البيض هي عبـارة عن نجـوم محتضرة غير مشرقة استهلكت وقودها النووي، واصبحت باردة لا نشاط فيها، شأنها في ذلك شأن بضع مئات من بين عشرات الوف النجوم في المناطق القريبة ضمن مجرتنا، مع العلم ان مجرتنا تحتوي على اكثر من ١٠٠ الف مليون نجم، ولكي ينتقل الضوء من طرف المجرة الى الطرف الآخر فانه يحتاج الى ١٠٠ الف سنة

صاروخ يحمل عداداً حساساً للأشعة السينية، اطلق عام١٩٦٣، واكتشف بواسطته مصدران لهذه الأشعة



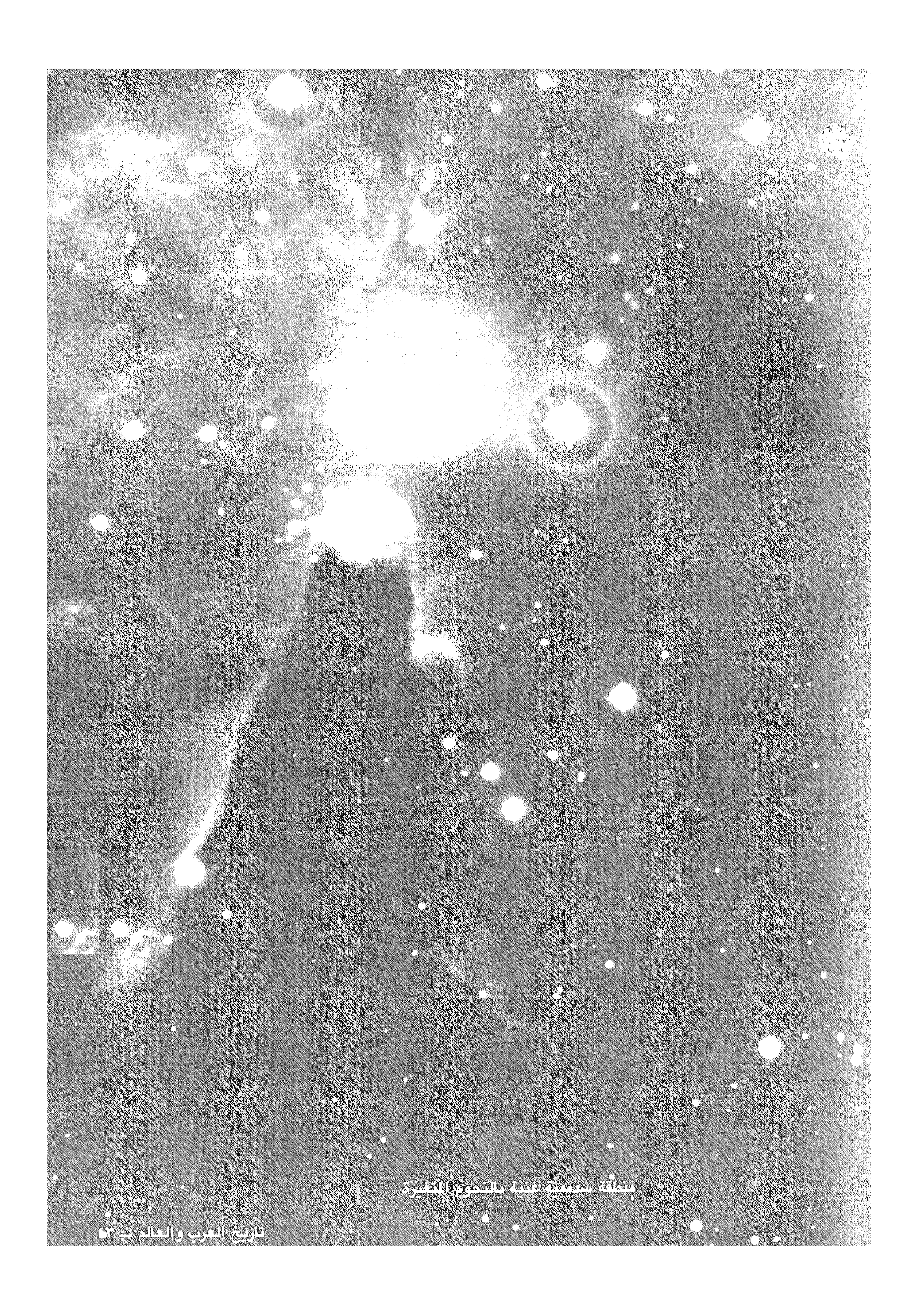
ضوئية. وقد تم اكتشاف اول قزم ابيض في عام ١٩١٥، وهو النجم المعروف بـ «رفيق الشعرى اليمانية» في صورة الكلب الأكبر. وهذا النجم تصعب رؤيته لأنه يعطي نوراً وحرارة من مقدار جزء من اربعمائة جزء مما ينطلق من الشمس، وفي الوقت نفسه، يتلاشى نوره تقريباً بسبب الاشراق الفائق المنبثق من رفيقه النجم المعروف بـ «الشعرى اليمانية». وقد تمكن الفلكيون بما لديهم من وسائل رصد ونواميس فلكية، من التوصل الى ان كتلة النجم «رفيق الشعرى» تعدل كتلة الشمس، وقطره يساوي جزءاً من ثلاثين جزءاً من قطرها، وكثافته تساوي ٢٠٠٠٠ ضعف كثافة الماء. وبعبارة اخرى يبلغ وزن السنتمتر المكعب من هذا القزم الأبيض ٢٠٠٠٠ غرام. اما سبب هذه الكثافة العالية فيعود الى تطاير الكهارب من ذرات النوى، والى قوة الجاذبية الداخلية بعد ان زال الضغط نحو الخارج الذي يعاكسها، وذلك بسبب نفاد الحرارة التي تولد هذا الضغط من الداخل بعد ان استهلك النجم وقوده، وبذلك تتجمع النوى في حيز ضيق جداً يساوي كسراً بسيطاً من حجم النجم الأصلي، وهذا هو السبب في ارتفاع الكثافة. وقد اكتشف الفلكيون اكثف قزم ابيض، تبلغ حرارة سطحه ٢٨٠٠٠ درجة مئوية، ومعدل كثافته نحو ٣٦ مليون ضعف كثافة الماء، اما كثافة باطنه فتساوي ١٠٠٠ مليون ضعف كثافة الماء.

يزداد اهتمام العلماء بهذا النوع من النجوم لكونها تساعد على فهم مسائل عديدة في علم الفيزياء الفلكية، وهي تؤلف بدورها نحو ٣ بالمئة من مجموع النجوم في مجرتنا. ولما كان اشراقها ضعيفاً جداً، فان الفلكيين لم يتمكنوا من الوقوف على معرفة تفاصيل اكثر من ٢٠٠ نجم منها. وقد كانت دراسة لونها والخطوط الظاهرة في اطيافها وسيلة لالقاء ضوء جديد على تحليل العناصر في النجوم الحديثة. ويعتقد علماء الفلك بأن بعض «الأقزام البيض» يحتوي على كمية عالية من الطاقة المغنطيسية. ويبنون اعتقادهم هذا على ان النجم الأصلي لا بد من ان يكون له مجال مغنطيسي ضعيف، فيتقلص هذا المجال اثناء انكماش كتلة النجم، وترتفع قوته الى درجة عالية، لكن احداً في الماضي لم يتمكن من اكتشاف مجال مغنطيسي في تلك النجوم. وفي عام ١٩٧٠ اكتشف عالمان من جامعة «اوريغون» الأميركية، «قزماً ابيض» في برج «التنين»، له مجال مغنطيسي لا تقل قوته عن ٢٠ مليون مرة قوة مجال الأرض، وهذا المجال هو اعلى قياس حصل عليه انسان حتى ذلك الوقت.

ويعد هذا الاكتشاف ذا اهمية كبيرة تتعدى نظرية «الأقزام البيض»، إذ ان الفلكيين كانوا قد اكتشفوا قبل ذلك بثلاث سنوات اجراماً سماوية اطلقوا عليها اسم «النوابض»، واتفقوا على انها نجوم نيوترونية، اي نجوم احتضرت وتقلصت بقوة هائلة، ثم تحولت الى كرة من النيوترونات لا يزيد قطرها على ١٦ كيلومترا. وباكتشاف مغنطيسية «الأقزام البيض»، اصبح لدى الفلكيين جهاز جديد يمكنهم من إثبات رأيهم في النوابض التي اعتبروها اجراماً نيوترونية اشد كثافة حتى من كثافة «الأقزام البيض». فاذا صح هذا فانه يمكن القول بوجود مجالات مغنطيسية سماوية اقوى من المجالات الموجودة حول «الأقزام البيض».

ظاهرة احتضار النجوم بسبب انفجار قوي

هناك بين الفلكيين من يقول ان احتضار نجم ما يتأتى عن انفجار قوي بسبب اصطدامه بنجم آخر. فمن وقت الى آخر يظهر في السماء ما يبدو وكأنه نجم لامع، يطلق عليه عادة اسم نجم جديد، لكنه ليس نجماً جديداً في الواقع، بل يبدو كشيء جديد في كبد السماء، لأن الانفجار مع ما يرافقه من تأجج وتوهج، يملأ الفضاء المحيط به باشعاعه الذي يرافق الاحتضار. ويحتمل جداً ان يكون ما اعتبروه نجماً جديداً، نجماً قديماً لا غير، يدفع بمادته في الفضاء على شكل غاز نجمي، تاركاً وراءه هيكله الذي يعتبر قزماً ابيض. وتحدث هذه الظاهرة احياناً مرة خلال بضع مئات السنين حيث يحدث انفجار عنيف في نجم تابع لاحدى المجرات، فيحدث ما يدعى نجماً جديداً جباراً «Supernova» فيزداد اشراق النجم نحو



منطقة سديمية غنية بالنجوم المتغيرة

١٠٠ مليـون مـرة، وينتـج عن هـذا الوميض او الوهج نور يفوق ما يصدر عن جميع ملايين النجوم التي تتألف منها المجرة.

يوجد في مجرتنا سديم السرطان وهو سحابة كبيرة من الغاز، تحتوي على بقايا نجم انفجر عام ١٠٥٤م. وقد ورد ذكره في سجلات الفلكيين الصينيـين. وقد اكتشف العلمـاء حديثـاً احد النوابض في هذا السـديم يدور حـول نفسه، ويعتقد انه نجم نيوتروني ذو كثافة عالية تولد نتيجة الانفجار، ولم يحصل اي انفجار لجائحة سماوية في مجرتنا منـذ نحو ٣٥٠ سنـة، كما لم يشاهد احد جائحة في عام ١٨٨٥ في مجرات اخـرى، عندمـا اصبحت المراقب متمكنـة من الكشف عن مثل هذه الأمور الطبيعية. .

وقد تبين من مخطوطة بالعربية وجـدت في مكتبة «الاسكوريال» في اسبانيا، ان طالباً عربياً يدعى «علي بن رضوان» كان يسكن في الفسطاط مركز القاهرة القـديم، كشف عن حدوث نجم جبار جديد في برج العقرب عام ١٠٠٦ ميلادي، وذلك قبل وفاتـه بخمس وخمسين سنـة. وقد وصف الطالب العربي هذا النجم بأنه مستدير الشكل يبلغ حجمه ثلاثة اضعاف حجم كوكب الزهرة، ويرسـل اشراقـاً يعادل ربـع إشراق القمر. وقد تتبـع مترجم المخـطوطة والمشرف عليها وهو استاذ في جامعـة «ييل» الأميـركية دراسة ما يتعلق بهذه المعلومات فوجد ان ذكر هـذا النجم الجـديـد قـد ورد في السجـلات الصينيـة والسويسـرية، لكن التفـاصيل التي اوردهـا الطالب «علي بن رضـوان» كانت ادق واشمل.

وفي شهر اكتوبر عام ١٩٧٢، قامت مراصد الفلك الأميـركية بتحليـل مفصل لنجم جبـار تعرض لانفجار مريع منذ ١٠ ملايين سنة. اما علائم نهاية هذا النجم فقد وصلت الى الأرض في شهر مايو من السنة نفسها بعد ان انتقلت من احدى المجرات الشـاسعة البعـد بسرعـة الضوء اي ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية، وذلك عندما ظهرت عبر مرقب «بالومار» في كاليفورنيا، وكان ذلك الانفجار المـع ما اكتشف من هـذا القبيل خلال ٣٥ سنة، وواحداً من المع اربعة انفجارات سجلت لمدة طويلة تصلح ان تكون اساساً لدراسة علمية.

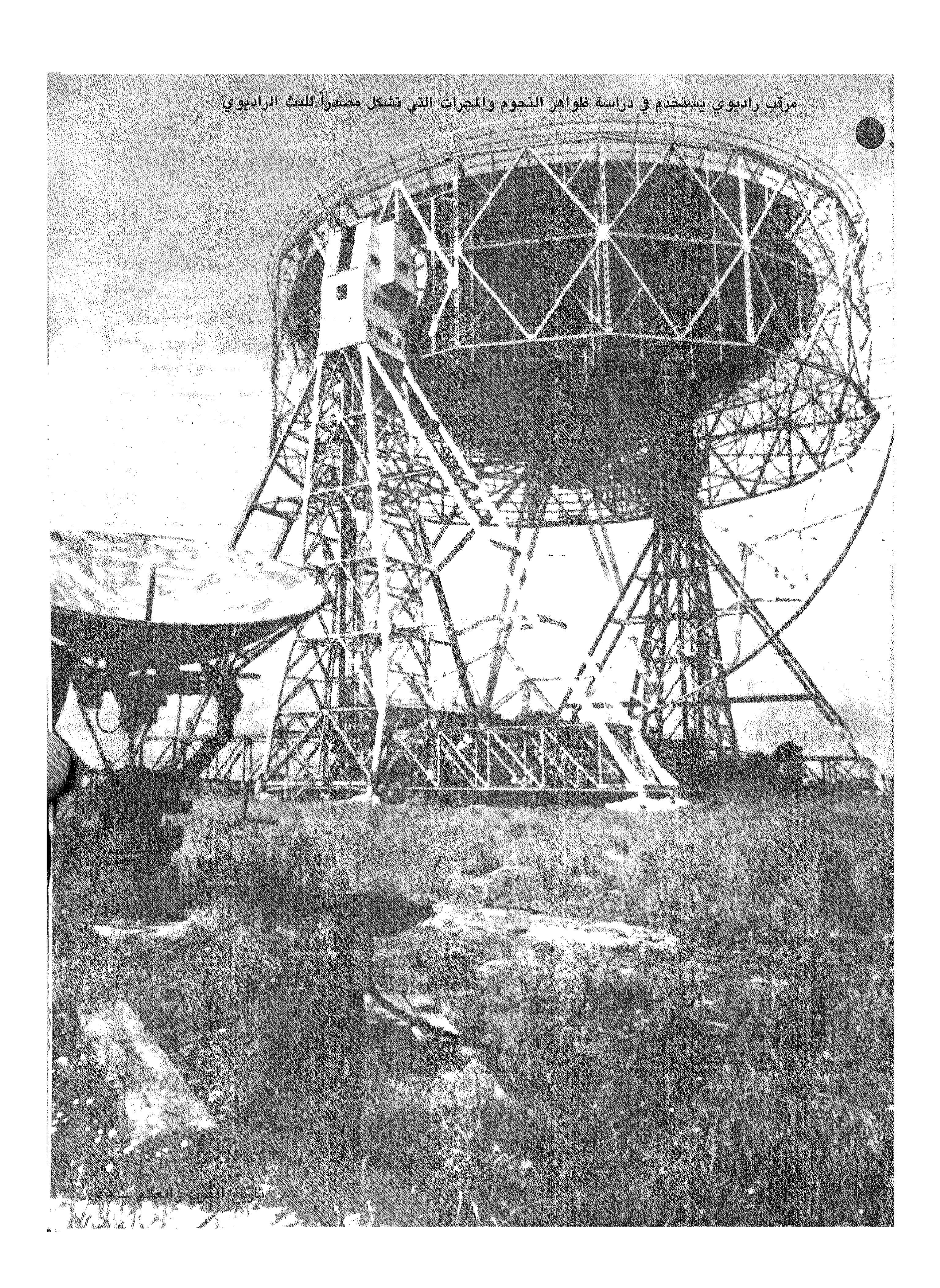
منذ تلك الليلة، انكب علماء الفلك على تصوير سحابة بقايا هذا الانفجار النجمي، وحاولوا ان يسجلوا طيفاً واسعاً لطاقة الاشعاع كمـدخل لمعرفة التركيب الكيميائي للانفجار النجمي. وقد ضموا الى وسائلهم مركبتين فضائيتين ومراقب راديوية وصواريخ ومناطيد تـرتفع الى ابعـاد فائقة. وهذه الدراسات سوف تستغرق سنوات عديدة، ستتمكن بعدها من الاجابة عن اسئلة كـونية عـديدة، منهـا ما يحصـل للنجم عنـد احتضاره او تقلصه، وما هو التركيب الكيميائي لما يقذفه من بقايا انفجاره، تلك البقايا التي تؤلف مادة لتكوين مجموعة جديدة من النجوم والكواكب السيارة. كما يأمل علماء الفلك، عن طريق هذه الدراسات ان يتوصلوا الى معرفة ما اذا كان بالامكان اتخاذ مثل هذه الانفجارات النجمية مقياساً لاتساع الكون.

وقد جاء في الأخبار العلمية السوفياتية ان الشابة «غالينا زايتسيفـا» قد اكتشفت نجمـاً متوهجاً جديداً، سيكون ذا فائدة كبرى بالنسبة لعلماء الفلك. وتعتبر توهجات هـذا النجم من اروع الظواهر التي يقوم برصدهـا الفلكيون. ويبث هذا النجم خلال تـوهجه الأقصى طاقـة تفوق اية طاقة ناجمة عن النظام النجمي الذي يتوهج فيه، اي اكثر مما تبثه عشرات البلايين من النجوم. ويرى الفلكيون ان هذه التوهجات الشديدة انما هي مصدر الأشعة الكونية، بينما يبث السـديم الذي ينشـأ ويمتـد بعـد هـذه التوهجات الاشعـاع الشعاعي القـوي. وهكذا تستمر الأبحاث العلمية حول هذا النجم، املاً في إحراز مزيد من النتائج التي تساعد في فهم ظاهرة اشراق هذه النجوم النادرة.

المتغيرات القيفاوية

ومن الظواهر العلمية المعروفة عن النجوم ان شدة التوهج المنبثق عنها تتفاوت بين مجموعة واخرى، فهناك نجوم يشتد وهج نورها احياناً ويتضاءل احياناً اخرى بصورة منتظمـة، وقد اطلق عـلى هـذه المجمـوعـة اسم «المتغيـرات القيفاوية»، لأن اول نجم متغير عرف كان في برج قيفاوس. وقد ورد ذكر اول نجم متغير في

مرقب راديوي يستخدم في دراسة ظواهر النجوم والمجرات التي تشكل مصدراً للبث الراديوي



عام ١٥٩٦، والثاني في عام ١٦٧٢، والثالث في عام ١٧٨٤. ومع حلول عام ١٩١٥ اصبح عدد النجوم المتغيرة المعروفة ١٦٨٧ نجماً. وفي عام ١٩٥٥، ارتفع هذا العدد الى ١٣٧٤٥ نجماً وذلك بفضل التقدم والاتقان اللذين طرآ على اجهزة الرصد. هذا وقد كان للتصوير القسط الأوفر في الكشف عن هذا النوع من النجوم المتغيرة.

وقد اتخذ الفلكيون تغير الاشراق او الشذوذ الطيفي وسيلة لتحديد النجوم الحديثة او القديمة حسبما هو متفق عليه في نشوء الأجرام السماوية. فجميع النجوم القديمة جبارة كما ان عدداً كبيراً من النجوم المتغيرة هي ايضاً نجوم جبارة. ويمكننا القول بأن النجوم المتغيرة تشكل ٣ بالمئة من النجوم التي ترى بالعين المجردة. ولما كان معظم النجوم التي ترى بالعين المجردة من النوع الجبار، اصبح عدد النجوم المتغيرة اقل بكثير من ٣ بالمئة، وبعبارة اخرى يوجد بين كل مليون نجم، نجم واحد متغير.

ومن النجوم المتغيرة «الغول» الواقع في برج «فرساوس»، وهو في الغالب من القدر الثاني، ويتضاءل وهجه تدريجياً حتى يصبح من القدر الرابع في مدة مقدارها ثلاث ساعات ونصف الساعة، ويبقى على حاله هذه نحو ٢٠ دقيقة ثم يعود الى القدر الثاني في ثلاث ساعات ونصف الساعة ويبقى هكذا مدة معينة ثم يتضاءل نوره على النسق المذكور. وهناك نجم متغير يقع في برج «قيفاوس»، وهو نجم مزدوج، احدهما اصفر اللون والآخر ازرق سماوي، وفترة تغير كل منهما دقيقة ومنتظمة. وقد اجريت دراسات مفصلة للفئات المختلفة من النجوم المتغيرة، فنسب الفلكيون مايحدث من تغير في اقدارها واحجامها وحرارتها واطيافها، سواء اكان ذلك بصورة منتظمة ام غير منتظمة، نسبوه الى تغيرات طبيعية تحدث في النجوم نفسها. وقد نسب بعضهم رؤية النجوم المتغيرة الى ظاهرة دورانها على محاورها، وان جانباً منها اقل نوراً من الجانب الآخر، واحياناً يتوسط جرم مظلم بيننا وبينها، وان لها جواً هوائياً وابخرة تحجب بعض نورها عنا احياناً. وقد رصدت هذه النجوم رصداً دقيقاً، نظراً لما تشكله من اهمية كبيرة في قياس الأبعاد الكونية الشاسعة.

وهناك نجوم وقتية تظهر مدة وجيزة لا تلبث ان تزول، منها واحد رصده «تيخوبراهي» في الفترة الواقعة بين نوفمبر عام ١٥٧٢م ومايو عام ١٥٧٤م، اي ١٧ شهراً، وقد فاق «الشعرى» و«الزهرة» لمعاناً، وظهر في النهار وانقلب بين ابيض واصفر واحمر ثم ابيض ثانية. وفي سنة ١٦٠٤م، ظهر نجم لامع مثل «الزهرة» في برج الحواء مدة ١٥ شهراً واتى على ذكره «كيبلر». وفي سنة ١٦٧٠م ظهر نجم لامع من القدر الثالث في برج «الدجاجة» وبقي مدة سنتين ثم تضاءل نوره تدريجياً حتى تلاشى تماماً...

وقد تأثر ابو العلاء المعري بما كان يسمعه عن النجوم المتغيرة، وظهورها بألوان مختلفة واشراقات ترفعها من قدر الى قدر، فأعطانا صورة شعرية جميلة لا تقل رونقاً عما نشاهده فعلاً بالعين المجردة، وذلك عندما قال:

رب ليل كأنه الصبح في الحسن
وان كان اسود الطيلسان
قد ركضنا فيه الى اللهو لما
وقف النجم وقفة الحيران
ليلتي هذه عروس من الزنج
عليها قلائد من جمان
هرب النوم عن جفوني فيها
هرب الأمن عن فؤاد الجبان
وكأن الهلال يهوى الثريا
فهما للوداع معتنقان
وسهيل كوجنة الحب في اللون
وقلب المحب في الخفقان
يسرع اللمح في احمرار كما تسرع
في اللمح مقلة الغضبان
ضرجته دما سيوف الأعادي
فبكت رحمة له الشعريان
ثم شاب الدجى وخف من الهجر
فغطى المشيب بالزعفران

اما الشعريان فهما «الشعرى اليمانية» او «الشعرى العبور» و«الشعرى الشامية» او «الغميضاء». ويعتبر الشعرى اليمانية اكثر

النجوم لمعاناً في صورة الكلب الأكبر، والشعرى الشامية في صورة الكلب الأصغر، وقد قيل ان «سهيلاً» تزوج بـ «الجوزاء» وكسر ظهرها فهرب نحو الجنوب خوفاً من ان يطالب بكسر الجوزاء. والشعريان هما اختاه. فعبرت «شعرى العبور» المجرة الى «سهيل» وبقيت «الشعرى الشامية» او «الغميضاء» في الشمال فبكت على «سهيل» واغمضت عيناها.

النجوم المزدوجة

لا شك في ان التقدم الذي طرأ على وسائل الرصد قد ساعد في كشف كثير من الظواهر العلمية في عالم الفلك، منها النجوم المزدوجة او المتعددة، اذ ان النجوم جميعها تظهر منفردة للعين المجردة، لكن اجهزة الرصد اثبتت خلاف ذلك. ولما شرع «وليم هرشل» عام ١٧٨٠م يبحث عن نجوم مزدوجة بواسطة نظارته الكبيرة، تبين له منها اربعة نجوم لا غير، لكنه كشف عن ٥٠٠ نجم مزدوج خلال مدة وجيزة، وعين مواقعها وسجلها. بعد ذلك كشف «يوحنا هرشل» وزميل له عن نجوم كثيرة من هذا النوع فبلغ عدد النجوم المعروفة منها ٦٠٠٠ نجم، بعضها يظهر من خلال المراقب التقليدية، والبعض الآخر لا يرى مزدوجاً إلا باستخدام المراقب الضخمة.

واذا وقع نجمان على استقامة واحدة، فانهما يبدوان للنظر نجماً واحداً مزدوجاً بالرغم من وجود مسافة تفصل بينهما او اي تعلق بينهما على الاطلاق. وليس ذلك النجم بمزدوج حقيقي، بل سمي مزدوجاً بصرياً. اما اذا كان بين النجمين علاقة، بحيث يدور الواحد حول الآخر، فهو نجم مزدوج حقيقي، وهذا النوع من النجوم يسمى ثنائياً. ومن هذه النجوم الثنائية واحد في صورة التوأم ومدته ٢٥٢,٦ سنة، وواحد في صورة الأسد ومدته ١٢٠٠ سنة، وواحد في صورة السنبلة ومدته ١٨٢,١ سنة. هذا وفي ذنب الدب الأكبر ثلاثة نجوم كبيرة تسمي العرب النجم الأوسط منها «ألعناق» وتقول ان فوقه نجماً صغيراً ملاصقاً له تسميه «السهى» وقد ورد ذكره في المثل «أريها السهى فتريني القمر». وقد يكون احد النجمين نجماً مزدوجاً، فتصبح تسمية النجم المزدوج غير صحيحة، فيطلق اسم النجوم المتعددة على ما زاد على نجمين، مرتبط احدهما بالآخر.

وقد ثبت علمياً ان نجم القطب مؤلف من ثلاثة نجوم يدور بعضها حول بعض، وهناك من النجوم ما هو رباعي او سداسي او سباعي. وفي كثير من النجوم الثنائية او المزدوجة يختلف لون النجم الواحد عن لون الآخر، وكثيراً ما يكون لون الواحد متمماً للون الآخر. وغالباً ما يكون لون اكبرهما احمر او برتقالياً اما الأصغر فأزرق او اخضر.

وفي نطاق بحثنا هذا في النجوم المزدوجة من ثنائية وغيرها، يرى الفلكيون انه لا بد من ان يكون في مجرتنا كواكب سيارة تدور حول نجم ما، كما هي الحال في نظامنا الشمسي ولم تثنهم الصعوبات التي تعترضهم، عن مشاهدة كواكب سيارة مظلمة صغيرة على مسافات بعيدة جداً. وقد بدأ الفلكي الشهير «بيتر كامب» منذ نحو ٣٠ سنة، يبحث عن رفاق لنجوم تعتبر قريبة نسبياً من الأرض. وقد توصل هذا العالم في عام ١٩٦٣م بعد دراسة طويلة، الى ان نجم «برنارد» يحظى بكوكبين يدوران حوله، على بعد ٥٠ بليون بليون كيلومتر من الأرض، في برج «الحواء». وقد تم ذلك بطريقة فلكية كلاسيكية تقوم على الاضطرابات التي تحدث في مسار جرم سماوي، والتي تحدث عادة بقوة جذب من رفيق نجمي مظلم غير منظور وكان علماء الفلك قد اكتشفوا بهذه الطريقة في عام ١٨٤٤، ان «الشعرى اليمانية» لها رفيق لا يرى بسبب ضعف نوره. ومن دراسة بعض الصور تبين لهذا العالم الفلكي ان نجم «برنارد» له كوكبان يدوران حوله، وان هناك احتمالاً كبيراً بوجود انظمة شمسية اخرى غير نظامنا الشمسي. ■

● من يدري؟ ربما كانت الحياة قد انقرضت في الكواكب الأخرى، لأن علماءها كانوا أكثر منا تقدما.. فنشبت فيها حرب ذرية منذ آلاف السنين!

(جون كنيدي)

صورة المرأة في



ڤيبكه فالتر

ألف ليلة وليلة

إعص النساء فتلك الطاعة الحسنة
فلن يفوز فتى يعطي النسا رسنه
يعقن كل كمال عن فضائله
ولو سعى طالباً للعلم ألف سنه
إن النساء شياطين خلقن لنا
أعوذ بالله من كيد الشياطين
ومن بهن رماه العشق مبتلياً
قد ضيع الحزم في دنيا وفي دين

وردت هاتان القطعتان من الشعر في حكايتين مصريتين متأخرتين من حكايات ألف ليلة وليلة. ويكاد أول أبيات القطعة الثانية أن يطابق معناه قولاً للأديب البافاري وأمين البلاط Aegidius) Albertinus) (الذي عاش من ١٥٦٠ إلى ١٦٢٠). يقول ألبرتينس: «المرأة آلة وأداة طيّعة في يد الشيطان؛ بها جلب الى العالم كل الشرور والآثام، وبها جعل كثيراً من عقلاء الرجال وأتقيائهم مجانين فاسقين. إنها لئيمة وضيعة، ولذا فهي تتبع وحي الشيطان، وتقترن نفسها بارادته، وتحرّك العُزّاب إلى الشهوة والشّبَق..» الخ[1].

وكما نستطيع أن نضم إلى أقوال هذا الأديب البافاري، الذي يمثل المناهضين لحركة الاصلاح الديني، كثيراً من الآراء المشابهة التي صرح بها معاصروه حول «المرأة الشريرة المتقلبة»، فاننا نستطيع أيضاً في يُسر أن نجمع من ألف ليلة طائفة من الأحكام المعادية للمرأة. ففيها يرد ذكر «غفلة النساء وسخافة عقولهن وسوء تدبيرهن (١٦٢/٧/٣). بل نُسب فيها الى الامام علي أنه أوصى المسلمين قائلاً: «إتّقوا أشرار النساء وكونوا منهن على حذر ولا تشاوروهن في أمر ولا تُضيّقوا عليهن في معروف حتى لا يطمعن في المكر» (٤٣١/١).

وجاء في حكاية أنه لا تُقرأ قصة من القصص إلّا «عند الأمراء والملوك والوزراء وأهل المعرفة من المفسرين وغيرهم».

ولكن لا تجوز روايتها على قارعة الطريق أو بمحضر النساء، والجواري والعبيد والسفهاء والصبيان (٥٩٤/٣). وهذا يعني أنه كان ثمة تصور لأفراد الصفوة الممتازة في المجتمع، وإن المرأة قد استبعدت من هذه الصفوة أصلاً.

ونظراً إلى أن مجموعة ألف ليلة وليلة ــ شأنها في ذلك شأن حكايات الأخوين جرم في المانيا ــ لا يعرفها كثير من الناس إلا في طبعات مختصرة أو مهذّبة، فان عامة القراء لا يعرفون تلك الأقوال المشار اليها آنفاً بقدر معرفتهم لشخصية شهرزاد الحكيمة، التي تنتصر بحلو حديثها وسحر حكاياتها على ما يُضمره الملك شهريار من عداوة للنساء بلغت حد المرض العُضال.

ومما يروى عن الوزير البرمكي الحسن بن سهل أنه قال ما معناه أن البراعة والتفنن في قص الحكايات ليست مجرد واحدة من فضائل الأدب والتربية في قصر الخليفة، وانما هي رأس فضائل الأدب[2]. فلم يكن بد اذن من اجادة فن الحكاية واحكامه لمن شاء أن يُقلّد المناصب العالية في قصور الخلفاء[3]. ونحن ندين للأدب الشعبي بأنه بيّن لنا أن من النساء أيضاً من برعن غاية البراعة في هذا الفن.

ومن المعلوم اليوم أن القصة الخارجية في ألف ليلة وليلة، أعني بذلك قصة شهرزاد وشهريار، هي من أصل هندي. إن ألف ليلة وليلة مجموعة من عناصر مختلفة ومركّبة من طبقات متعددة على بعضها بعضاً ــ شأنها في ذلك شأن الثقافة العربية الإسلامية اجمالاً في العصور الوسطى ــ ولذلك فان هذه المجموعة ليست خلواً من المتناقضات. لقد أثرت فيها طائفة من أقطار الشرق الأدنى، هي الهند وفارس والعراق والشام ومصر وتركيا. ويتبين الخبير ذلك من خلال الأسماء التي ترد فيها. والرباط الذي يجمع بين كل هذه العناصر هو اللغة العربية، التي رويت لنا فيها هذه الحكايات، ثم ما سمّاه انولتمن ــ أشهر مترجمي هذه المجموعة الى الألمانية ــ «بالصيغة الإسلامية» من حمد الله «العلي القدير»،

والاشارة الى قضاء أو قدر محتوم لا مفر للانسان منه.

وتخبرنا مصادر عربية ترجع الى القرن العاشر للميلاد، أولها «مروج الذهب» للمسعودي، ومن بعده بعدة عقود «الفهرست» لابن النديم، أنه عُرفت[٤] حوالي ذلك الوقت في بغداد مجموعة حكايات فارسية الأصل، اسمها «هزار أفسانه» أي «ألف حكاية». وهي تشتمل على جزء من القصة الخارجية؛ وخلاصتها أن ابنة أحد الملوك، واسمها شهرزاد، قد حالت ببراعتها في رواية الحكايات بين زوجها الملك وبين قتلها بعد ليلة الزفاف، وهو ما جرت به عادته حتى ذلك الحين مع كل امرأة تزوجها. وفي ترفّع العالم المُنقطع واللغوي الجامد، يُصدر حُكمه فاتراً على المجموعة، فيقول: «وقد رأيته بتمامه دفعات وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث»[٥].

غير أن حكمه هذا تفسره روح عصره. فقد كان ابن النديم ومعاصروه ومن خلفهم يقفون موقف الشك مما ينتجه الخيال الجامح، لا سيما إذا لم يكن مصوغاً في القالب اللغوي الفصيح ولغة الأدب العالية المحكمة. لقد كان على الأدب أن يُمتع الصفوة المثقفة ويوسّع من آفاقها، وذلك عن طريق الفن اللغوي أولاً، والاقتادر على استعمال التقاليد المأثورة وحذق الأساليب. أما الأدب الشعبي فكان مقصوراً على طبقات من الناس، كان يُنظر اليهم في شيء من استخفاف.

سبب التسمية:

ومن المؤكد أن العدد «ألف» في تسمية هذه المجموعة المشار اليها، قد قُصد به أولاً الاشارة الى طائفة كبيرة تفوق العدّ ولم يُقصد به معناه الحرفي. وفي عصر لاحق تطور عنه العنوان العربي «ألف ليلة وليلة»، ولعل السر في زيادة «ليلة» على الألف هو نوع من التطيرّ أو الخوف من العدد المُقفل. وقد يحتمل أيضاً أن يكون العدد «ألف وواحد» في هذه التسمية من تأثير اللغة التركية التي نلمح آثارها في بلدان الخلافة ابتداء من القرن الخامس الهجري وبيان ذلك أن العدد «ألف وواحد» في التركية [بن بر]، وفيه جناس استهلالي، يُفيد مجازاً كثرة العدد، أو المبالغة في الكمية. على أن الناس قد أخذوا من بعد يتمسكون بالمدلول الحرفي لهذا العدد. وفي ذلك العهد كانت مجموعة «ألف حكاية» الفارسية قد حُشيت بحكايات بغدادية، ثم أضيفت اليها من بعد حكايات قاهرية. والمجموعة معروفة هنا في القرن الثاني عشر للميلاد. ويظهر للوهلة الأولى أنه قد أدخلت اليها في القاهرة حكايات طريفة عن الخليفة هارون الرشيد.

نقلها الى الغرب:

ولم تعرف حكايات ألف ليلة وليلة نفسَها الطريق الى القارىء الأوروبي، الا بعد أن أصدر العلامة الفرنسي الذي زار الشرق (François Galland) (١٦٤٦ ــ ١٧١٥) ترجمة لها لأول مرة في لغة أوروبية؛ فأثارت في الأذهان بروعتها وبهجتها صور الكنوز المتألقة بجواهرها، والحوريات الحسان، وعفاريت الجن ببشاعة صورهم وان لم يكونوا دائماً أشراراً، وعجائب المصنوعات السحرية التي تُبدّل من عُسر الحياة يُسراً، مثل بساط الريح، والحصان الطائر، والمصباح السحري. ونسجت في خيال القارىء المبهور صورةً بديعةً للشرق. الا أننا نعلم منذ أبحاث (Nöldeke) و(Östrup) وفي المقام الأول (Enno Littmann) أن هذه المجموعة لا تشتمل على حكايات فحسب، وانما تضم كذلك روايات عن العشق والفرسان والشطّار، وأقاصيص، وخرافات، وأساطير ومُلح وطرائف. وليست الحدود بين هذه الأنواع قائمة ولا واضحة أحياناً.

اهتمام أوروبي:

ونعثر في أوروبا على آثار للقصة الخارجية لألف ليلة في قصة من عصر النهضة في ايطاليا، يرتقي تاريخها الى حوالي عام ١٤٠٠ للميلاد. على أن النصر الذي أحرزته هذه المجموعة بين الآداب الأوروبية يرجع الفضل فيه الى ترجمة (Galland)، إذ كان قصاصاً مطبوعاً وعبقرياً في إعادة الأداء مع إحساس دقيق بما كان يهواه قراء ذلك العهد. فظهر في ترجمته اثنا عشر مجلداً فيما بين ١٧٠٤ و١٧١٧؛ وكان

ظهور المجلدين الأخيرين منها بعد وفاته. وكان (Galland) قد وقع أول الأمر على قصة السندباد البحري. ثم حشا المجلدات الأخرى بحكايات مستمدة من مخطوط يرجع تاريخه الى القرن الخامس عشر. ومن بعد ذلك بما رواه له شفهياً وكتابةً ماروني من أهل حلب. هذا ولم يُعثر الى اليوم على أصل بعض ما قدّمه (Galland) الى القراء، ولكنه نُقل من ترجمته الى لغات أوروبية أخرى، ثم الى بعض اللغات الشرقية. على أن من أبناء الأجيال التالية لـ(Galland) من انتقد أسلوبه. ومن هؤلاء (Gottlieb August Bürger)، وهو يعلن عن ترجمته التي كاد يعفيها النسيان، فيذكر ترجمة (Galland) ويصفها بأنها «بضاعة جالان (Galland) العمياء البالية»(٦).

وفي الشرق ظهرت الطبعات الأولى من ألف ليلة وليلة بعد أن دخله فن الطباعة في الثلث الأول من القرن الماضي؛ وتُظهرنا هذه الطبعات على صورة لهذه المجموعة، ترجع الى القرن الثامن عشر.

ولقد أبدى العلماء في أوروبا اهتماماً بهذا الكتاب فترةً من الزمان، بعد أن نبّه (J.G. Herder) الأذهان في بداية القرن التاسع عشر الى قيمة الأدب الشعبي.

صورة المرأة:

وانني اذ أبحث فيما يلي عن صورة المرأة كما ترسمها هذه المجموعة، التي تضم فضلاً عن الصور الواقعية للحياة اليومية طائفةً من الحكايات الأسطورية، فان منطلقي لذلك أن كل أسطورة تنطوي قليلاً أو كثيراً على عناصر من الواقع، وكما أن الأسطورة قد تعكس الواقع فانها تعبر أيضاً عن أحلام الانسان وأمانيه في تخفيف أثقال الحياة وعنتها والوسائل التي يتخيلها لتحقيق ذلك.

كيد المرأة:

إن النظرة المستأنية نوعاً ما في تاريخ البلاد الإسلامية وحضارتها تُبين لنا أنه كان ثمة دائماً نساء استطعن بما تمتعن به من فتنة وسحر وجمال وما انطوين عليه من دهاء وحيلة أن يمارسن نفوذهن من وراء الحُجُب، بل استطعن في بعض الأحيان تولي شؤون الحكم وادارة دفّته. ومن الطبيعي أن كل أولئك النساء كنّ بنات عصرهن ونتاجه. فقد كنّ في الأغلب ربّات دسائس ومكائد، شأنهن في ذلك شأن الرجال الذين كانوا من حولهن. ولولا أن الرجال كانوا أصحاب دسائس ومكائد، لما اضطرت النساء الى أن ينهجن نهجهم.

لا غرو اذن أن يُصبح كيد النساء موضوعاً أثيراً محبباً، ليس في ألف ليلة وليلة فحسب، بل في كتب الأدب أيضاً. فالمرأة الشعبية، والجارية المثقفة، وابنة الملك الجميلة، والشابة والعجوز، وهذه أكثر من تلك، كل هؤلاء يتمتعن بصفة، وهي أنهن صاحبات مكائد وحيل يُدبرنها لنفع الرجال أو ضررهم، بل أحياناً لخير شعوب بأكملها أو لشرها. ولذلك يجب على الرجل أن يتقيهن ويأخذ حذره منهن. جاء في حكاية الدليلة المحتالة «أما قلت لك أن بغداد فيها نساء تلعب على الرجال؟» (٣/٢٥٥).

ويبدو أن منشأ هذه الحكاية هو القاهرة، ويمكن أن تعتبر الدليلة هذه وابنتها زينب النصابة نموذجاً لكيد النساء في ألف ليلة وليلة؛ بل لقد قيل عنها: «وكان ابليس يتعلم منها المكر» (٣/٤١٧).

انها تستخدم كيدها بمثابة سلاح اجتماعي، ولكي تفوز بمركز أبيها المربح، وقد كان مربياً للحمام الزاجل عند الخليفة، تستغفل سيدات المجتمع البغدادي الراقي وساداته باصطناعها لسانين: «واللسان ناطق التسبيح، والقلب راقص في ميدان القبيح» (٣/٤١٨). وهي سريعة الخاطر، ماكرة، ولكنها نادراً ما تعبث بأحد في شر مستعينة في ذلك بآخر. ولبلاغة لسانها تفلت حتى من الصليب الذي صُلبت عليه عقاباً لها ما اقترفته من الخدع. وفي آخر الأمر، تحصل على منصب مُريح آخر، ليس على سبيل المكافأة، ولكن لكي تكفّ عن تدبير مكيدة جديدة، فتُعين بوابة ومشرفة على زهاء ٤٠ عبداً في خان الخليفة.

وكان الناس يجدون متعة ولذة فيما تصطنعه النساء من المكائد لصد عاشق ثقيل، وذلك كما في قصة امرأة التاجر التي كانت

تعرف، لتخلّص حبيبها، كيف تثير الرغبة في المقدّم، ثم القاضي ومن بعد الوزير وأخيراً الملك. فهي تدعوهم جميعاً الى دارها، واحداً بعد الآخر في اليوم نفسه، ثم تحبسهم في خزائن. وبرسالة من المقدم تُطلق سراح حبيبها لتفرّ معه بالثياب النفيسة لعشاقها. أما أولئك الذين انطلت عليهم حيلتها فيُخلصون من حبسهم بعد أن كادوا يموتون جوعاً؛ وعندئذ لا يسعهم الا أن يضحكوا لهذه الخدعة ولحماقتهم (٢/١٥٨ ــ ١٦٦).

ويبدو أيضاً أن صنوف الحيل التي راوغت بها النساء أزواجهن ليلتقين بعاشق أو أكثر قد جعلت جمهور المستعمين الى رواة الحكايات يتبسمون ويتغامزون. ويظهر لنا أن هذا السلوك ليس مُستغرباً، اذ أن الزواج كان يتم غالباً لاعتبارات عائلية وليس على أساس العواطف الشخصية للزوجين.

ان أمثال هذه الحكايات وغيرها مما في كتب الأدب، يمكن أيضاً اعتبارها دليلاً على أن عزل المرأة عن الحياة العامة لم يكن بنفس الصرامة في كل مكان وزمان، كما يصوره الرحالة الأوروبيون وكما تصوره كتب الأدب العربي المعاصر التي تصف مصر في مُستهل هذا القرن، هذا على الأقل بالنسبة للطبقات العليا والمتوسطة.

واذا قرأنا في أحد المواضع من ألف ليلة وليلة: «وقد تعلمت القبح من أولاد مصر» (١/٢٣٤) واذا جاء في حكاية زين الأصنام أنه «لم يستطع أن يعثر في القاهرة على فتاة بالغة العفة والحياء» (٦/٢٩٩(*)) ــ والحكايتان ترجعان فيما يُرجّح الى عصر المماليك ــ، فان ذلك من باب المبالغة، وان كان لابد أنها تنطوي على شيء من الحقيقة. لقد أدرج قسم من الحكايات حول الزوجات الخائنات في الاطار الخارجي لقصة «كيد النساء» (٣/١١٧ ومابعدها) لتلقى بذلك تقديراً سلبياً، ولتكون فيما يظهر عبرة لمن يعتبر. وفي هذه القصة لاتنال الجارية الماكرة عقاباً، مع أنها أرادت بدافع الانتقام أن يلقى ابنُ الملك حتفه. وفي حين أننا نألف في الأساطير الأوروبية أن ينال مُرتكب الشر في نهاية الأمر مايستحقه من العقاب، نجد هنا، وان لم يكن دائماً، استعداداً للعفو والمغفرة. فاعتقاد أن الإنسان ليس مُخيّراً في أفعاله بقدر ما هو مُسيرّ، يُفضي الى التسامح والتغاضي (أنظر ٣/١٨٦). وعلى ذكر هذا، يؤخذ من قصة السندباد البحري أن هذا الاعتقاد في المكتوب والمقدّر على الانسان سلفاً، لم يحل دون اجتهاد الإنسان وبذله الجهد ــ على الأقل في عصر ازدهار الإسلام ــ، بل أنه نمّاه وشجّعه.

التعب والمكافأة:

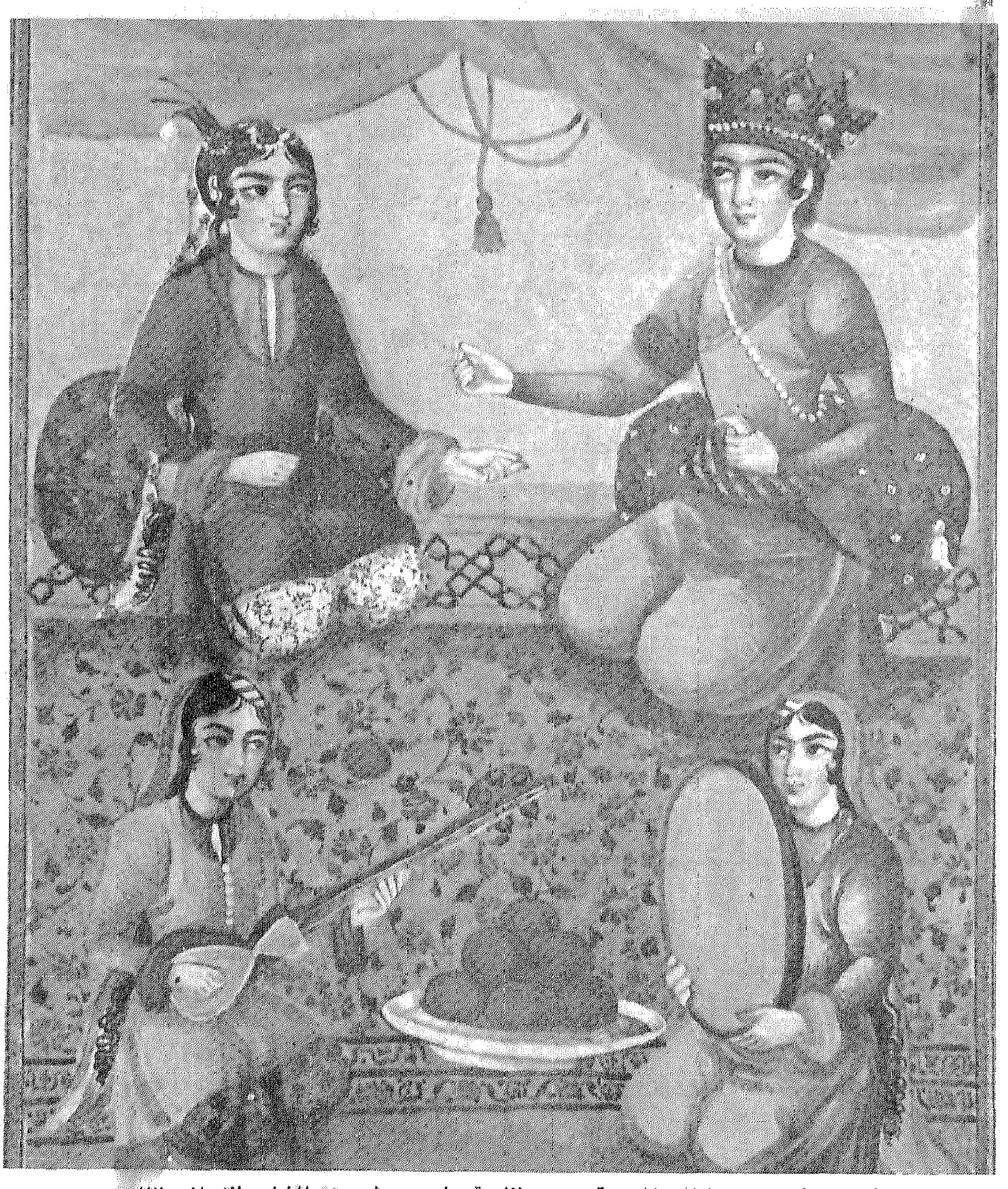
ان مبدأ فئة التجار الذي تنطُق به هذه الرواية، ولعلها نشأت في البصرة ابّان القرن الثالث، ينُصّ على أنه: «لا تعب دون مكافأة»، وهو مبدأ يمكن أن يعكس أيضاً فيكون «لا مكافأة دون تعب». فمن كان جريئاً بحيث يخاطر بحياته، ويتحلّ فضلاً عن ذلك بما يلزم من الصبر، فان نصيبه آخر الأمر النجاح ان كان مقسوماً له، كما يؤخذ ذلك من حكاية الصائغ حسن البري. وهي حكاية تألفت من عناصر متباينة أشد التباين. أما من خاب سعيُه ومُني بالفشل، فان هذا الاعتقاد يحمله على الاقتناع بأنه لاذنب له في اخفاقه، لأن القدر لم يشأ غير ذلك. وقصة «قمر الزمان» التي نشأت في مصر في القرنين العاشر والحادي عشر، تبينّ لنا كيف كانوا يقيّمون خُلُقياً حوادث الخيانة الزوجية في القرون المتأخرة. من ذلك أن الصائغ البصري العجوز يلوي عنق زوجته الشابة، بعد أن يكتشف خيانتها له مع عشيقها الشاب الجميل، الذي كان يعتبره صديقاً له. هذا وتلقى جاريتها المذنبة معها نفس المصير. أما عشيقها القاهري الأصل، والذي شاركها راضياً كل مخازيها، ثم انسحب أخيراً من الأمر في جُبن وعدم اكتراث، فانه لا يسلم من الأذى فحسب خلافاً لعشيقته، بل أنه يُكافأ بأن يتزوج فتاة أبرع حُسناً وأكثر جمالاً. وفي الختام يُقارن بين القاهريات والحسناء البصرية الخائنة، «ان أبي لا زال يحكم عليّ مادمت بكراً وحيث تزوجت فقد صار الحكم كله في يد بعلي فاني لا أخالفه» (٤/٦٢٩)، «ومن ظن أن

النساء كلهن سواء فان داء جنونه ليس له دواء» (٤/٦٣٠).

وبهذا يختم القاصّ حكايته. ومع أنه يُخيل الينا أن القاصّ كان يحلو له أن يُسهب في تفاصيل الانحرافات الزوجية وأنه أراد بذلك أن يلبي حاجة سامعيه الى شيء من الاثارة، فان القصة تسعى الى أن تجد مُسوّغاً، ولا بد، للموقف الاستبدادي للرجل في القرون المتأخرة.

نماذج الوفاء:

ولعل السبب في كثرة عدد القصص الفكاهية التي تدور على عدم وفاء النساء هو الميل الى التسليّ ببراعة النساء في كيدهن، وبالفكاهة اللاذعة في حد ذاتها: وذلك لأن المجموعة



خسرو وشرين مع عازفات الموسيقى. من منظومة «خسرو وشيرين» للشاعر الايراني نظامي

تشتمل أيضاً على قصص حول زوجات يُعتبرن نماذج للوفاء. فلدينا طريقتان مسليتان وكأنهما قصتان تعليميتان حول نساء ذكيات، يحاول أحد الملوك أن يصل اليهن فيُظهرن له قُبح فعله (٢/٤٢٧ ومابعدها، ٣٢/١١٧ ومابعدها). وفي قصة البدوي المُفتقر وامرأته الحسناء التي ينتزعها منه مروان بن الحكم، تثير الزوجة أيضاً اعجاب الخليفة الأموي معاوية الى حد أنه يريد الزواج منها. ولكنها ترفض السلطان والثراء وتتشبث بزوجها مُعلّلة ذلك بقولها: «ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان، ولا بغدرات الأيام وأنا له صحبة قديمة لا تُنسى ومحبة لا تُبلى، وأنا أحقّ من صبر معه في ضرّاء كما تنعمت معه في السراء» (٣/٤٠٣).

ورفض زوجها أيضاً أن يستبدلها بـ«ثلث جوار نمو أبقار كأنهن أقمار» (نفس المرجع) وبالمال والأملاك. وقد كافأ معاوية، المشهور بطيبته وحلمه، هذا الوفاء بجائزة سنية؛ ولا بد أن صنيع معاوية هذا قد أرضى شعور القاصّ وسامعيه بالعدالة والانصاف.

الشعر العذري:

من العجيب حقاً أن يلعب بكثرة الحب العارم بين الرجل والمرأة مثل هذا الدور في قصص نشأت في مجتمع، لم يكن تعدد الزوجات فيه هو القاعدة ولكنه كان على كل حال مُباحاً، ومنتشراً بين الطبقات العالية، مألوفاً فيها. ويذكرنا بعض هذا القصص بالشعر العذري الذي نشأ في القرن السابع. ولقد أصبح هذا النوع من الحب غير المُتحقق المثل الأعلى لمجتمع القصر في العراق ابتداء من القرن الثامن فصاعداً وقد كانت حقيقة التصور الخلقي عنده من نوع مغاير تماماً. ولهذا فاننا قد نتساءل فيما يتعلق بروايات الحب وأساطيره في ألف ليلة: أكانت هذه الروايات أو الحكايات، تمثل تصورات خيالية وأماني كانوا يتمنونها، أم كانت نوعاً من الأدب المضاد. ونظراً الى أن الأمر يتعلق الى حد بعيد بقصص شعبي، وأننا نعلم من كتب الرحلات في القرن الخامس عشر وما بعدها أن الزواج من واحدة كان هو السائد، فلعلنا نذهب الى أننا هنا بصدد تصورات مثالية وتعبير عما كان يتمنى الناس. لقد كانت الحياة الأسرية في الطبقتين العليا والمتوسطة خاضعة تماماً لسلطان الأب طيلة قرون، ونقف على التصور المثالي للزوجة المسلمة الصالحة في أبيات وردت بها قصة الجارية تودّد:

مهما لحظت تعلمت ما تبتغي
وحياً بدون اشارة وبيان
واذا نظرت الى بديع جمالها
أغنت محاسنها عن البستان

وكذلك أخلاقيات أقصوصة السقاء وامرأة الصائغ (٢/٣٩٨ ومابعدها) تطابق التصور الاسلامي تمام المطابقة. ففي هذه القصة يقرب السقاء فجأة امرأة الصائغ، الذي خدم السقاء بيته في اخلاص طوال ثلاثين عاماً، فتعتقد الزوجة بحق أن زوجها أيضاً فعل مثل ذلك مع امرأة أخرى وأن ما حدث لها هو العقاب العادل الذي فرضه القدر. وهي لا تدعو الله أن يغفر لزوجها فقط، وانما لها أيضاً مع أنها لا ذنب لها أبداً. ثم يختم القاص كلامه محذراً بقوله: «فينبغي للمرأة أن تكون مع زوجها ظاهراً وباطناً وتقنع منه بالقليل ان لم يقدر على الكثير وتقتدي بعائشة الصديقة وفاطمة الزهراء» (٢/٤٠٠).

الحب المتفاني:

ويبدو من السائغ تماماً في مجتمع كان على المرأة فيه أن تحتجب وتستتر، أن يكون سبب الحب العارم في بعض الأحيان نظرةٌ واحدةٌ أو أقل، وكثيراً ما يكون مجرد صورة امرأة جميلة أو وصفاً لها. ويشهد بعض القصص أيضاً بأن كثيراً من النساء قد عرفن عن طريق إزاحة حجابهن أحياناً أن يبدين ما خفي من حسنهن، وذلك ليحملن بعض الرجال على تحقيق رغباتهن أو أن يؤدوا ما يعهدن اليهم به من مهام وأمور.

والحب الذكي المتفاني الذي تكنّه المرأة للرجل في الأسطورة الألمانية له مثال مؤثر في قصة نساء الكرم. ذلك أنه حين طلب اليهن أثناء الحصار الذي ضرب على مدينتهن، أن ينسحبن ويأخذن معهن أعز ما لهن؛ نجد أنهن يحملن أزواجهن على ظهورهن انقاذاً لحياتهم.



وفي قصص ألف ليلة نجد مثل هذا الحب، قبل كل شيء في قصص يصور العلائق بين جارية من الجواري ورجل من أحرار الناس. وقد كان وراء تلك القصص شيء من الحقيقة كما يتضح من كتب الأدب، ابتداء من القرن التاسع فصاعداً، حيث يصور فيها تفوق حب الرجال لجاريته على حبه لامرأة حرة، لا يجوز له أن يراها قبل الزواج ولو مرة واحدة. جاء في العقد الفريد لابن عبد ربه «الأمة تشترى بالعين وترد بالعيب، والحرة غل في عنق من صارت اليه»(٧)

ومن أمثلة ذلك قصة نور الدين، ابن التاجر، ومريم صانعة الأحزمة، ابنة أحد ملوك الافرنج. وهي قصة تظهر تأثير عصر الحروب الصليبية. فصاحب مريم يمنعها الحق في أن تختار بنفسها من يشتريها، لأنها شفته من مرض شديد الوطأة. ولما كان هذا كثير الورود في المجموعة، فلا بد أنه يعكس أوضاعاً حقيقية. وكل من أراد شراء مريم من الشيوخ أو أصحاب الملامح القبيحة، هجته بأبيات لاذعة موجعة، فضحت فيها عيوبه البدنية. وفي آخر الأمر تطلب الى الشاب الجميل نور الدين أن يمتلكها. ثم أنها لا تصبح له حبيبة وربة بيت فحسب، وانما تنهض أيضاً باعالته. ففي الليل، عندما يخلد الى النوم ليستجم من الحب، تطرز هي أحزمة رائعة، ليبيعها في اليوم التالي في السوق. وهي تعمل فيما بعد رباناً لسفينة، لأنها: كانت قوية القلب تعرف بأحوال سير المراكب في البحر المالح وتعرف الأهواء كلها واختلافها وتعرف جميع طرق البحر» (٢١٨/٤ ومابعد). وتقتل في غير رحمة كل المطاردين، وفيهم اخوتها أيضاً، الذين تعقبوها هي وحبيبها نور الدين في جيش جرار ليقتلوهما. انها تضحك في عطف وتسامح عندما يجيبها نور الدين على طلبها اليه بأن يساندها في القتال بوله: «ان ثباتي في النزال مثل ثبات الوتد في النخال» (٢٤٢/٤).

تنقذ سيدها:

ان الجارية الحسناء الذكية صاحبة الثقافة المتعددة الجوانب، والتي حظيت بأسنى مكانة في قصور الأعيان في القرنين الثاني والثالث كلما ازداد ابتعاد المرأة الحرة عن الحياة العامة، أن هذه الجارية يمكن عدها واحدة من الشخصيات النمطية في ألف ليلة وليلة وأشهر أمثلتها في المجموعة هي «تودد» في القصة التي تحمل اسمها. ومنشأ هذه القصة العراق في القرن الثالث على ما يرجح وقد عرفت أيضاً طريقها الى الأدب الاسباني. والجارية تودد تنقذ أيضاً سيدها من الفقر والضياع بحكمتها وجمالها. وقد كان صاحبها ابن أحد التجار الأثرياء، فبدد ماله واستسلم لليأس. فنصحته بأن يذهب بها الى هارون الرشيد ويعرض عليه أن يشتريها بعشرة آلاف دينار. ولم يكن بد من أن تجتاز امتحاناً تثبت فيه علمها ومعارفها أمام طائفة من أشهر علماء ذلك العصر. فيتبين لهم أنها موسوعة في العلوم الإسلامية للعصور الوسطى، من نحو وشعر وشريعة وتفسير وبلاغة وفرائض وخطابة وأخبار الأوائل وفلسفة وطب وهندسة وقياس الأرض وفلك. ويتضح أنها ليست متفوقة في كل هذه المعارف فحسب، بل هي أيضاً بارعة في لعب النرد. وأخيراً تسحر ألباب السامعين بغنائها وضربها على العود. غير أن خاتمة القصة تطلعنا على معايير التقييم الاجتماعي: فسيدها الجاهل يتقاضى مائة ألف دينار ثمناً لها، وترد هي نفسها اليه نزولاً على رجائها كهدية سخية من الخليفة وتصبح نديمة له. أما هي ذاتها فتكافأ بخمسة آلاف دينار.

بطلة قصة علي بابا:

أما مثال جواري أسر الطبقة المتوسطة فمرجانة التي جمعت أيضاً بين الذكاء والجمال. وهي البطلة الحقيقية لقصة «علي بابا والأربعين حرامي»، احدى القصص المصرية المتأخرة. ان هذه القصة التي ليس بها من العناصر الخارقة للطبيعة سوى الجملة السحرية «افتح يا سمسم!»، والتي تأسرنا ببنائها المنطقي، ليست أصلاً مجرد قصة الفقير الذي يصيبه الثراء على نحو معجز عجيب؛ بل انها قصة الأوغاد الذين يجدون من يلقنهم درساً، ولكنه ليس الرجل الطيب الفقير، وانما جاريته الذكية. ومغزى القصة، على ذلك، أن مكر النساء ودهاءهن يقهر حيل الرجال ويبطلها. فمرجانة



سيدة من مغل، الهند، القرن السادس عشر، متحف جويم، باريس

تخدع اللصوص وتضللهم بأن تنقش علامتهم على أبواب الجيران أيضاً، وكونها تخيط جثة الأخ الطماع أساساً لاستمرار أحداث القصة وهي تعد لذلك اعداداً طيباً، فتشيع أولاً أن الأخ مريض، وتبتاع لذلك أدوية ملائمة. ودون أن تطلب عوناً من أحد أو تولي أحداً ثقتها، تقتل غير هيابة ولا خائفة ٣٧ لصاً. ولعل الوحشية التي تم بها ذلك لم تفزع السامعين في ذلك الزمان، ولم تعد الوسيلة التي تصدم به الروايات البوليسية الحديثة قراءها. وبعد أن فرغت مرجانة مما فعلته تطلع سيدها على الأمر في حذر، مهدئة من روعه، وفي خلال ذلك تنعشه بحساء أعدته بنفسها. وهي أيضاً التي أفسدت الحيلة الجديدة لشيخ اللصوص، اذ هي الوحيدة التي ساورتها الشكوك عندما أبى أن يأكل الملح في بيت علي بابا؛ والملح علامة الصداقة بين المُضيف وضيفه. وهي تعرف بما لها من تنوع الجوانب، كيف تأسر الضيف برقصها مرتدية ثوباً يبرز مفاتنها، ثم تقتله في غير خوف أو وجل. وكما هو الحال في القصة البوليسية ــ وكذلك أيضاً في الحكاية تنتهي الأحداث نهاية سعيدة: فبعد أن ينال الاشرار ما يستحقون من عقاب، تزوج مرجانة من ابن علي بابا، مكافأة لها على وفائها واخلاصها. ومعنى ذلك أنها تصعد على السلم الاجتماعي بخطوة واسعة.

ومثل تودد في الجمال وتعدد المواهب والبراعة الجارية «قوت القلوب» التي تظهر في هذه الحكايات أكثر من مرة. فهي في حكاية خليفة الصياد والخليفة الصائد توصي أحد أغنياء التجار خيراً بالصياد الغشيم فتقول: لا تؤاخذه فانه رجل عامي (٤/١٨٧).

الجارية وسيط:

ومن المؤكد أن دور الوسيط الاجتماعي الذي قامت به الجارية ليس مجرد صدفة، لأن في ألف ليلة شواهد على أن مثل هؤلاء الجواري كن خاضعات لأمزجة أصحابهن، على الرغم مما لهن من ذكاء وجمال خلاب. وهكذا كان تعاطفهن مع المظلومين اجتماعياً أشد من تعاطفهن مع الطبقة العالية. وقد كانت الغاية من تعليمهن هو مسامرة هذه الطبقة العالية وتسليتها. هذا وتبين المجموعة أيضاً بأنه كان ثمة نساء حرائر، اشتغلن بمسائل العلم في عصرهن وبعلوم الدين، ولم يكن ذلك لداعي المسامرة والمنادمة في القصر فقط، ولكن من أجل العلم ذاته أيضاً. فيخبرنا القاص عن امرأة هي «سيدة المشايخ» بقوله أنه لم ير امرأة: «أذكى خاطراً وأحسن فطنة وأغزر علماً وأجود قريحة وأظرف أخلاقاً».

وقيل أن هذه المرأة كانت تعظ الناس في حماة بالشام في القرن السادس من فوق المنبر.

الملكة الذكية:

نقرأ عدداً من المرات في ألف ليلة عن ملكات ذكيات عادلات، كما لا يكون الا في الأساطير. من ذلك مثلاً ابنة الملك بدور، التي يختفي زوجها قمر الزمان في ظروف غامضة أثناء قيامه ببعض الأسفار. وحتى لا تضطرب الحاشية أو يستبد بها القلق، ترتدي بدور ثياب الملك وتمثل شخصيته. وفي قصة قمر الزمان هذه التي يبدو أنها نشأت في عصر متأخر بمصر، تضم بدور مملكة أخرى الى مملكتها وبعدها نسمع: «وجلست على كرسي المملكة وطلعت اليها الأمراء وجميع الرؤساء وأرباب الدولة وهنئوها بالملك وقبلوا الأرض بين يديها ودعوا لها فتبسمت وأقبلت عليهم وخلعت عليهم وزادت في اكرام الأمراء وأرباب الدولة واقطاعهم والجيوش فأحبوها ودعوا لها جميع الخلق بدوام الملك وهم يعتقدون أنها ذكر فأمرت ونهت وحكمت وأطلقت من في الحبوس وأبطلت المكوس ولم تزل قاعدة في مجلس الحكومة الى أن دخل الليل» (١/٨٨١) وهكذا كان تصور الشعب للحاكم العادل.

كانت بنات الأمراء يعتبرن بصورة عامة أعلى شأناً من أزواجهن الذين لم يرتفعوا الى المراتب العالية الا عن طريقهن. وهذا ما وصفه لنا الرحالة الأوروبيون فيما يتعلق مثلاً بفارس في عصر الصفويين أو تركيا العثمانية. فانزال المرأة اجتماعياً عن درجتها كان الى حد ما أمراً مرتبطاً بانتمائها الطبقي.

المرأة والحكم:

وابنة الملك التي فاقت في ذكائها من يحيط بها من الرجال، نجد لها مثالاً في قصة معروف الاسكافي الفكاهية، وفي قصة الأختين اللتين تحسدان أختهما. وهنا نجد أن الشبان الذين أنقذتهم هذه الأخيرة بشجاعتها وحصافتها، يعهدون اليها بالقيادة في رحلة عودتهم. ولكنها تجيب بروح اسلامية: «يا سادتي، لا يجوز لي وفقاً للشريعة أن أتقدمكم، ولكن ما دمتم قد أمرتموني، فليس لي الا الطاعة» (١٩٣/٥(*)).

ونقرأ في عدة مواضع من ألف ليلة (منها ١٦٩/٣ وما بعدها) أن الأميرات كثيراً ما يدققن في الاختيار ويشترطن ألواناً من الشروط عندما يتعلق الأمر بمن سيتزوجن منه. وهن على الجملة يأبين الخضوع لسلطان الزوج.

ولا بد أن عدداً من القصص بدت لسامعيها وكأنها صور لعالم مقلوب في تلك العصور الوسطى التي كانت فيها سلطة الأب في الأسرة وسيطرة الرجل في جميع نواحي الحياة تقريباً أموراً طبيعية. ولا يبعد أن تكون هذه القصص قد حفظت لنا بقايا من مظاهر نظام الأمومة، على ما كان موجوداً قبل دهر طويل في الشرق الأدنى.

وثمة حكاية من بلد تحكمه امرأة وتشغل فيه النساء وظائف الوزراء والقضاة، ومن يعين قواد الجيش والجند. وفي ذلك البلد ينهض الرجال بأعباء الزراعة فيحرثون ويبذرون ويحصدون ويشتغلون بعمارة الأرض وعمارة البلاد ومصالح الناس من سائر الصناعات.

ومع أن هذه الأوضاع لم تكن من الأمور الواقعة، الا أنها تدخل في نطاق المتصور(٨). ان جزر واق الواق ــ وهي التسمية العربية في العصور الوسطى لجزر اليابان ــ التي يصل اليها البطل الأسطوري حسن البصري ليسترد زوجته الغائبة، لا يحكمها الا النساء، وقد عرف هذا الزعم سبيله الى مؤلفات العرب في وصف البلدان. وكذلك عرفت الحكاية الشعبية صوراً أخرى من الأوتبيا الاجتماعية.

فحكاية الأمير أحمد والجنية الجميلة بري بنو، وهي حكاية فارسية الأصل على ما يحتمل، تعبير عن الشوق الى تحرير المرأة، الذي لم يتحقق بعد ذلك بعدة قرون على حد سواء في كل مكان. ففي عالم الجن الذي تنتمي اليه بري بنو، تتمتع الفتاة بحرية اختيار شريك حياتها على وفق هواها لا هوى أبويها؛ ولذلك تصبح الزيجات هنالك سعيدة موفقة، بخلاف نظائرها في عالم الأنس. ففي عالم الجن تستطيع الفتيات أن تصارح الرجل الذي تهواه بغرامها، دون أن يفرض عليها الانتظار الى أن يخطب ودها «٣٧/٣ وما بعدها حسب ترجمة ليتمان».

وتظهر في ألف ليلة وليلة كائنات تفوق قدرتها طاقة البشر وجنيات طيبات وأخرى شريرات على ما هو مألوف في كل الأساطير عند سائر الأمم. وفي حين أن النساء اللاتي يتمتعن بقوى سحرية ويتعاطين السحر والشعبذة في الأساطير الأوروبية، عجائز بلغن الغاية في القبح وبشاعة المنظر، فاننا غالباً ما نجدهن في ألف ليلة شابات جميلات ذوات فتنة واغراء.

دهاء العجائز:

وتعتبر العجائز على الخصوص داهيات، واسعات الحيلة، لاسيما اذا قمن بدور الخاطبة، ولعل مرجع ذلك أيضاً الى تمتعهن بحرية الحركة الى حد بعيد نظراً الى سنهن. وهن يستخدمت مكائدهن لمصلحة شخصيات الحكاية وخيرهم، حتى وان كانت أسماؤهن تؤذن بالشر والأذى، مثل «شواهي ذات الدواهي»، مضافاً الى ذلك أمر يكاد يكون نذير سوء، وهو أنها ذات عينين زرقاوين (عمر بن النعمان، حسن البصري)، أعني بذلك زوجة معروف الاسكافي، التي ينم عليها اسمها، وهو «فاطمة العرة». فهي لا تضرب زوجها الطيب فحسب، وانما تكيل له التهم ظلماً وعدواناً ثلاث مرات عند عدد من القضاة الذين يضطرون الى الاصلاح بينهما. ويصلح أحد هؤلاء القضاة بينهما بكلام يمثل التصور الإسلامي لوضع الرجل والمرأة في الزواج. وقال «يا حرمة أطيعي زوجك، وأنت يا رجل ترفق بها» (٦٨٠/٤).

وتبين كذلك هذه الحكاية أن المرأة لم تكن بدون من يحامي عن حقوقها. فقد كان بوسعها



ام وطفلها، من عمل الفنان التركي اسماعيل جوبان (من مواليد عام ١٩٤٥م)

كما يتضح هنا، أن تستعين بالقاضي على زوجها دون أن تلزم باحضار شهود على دعواها. وهذا ما تؤيده أيضاً مشاهد من مقامات الحريري.

من المؤكد أن حكايات ألف ليلة لم تصور أصداء المواقع فحسب وانما مثلت أيضاً أماني وأحلاماً تتوق الى التغلب على الحاجة وكذلك على بعض التقاليد التي فرضتها عوامل مختلفة. وصورة المرأة في هذه المجموعة مطبوعة جزئياً فقط بطابع الرفض واستعلاء الرجل. وتبين لنا النساء الكثيرات اللاتي تمتعن بالذكاء وسعة الحيلة، أنه قد وجدت حتماً نساء كان لهن من عزم الرجال ما كفل لهن أن يفرضن أنفسهن، وأن الرجال لم يقابلوا هذا بالتسامح والتغاضي فحسب، بل أنهم قبلوا ذلك بنفس راضية.

فلا غرو أن تلقى هذه المجموعة منذ عدة عقود والى اليوم تقديراً كبيراً في الشرق. وقد

كانت شخصية شهرزاد الذكية مصدر وحي لبعض الكتاب مثل توفيق الحكيم وطه حسين. وقد أطلق الكاتب المصري يوسف الشاروني على ما انتخبه من قصص الكاتبات المصريات وأصدره في القاهرة سنة ١٩٧٥ اسم «الليلة الثانية بعد الألف» رابطاً هذه المختارات ربطاً واعياً بالمجموعة المشهورة، وفي المقام الأول بالشخصية الرئيسية للحكاية الخارجية، مع أن أكثر ما انتخبه ليس بينه وبين الحكايات الأسطورية سبب، وانما هي قصص تنقد نقداً مراً أوجه التقصير الاجتماعي في وضع المرأة المصرية المعاصرة.

هذا والمثال العراقي محمد غني، الذي يعني عناية بالغة بتحرير المرأة العراقية قد أقام في احدى الساحات الحديثة ببغداد، تمثالاً للجارية مرجانة، وهي بجلاء تدبيرها وقوة شكيمتها البطلة الحقيقية لحكاية علي بابا والأربعين حرامي.

الهوامش

(١) أخذت الشواهد كافة من طبعة ألف ليلة وليلة لوليم مكناطن ج ١ ــ ٤، كالكتا/ لندن ١٨٣٩ ــ ١٨٤٢.

(*) نقلاً عن الترجمة الألمانية لأنو ليتمان.

(٢) أنظر: Coupe W.W.: The German illustrated broad sheet in the seventeenth century. Vol. I. Baden-Baden 1966. (Bibliotheca Bibliographia Aureliana XVIII). S. 55.

(٣) أنظر: Goldziher. I.: Adab. in: Enzyklopaedie des Islam. Bd. I/1913. S. 129.

(٤) كتاب الفهرست. أصدره غ. غلوغل، لايبزيج ١٨٧١، ص ٣٠٤.

(٥) Göttingisches Magazin der Wissenschaften und Literatur II/1781. S. 305.

(٦) ابن عبد ربه: كتاب العقد الفريد، شرحه وضبطه وصححه أحمد أمين، ابراهيم الابياري وعبد السلام، هارون ج ٦، القاهرة ١٩٤٩، ص ١٢٩.

(٧) أحمد بن حنبل: مسند، مصر ١٣١٣، ج ٥، ص ٤٨، وأنظر نفسه ج ٥٠، ص ٣٨، ٤٢، ٤٥، ٥٠، ٥١.

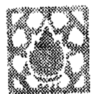
(٨) Göethe J.W.: Westöstlicher Diwan. Hgb. u. erl. v. E. Beutler. Leipzig 1943. (Sammlung Dieterich Bd. 125). S. 41:

Behandelt die Frauen mit Nachsicht!
Aus Krummer Rippe ward sie erschaffen.
Gott Konnte sie nicht gan grade machen.
Willst du sie biegen, sie bricht:
Läbr du sie ruhig, sie wird nich krümmer:
Du gutter Adam. was ist denn schlimmer?
Behandelt die Frauen mit Nachsicht:
Es ist nicht gut. dab euch eine Rippe bricht.

المراجع

— Gerhardt. M.I.: The Art of Story-Telling. A literary study of the Thousand and one nights. Leiden 1963.
— Heller. B.: Das hebräische Märchen. in: Bolte. J. und G. Polivka: Anmerkungen zu den Kinder und Hausmärchen der Brüder Grimm. Bd. IV. Leipzig 1930. S. 315-418.
— Kahlo. G.: Die Wahrheit des Märchens. Halle (Saale) 1954.
— Leyden. F. von der: Die Welt der Märchen. Bd. I. II. Düsseldorf 1953-1954.
— Littmann. E.: Alf laila wa-laila, in: The Encyclopedia of Islam. New ed. Vol. I. Leiden. London 1960.
— Littmann. E.: Zur Entstehung und Geschichte von Tausendundeiner Nacht, in: Die Erzählungen aus den tausendundein Nächten. Vollständige deutsche Ausgabe in sechs Bänden... übertr. v. E. Littmann. 3. Aufl. Leipzig o. J.. Bd. VI. S. 641-728.
— Oestrup. J.: Studien über tausendundeine Nacht. Aus dem Dän. nebst einigen Zusätzen V. O. Rescher. Stuttgart 1925.
— Rescher. O.: Studien über den Inhalt von tausendundeiner Nacht. in: Der Islam IX/ 1918. S. 1-94.

● **هذا المقال مأخوذ من مجلة «فكر وفن»، العدد ٣٦، ١٩٨١.**



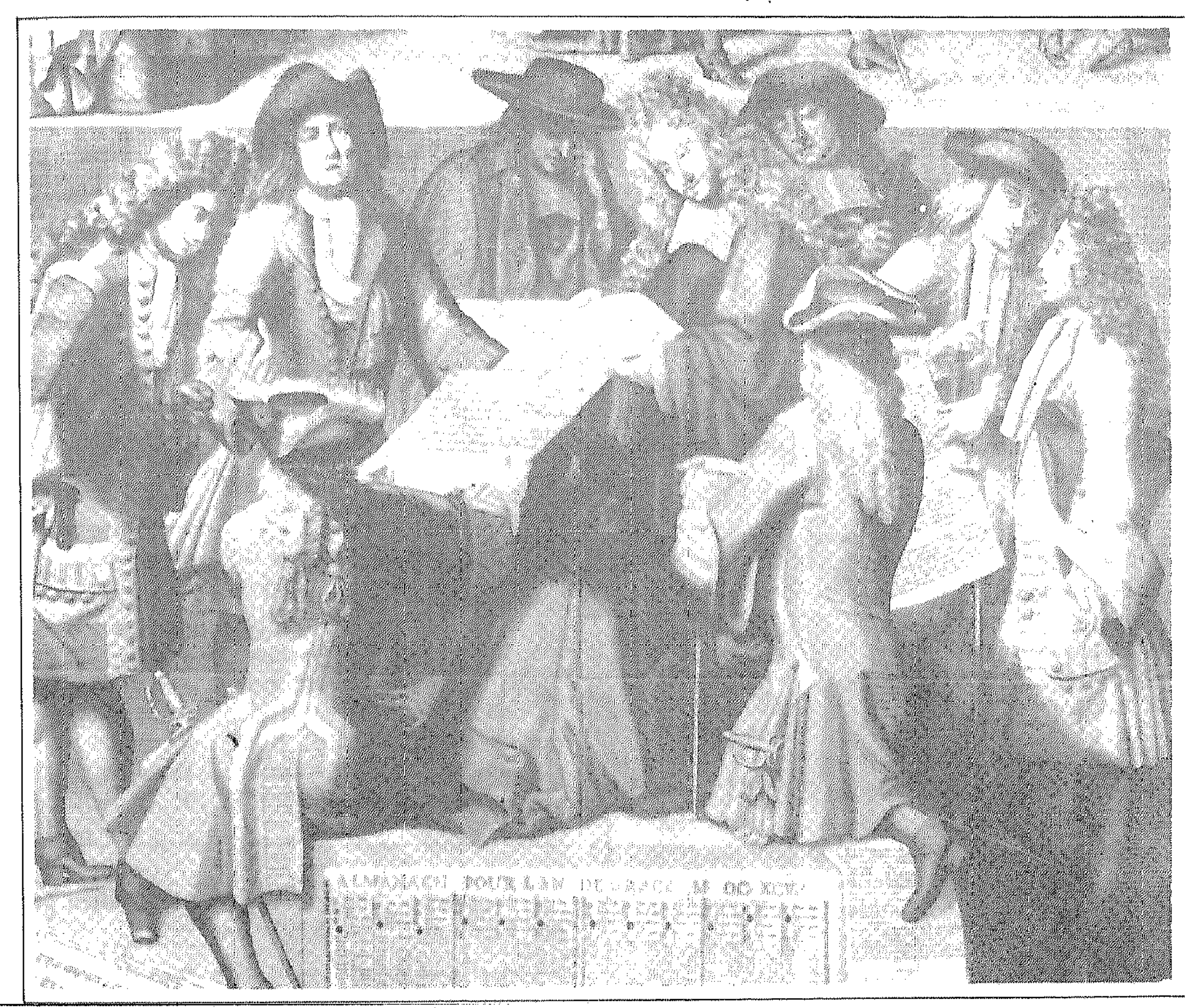
الأغنياء والفقراء

● المال يستر رذيلة الأغنياء، والفقر يغطي فضيلة الفقراء.

(علي بن أبي طالب)

مهنة الصحافة الخطرة في عهد النظام الملكي الفرنسي

د. رياض العالي



الجرائد «المكتوبة باليد» تتناقل من يد إلى يد

مسألة الإعلام مطروحة في كل الأنظمة، وتظل بنت الساعة، حتى في البلاد التي تؤمن بحرية النشر والرأي. ولقد كانت وظيفة الاعلام، والنقد والتعليق، في مطلق أحوال الحرية، مرفوضة لدى السلطات دائماً. فيجب ألا يقال كل شيء، وما قيل يجب أن يراقب. لم تكن الصحافة، في فرنسا حرة إلا منذ بدايات الجمهورية الثالثة. بينما كانت الرقابة تمارس بقسوة شديدة، أو متهاودة، مفسحة لتفتح صحافة معارضة، تحت الأرض.

ولكن لنعد قليلاً إلى الوراء.

عام ١٦٠٩، أطلق صاحب مطبعة، جريدة أسبوعية، بثماني صفحات، تحتوي معلومات متنوعة. في الوقت ذاته نشرت بعض الصحف في ألمانيا وسويسرا وانكلترا. وكان أول كتاب قد طبع عام ١٤٧٣ في ليون. ولم تكن تجربة الطباعة قد جاوزت مائة عام حين نشرت أولى الصحف.

والصحف التي حلت محل تلك التي كانت «تكتب باليد» لم تكن أكثر من نشرة أخبار. غير أن تطور البريد أتاح تطوراً نسبياً فحسب، في مجال الأخبار. ذلك أنه كان لا بد من انتظار أيام حتى يأتيك الخبر، وحتى تعلم ما يجري في المملكة. ولا بد من أسبوع حتى تعرف ما يجري في هولندا. وكان معظم الناشرين من باريس، وكان ثمة ناشرون في كان وليون وتولوز وروان.

وكانت معظم الأخبار تدور حول ما يجري في العالم، أو حول ولادة أمير أو موته، وحول الحرب أو السلم. ويمكن القول أن معظم الصحف كانت ظرفية، تصدر حسب وجود الأخبار أو نوعها. وكانت تروي أخبار الحروب والرحلات، وحياة البلاطات. وكانت تدعى «البط»[1]. وقد ازدهرت خلال القرن السادس عشر، واعتبرتها السلطات غير مؤذية. وكان الموسيقيون الجوالون يبيعونها في الأسواق.

على أن ثمة صحفاً إلى جانب «البط» لفتت انتباه السلطات لأنها ساندت بعض الأطراف في الحروب الدينية: إنها صحف نضال. لذلك منعت السلطات بعضها. وأوقفت عدداً من مصدريها، وحرمت المكتبات بيعها. وأحرق صاحب مطبعةاسمه مارتان لوم، في ساحة موبير، وأحرق آخر عام ١٥٩٠ لأنه لم يطع الملك وأصدر صحيفة خلافاً للأوامر.

«البط»:

خضعت النشرات الدورية المنتظمة لاتجاهين أساسيين: الأول أن توجه من خلال الخبر وهي الصحف الملتزمة. والثاني أن تسلي وتحاكي الخيال، وتقترح على القراء نوعاً جديداً من الصحافة لا يتعب، بل تأخذ بلبه. وقد قرر ريشيليو أن يراقب الاتجاهين، وأن يخضع الصحافة لإرادة السلطة.

يجدر بنا القول أن عدداً كبيراً من الجرائد (البط) صدر في عهد وزارته، في باريس. وكانت تطبع على ورق رديء، وتطوى طياً سيئاً، ولكنها كانت مقروءة رغم رداءة الحبر. وكانت أغلاطها المطبعية كثيرة. وكان إخراجها سيئاً. وكانت رديئة جداً إلى حد أنها كانت تشبه بطة عرجاء.

كان عددها قرابة ثلاثمائة في مطلع القرن السابع عشر. وكانت تصدر في باريس، وتروي، وليون وروان وشامبري. ولم تكن تصدر بانتظام، حتى لا يضطر اصحاب المطابع الى استخدام عمال ثابتين. حتى أصحاب المطابع والبائعون الجوالون كانوا يصدرون صحفاً.

وكان باعتها من «حمّالي السلال»، يقفون أمام قصر البلدية في باريس، أو من الموسيقيين أو عازفي الكمان الذين يبيعونها في المعارض والأسواق. وكانت معظم أخبارها تدور حول: «معجزة، أو فيضان، أو طفل مات أربعاً وعشرين ساعة ثم عاد إلى الحياة.. أو انتحار عاشقين معاً..».

لم يكن البوليس يتدخل في بيع هذه الصحف. وقد يعاد طبع العدد إذا لقي نجاحاً. وقد يتجاوز بيعها حدود فرنسا إلى الدول المجاورة، ذلك أن بعض أنبائها كان ذا طابع غير محلي. كهذا الخبر «لقد قتل وحش ألماني ٩٦٤ شخصاً»، أو «الأبناء الذين قتلوا والدهم الذي شاء ألّا يورثهم، وقد أعدموا جميعاً»، أو «المرأة الأوكسونية التي قتلت زوجها بسبب الغيرة، وانتزعت لحيته، وفقرت عينيه وقطعت أعضاءه التناسلية».

وقد تنشر الجريدة أنباء خرافية: كالثعبان الضخم الذي ظهر عام ١٥٧٨ في سماء باريس. أو المذنب الذي ظهر في سماء روما، أو مطر الدماء الذي سقط على الزيتون في نيس. أو المسلح العملاق الذي ظهر في سماء سيدان يحمل رمحه.

أما الجرائد السياسية فكانت تلصق على الجدران ليستطيع كل الناس قراءتها. وكان

الملك يأمر باتلافها. وقد يحرق «المجرم» صاحب الجريدة. وكان عدد النسخ يتراوح بين خمسمائة وألف.

رينودو يحميه الكاردينال:

كان رد الكاردينال ضد الصحف عنيفاً، فلم يكن يريد صحفاً في البلاد[1]. ولكنه لم يستطع القضاء على الصحف السرية، لأن الشعب كان راغباً في تداولها، رغم القمع السلطوي. لذلك عمد إلى اطلاق صحيفة تمثل سياسته، ويحارب بها الصحف الأخرى. لذلك موّل بعض الهجائين مثل فانكان وبول هيي، ليتصدوا للصحف المناوئة لسلطته. وعين أمين سره على رأس صحيفة «ميركور فرانسي» التي كانت أول صحيفة دورية منتظمة. وعام ١٦٣٩، حظي بصحافي بارع اسمه تيوفراست رينودو فأحله محل أمين سره في رئاسة تحرير «مركور فرانسي». وقد أصدر رينودو صحيفة «لاغازيت» التي غدت صحيفة السلطة الرسمية. وقد حصل من الكاردينال على إذن «بطباعة أو بيع أو تسويق ما شاء من الصحف، وبواسطة من شاء، أوب بأية وسيلة». وقد أصدر نسخة منها في إيطاليا باسم «غازيتا».

صيحة الحرب:

تعالت صيحة الحرب لدى الناشرين. فقد طالب جان مارتان، ولوي فاندوم، وفرنسوا بومري بمنع «لاغازيت». وحصلوا على أمر باغلاقها، أصدره قاضي المحكمة الاقطاعية. ولكن الكاردينال تحرك بسرعة: وأرسل الملك ـ حسب نصيحته ـ تأنيباً شديدة اللهجة إلى القاضي. وطلب منه اعادة النظر في ما اتخذه حول امتيازات رينودو.

وكان أن جدد امتياز رينودو ومنع على كل أخصامه أن يطبعوا أو يبيعوا أية صحيفة، دون إذن الملك المسبق، موقعاً بخاتمه الخاص. وكل من اعترض على رينودو أو كتب ضده، يغرم بستة آلاف ليرة. بينما نال رينودو مكافأة ثمانمائة ليرة. وأصدر مجلس مستشاري الملك بياناً جاء فيه: «نحن نعلم كيف نميز بين ما يجب أن يصمت، وبين ما يجب أن يقدم للجمهور».

وهكذا أصبح بمقدور رينودو أن يبيع صحيفته بحرية وبمباركة الملك. ومع ذلك يعتبره بعض المؤرخين أبا الصحافة الفرنسية.

قانون المكتبات:

لقد صدرت القيود التعسفية على الطباعة والنشر في عهد لويس الرابع عشر. وكان الهدف منها التصدي لطباعة أي مؤلف مخالف للدين. ولم يكن القرن الثامن عشر متسامحاً مع الصحافة. فعام ١٧٢٣ صدر «قانون المكتبات» من ١٢٣ بنداً، مؤكداً على نظام الامتيازات. ومشدداً على عدم نشر أي شيء في فرنسا دون موافقة الملك الخطية.

وكان الحصول على امتياز صحيفة أو نشرة يلاقي صعوبات جمة. وفيما كان بعضهم يحصل على الامتياز بسهولة (لممالأته السلطة) كان الآخرون مضطرين إلى دفع عشرين ألف فرنك كل عام لقاء الامتياز. وقد منح «شوازول» محظيته امتيازاً دون ثمن. ولم يكن القضاء يتساهل في القوانين. وعام ١٧٤٤ منعت كل الصحف المناهضة لفرنسا من التداول في فرنسا خلال حرب خلافة الملك في النمسا.

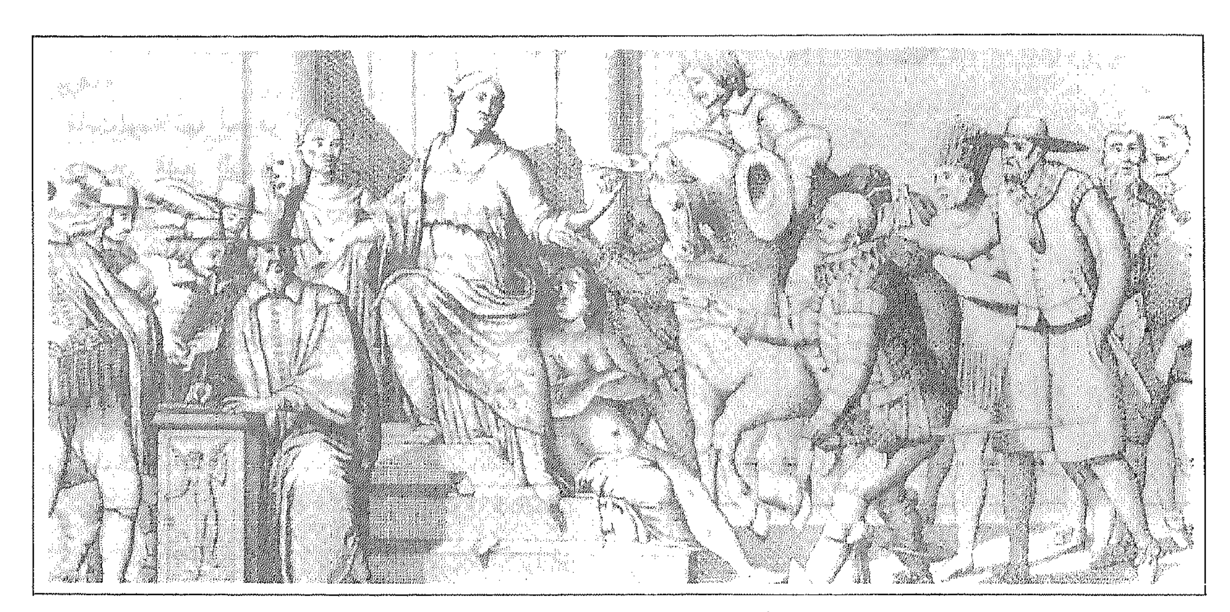
في «دير» السيدة دوبليه:

ــ لا تدع النار تنطفيء. (ذلك ما قالته امرأة حصيفة لأحد الشبان المتهورين). أنت تعلم أن السيد ماليرب يراقب كل شيء.

كانت السيدة عمة شوازول، وكان يخشاها، وكانت صحفية، وقد اشتهرت تلك الفترة، فهي السيدة دوبليه دوبرسان.

وكانت الرقابة شديدة فلا يسمح بالحديث عن الحرب، أو الضرائب، أو محظيات الملك، أو الخطب السياسية. بل لا يسمح بالكلام عن أي شيء. كان العمل الصحفي خطرا في عهد لويس الخامس عشر. ولهذا نشطت الصحافة المكتوبة باليد. فلم يكن صحفيوها بحاجة إلى طباعتها، أو بيعها في مخازن. ولكن، كان عليهم أن يواظبوا لأن تجارة الأخبار كانت مربحة، ذلك أن بورجوازيي باريس والريف كانوا يدفعون ثمنها جيداً.

غير ان الشرطة أوقفت عام ١٧٤٤ صحفياً



محفورة تمثل «لاغازيت» ورينودو صاحبها يتلقى الأخبار من مصادر مختلفة ويدونها

اسمه جان كلود دورامبو، وكان من قبل مستشاراً للملك، وعارفاً ببواطن الأمور. وكان يستخدم في مكتبة بشارع سان جاك أكثر من خمسين ناسخاً وناقلاً. وكان يغذي الجرائد «المكتوبة باليد»، وكان لديه أكثر من ٢٨٠ مشتركاً.

يجب الاحتفاظ دائماً بالنار مشتعلة حين تعمل في هذه المهنة. ولا بد من احراق النسخ في حال المداهمة. قضى أحد الصحفيين مسموماً ـ واسمه نانسيان شيفربيه ـ على احدى طرق هولندا. ومع أن المهنة خطرة، فقد كانت بعض الحسناوات تحاول اجتذاب بعض موظفي قصر الحكومة لتبعنهم الجرائد «المكتوبة باليد».

ولكن، لا بد لكتابة الصحف من مخبرين. ولم يكن ذلك صعباً فالسيدة دوبليه جمعت أفضلهم، وقدمت إليهم خير الضمانات، وفتحت أمامهم أبواب اقتناص الأخبار في البلاط، بل استعانت بوزراء، ومدراء ورجال دين.

وكان شريكها، واسمه جيلبير، يجمع الأخبار يوماً بيوم، من ١٧٦٣ إلى ١٧٦٥. وهو الذي كشف مرض السيدة بومبادور، والولادات في العائلات الكبرى، والثرثرات والشائعات التي تتناقل في البلاط، ونشر أحداث الريف، واعتقال وحش «جيفودان»... ونشر دعوى «لالي ـ تولاندال» التي حكم عليها بالاعدام. وأذاع أخبار قضية «كالا» التي شهرتها إحدى أهاجي فولتير، وخلافات الدوق فيتز ـ جيمس مع برلمان تولوز، حول الضرائب.

وكان «جيّي» مستخدماً لدى السيدة «درجنتال» فاستخدمته السيدة دوبليه، وكلفته بنشر الأخبار في الريف، بينما تتولى نشرها في باريس. وقد سمت مكتبها «الدير» وكان يؤمها صحفيون كثر، أمثال بيرون، لوي بوتي دو باشومون، المطران لو جاندر، وأخو السيدة دوبليه، والمطران دوبرني، كاردينال المستقبل، والكونت درجنتال وكان مستشار فولتير، والمركيز دوميرابو.

شوازول يرسل البوليس ليداهم بيت عمته:

كان «الديريون» يجتمعون كل يوم في بيت السيدة دوبليه. وكل منهم يحمل الأخبار التي اقتنصها من محيطه. وكان المطران لوجاندر يكتب الأخبار في سجله، فيضع الأخبار «الموثوقة» في صفحة و«المشكوك» فيها، في صفحة. وفي نهاية الأسبوع «تكتب» الجريدة، فتدون فيها الأخبار الموثوقة فحسب.

كانت تلك الأخبار التي توزع «تحت المعطف» كبيرة الأثر. وكانت الرقابة تغمض عينها، لأن السيدة دوبليه عمة شوازول. ولكن البوليس كان يراقب ما يجري في «الدير». وذات يوم، لم يعد شوازول يحتمل، فقد تجاوزت عمته الحدود.

لذلك أرسل البوليس مع أوامر مشددة بتفتيش «ديرها».

قالت لزملائها: أحرقوا كل شيء.

وحين قدم إليها المكلف بالتفتيش الأمر الصادر من ابن أخيها، رضخت، وسمحت له بالتفتيش، ففتش «الدير» كله، ولم يجد أية قصاصة.

ما الذي كان يأخذه شوازول على عمته؟ لم تلتزم بأية حملة صحفية، ولم تكن من الحماقة بحيث تهاجم الملك، أو تنشر الاشاعات عن خليلاته.

كانت الحرب بين فرنسا وانكلترا قائمة. وما أزعج شوازول وأغضبه، خبر غير صادق نشرته عمته.

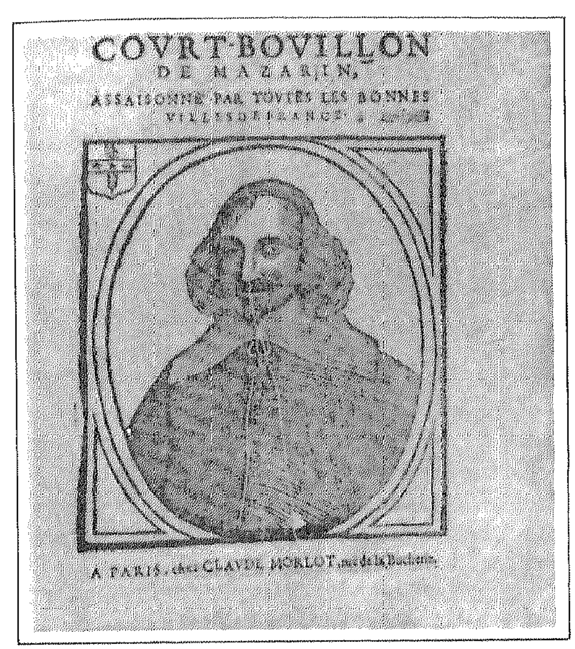
كتب شوازول بخطه إلى ضابط البوليس: «السيدة دوبليه، نشرت أمس خبراً يقول أن العدو سيطر على أسطول السيد دوبليناك. النبأ غير صحيح، ولا علم لي به مطلقاً. مع ذلك، ولما كانت مصائب كثيرة تصدر من «دكان» السيدة دوبليه، فإني لم أر بداً من اطلاع الملك على هذا العمل غير الحاذق، وعلى الأخبار التي تنشرها هذه السيدة، عمتي العزيزة. لذلك أمر جلالة الملك أن أكلفك بأن تقصد بيت السيدة دوبليه، وأن تبلغها أنه إذا صدر من بيتها أي خبر، بعد الآن، فان الملك سيأمر بحبسها في دير، حيث لن تستطيع توزيع أي خبر، ولو كان في خدمة المملكة».

الصحفيون في دير؟ لقد أربك ذلك الضابط. وخاف أن يسيء أو يعتقل عمة شوازول. ولكن السيدة دوبليه طمأنته:

— قم بواجبك أيها السيد. ولكنك ترى أنه لا يمكن أن يتسرب من هنا أي خبر فيه عصيان أو تمرد. وليس لدينا ما نخفيه عن الملك.

وفي الوقت ذاته كان الفرن يحرق كل الأوراق، وكانت السجلات قد أخفيت. فليفتش ضابط البوليس، بعد أن اختفت كل الاثباتات. وخرج الضابط يائساً.

وماتت السيدة دوبليه بعد سنتين أو ثلاث. وفي مثل عمرها، آنذاك، لم يكن المرء ليخشى دخول الدير. لذلك استمرت في عملها اليومي،



الكاردينال مازاران الذي كان ملاك الرحمة بالقياس الى هجائيي عصره

كأنما لم يحدث شيء. ونسي شوازول الحادث. ولكنها وعدت نفسها ألا تذكر بواخر جلالة الملك بسوء. كانت صحافة «اليد» تستطيع السخرية من الملك، أو القضاء، أو الضرائب، أو مطران باريس، ولكن لايسمح لها أن تمس البحرية.

لا يمكن منع الأخبار من التسرب. ولم تستطع الرقابة الملكية أن تحكم على الصحفيين بالصمت. ولا يمكن منع فضول القراء. فاذا لوحقت الصحافة ازدهرت بالطرق السرية. لقد كان صحفيو السيدة دوبليه شرفاء، ولكن ذلك لا ينطبق على كل الصحفيين. كان بعضهم نصابين.

تعليقات ماروند المقلقة:

كانت بعض صحف «اليد» دورية، أو حدثية، (أي تصدر حسب الحدث وأهميته). وكانت متخصصة بالفضائح. وكانت تنشر شائعات خبيثة، وأخباراً كاذبة، ولكنها تخلق ضجات كبرى حول حياة البلاط، وكانت تنشر كذلك أشعاراً ضد الوزراء أو رجال البلاط. وإذا لم تمس الملك أو الملكة فقد كانت تشهر بالمحيطين بهما. ولم يكن صحفيو هذه الصحف الانتقادية، مثاليين، أو من تلاميذ روسو وفولتير. لقد كان بعضهم أنذالاً.

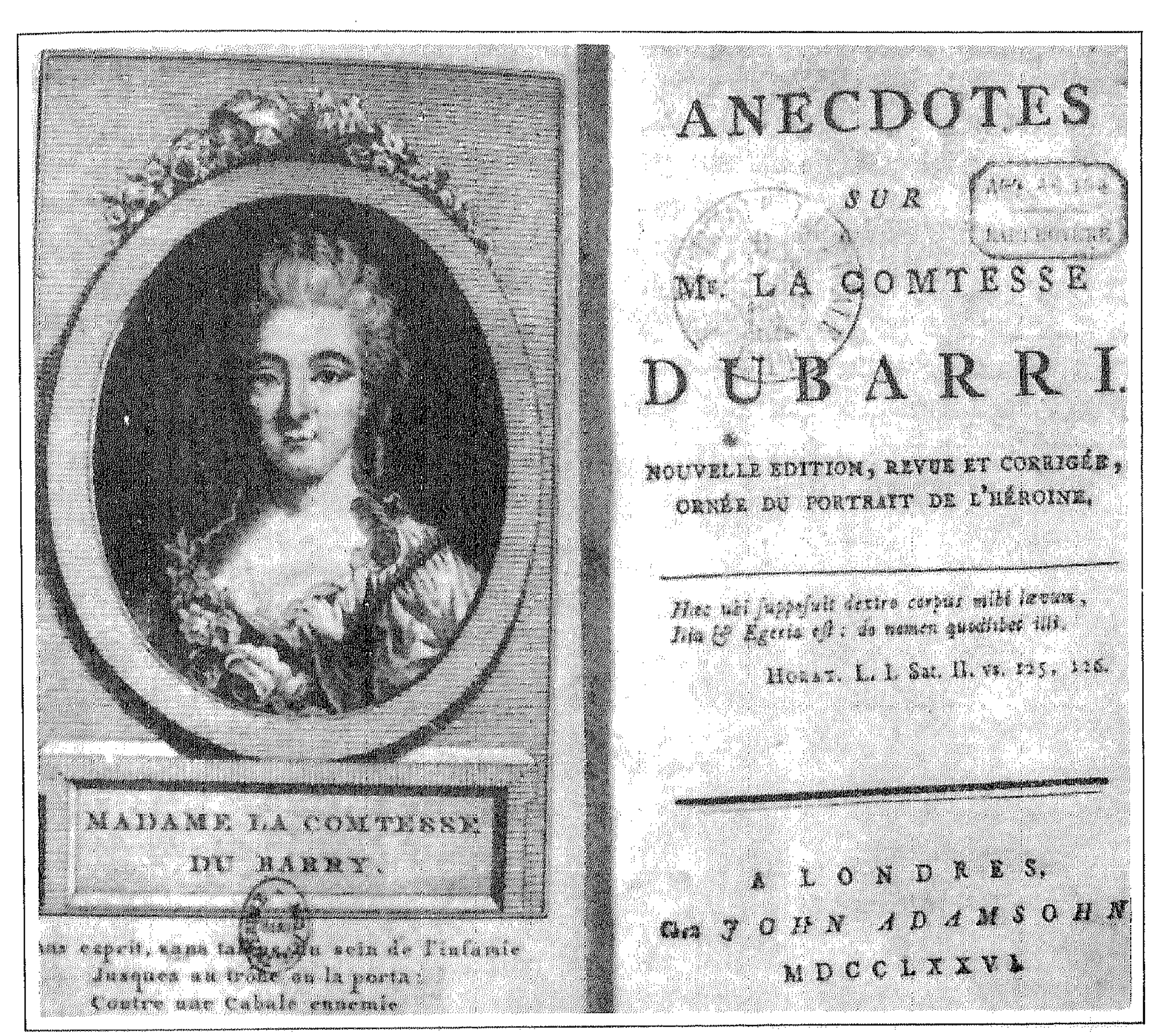
وقـد عرف أحـدهم شهرة كبيـرة، واضطر للجوء إلى انكلترا. وقد تداول النـاس كتاباته في باريس وفي فرساي، وكان من عائلة محترمة، وسمى نفسـه مـاروند. أمـا اسمـه الحقيقي فهو شارل تيفولي، وهو ابن وكيل الملك في آرني لودوك، الذي أرسل ابنه الى ديجـون ليدرس الحقـوق، وليصبـح كـاتب عـدل. ولكن الابن الشاب شارل كان يحب الخمر والنساء. التحق بالجيش، ثم فر الى باريس ليحيا حياة فوضوية. وليحظى بليال سعيدة، كان يعمد الى الغش في لعب الورق، أو الاحتيال على الآخرين.

كان ذلك صدمة لأبيه. فطلب من الملك أن يصدر أمراً باعتقاله دون تبيان الأسباب. فقد كان الملك يستطيع سجن أي كان، وساعة شاء، دون تبرير.

اعتقل شارل وسجن في «فور ديفيك»، ثم في «أرمانتير». وقضى سنتين في السجن. وحين خرج من السجن، ثار على كل شيء. لقد حبس دون محاكمة، وكـانت عائلتـه من سجنه. ركب الى لندن حيث طلب اللجوء السياسي، بحجة أنـه



السيدة دوبليه، الصحفية المرهوبة، مع أخيها المطران لوجاندر


MADAME LA COMTESSE
DU BARRY.

...ns esprit, sans talens, du sein de l'infamie
Jusques au trône on la porta:
Contre une Cabale ennemie

ANECDOTES
SUR
M.e LA COMTESSE
DUBARRI.

NOUVELLE EDITION, REVUE ET CORRIGÉE,
ORNÉE DU PORTRAIT DE L'HÉROINE.

Hæc ubi supposuit dextro corpus mihi lævum,
Ilia & Egeria est: do nomen quodlibet illi.
HORAT. L. I. Sat. II. vs. 125, 126.

A LONDRES,
Chez JOHN ADAMSOHN.
MDCCLXXVI.

صورة مدام دوباري، وعناوين مقال لاذع ضدها

مضطهد. كان على وشك الافلاس. واكتشف انه قادر على الكتابة، فكتب هجائيات لاذعة، كانت تطبع في انكلترا وتوزع سراً في فرنسا. وقد لاقت إحدى مجموعاته رواجاً كبيراً، عام ١٧٧١. وأبدى النبلاء والبورجوازيون نهماً شديداً لقراءة نقده اللاذع، الذي أشاع الاشاعات حول رجال البلاط، وحول الفئة القليلة منهم التي تحظى بالمنافع الكثيرة بسبب وجودها في فرساي. وأرهق هذه الفئة بمجموعة مقالات عنها. ولما كان يعرف الكثير عن حياة بعض نساء البلاط السرية، فقد أضفى عليها تفصيلات جعلت منها قصصاً مسلية، رغم ما فيها من تحقير ونذالة. وكان يذكر الأسماء بصراحة، مما جعل قصصه قاسية جداً.

النصاب:

كان يعرف كيف يمزج الصحيح والخاطىء مزجاً دقيقاً فنياً. وكان يتصيد أحياناً الكاذب، ليصل إلى الحقيقي. وتكاثر قراؤه في انكلترا، خاصة في أوساط المثقفين، وفي ألمانيا وفرنسا. وقد استفاد موراند من أن معظم الأوروبيين المثقفين كانوا يجيدون الفرنسية.

كان يقرأ كما يقرأ فولتير: لنبرته اللاذعة، وسخريته الحادة. ولكن ما كان يناله من الناشرين لم يكن يكفي لحياته العابثة. لذلك فكر بالربح بطريقة أخرى. كان يكتب لضحاياه في كتاباته المقبلة أنه سيغض الطرف عنهم إن دفعوا له «الفدية». هكذا تحولت الصحافة لديه

وسيلة نصب واحتيال.

أخطأ موراند خطأه الكبير، إذ اختار فولتير ضحيته. فكتب اليه يطلب منه مالاً وإلا حطمه بقلمه، ونال منه ككاتب. واكتفى فولتير بنشر الكتاب.

وحاول ابتزاز الدوق برانكا. وهدده بالتشنيع عليه. فسافر الدوق إلى انكلترا مصحوباً ببعض رجاله. ولقي موراند وأجبره على توقيع وثيقة بأنه قبض منه «الفدية» وأنه يلتزم بنشر خبر في الصحف البريطانية يعلن فيها انه غشاش مزيف.

وحين حقر هذا التحقير، أراد أن يعيد اعتباره «بضربة» كبيرة. فقرر مهاجمة الملك. وأنبأ قصر فرساي أنه يملك إثباتات كافية لكتابة كتاب من ثلاثة أجزاء عن حياة مدام دوباري المنحطة. بل أشار إلى عنوان الكتاب: مذكرات امرأة مومس. ووعد أن يحرق مستنداته إذا دفع له خمسمائة لوي (اسم عملة) مقدماً وأربعة آلاف ليرة شهرياً. وطلب أن يدفع لعائلته الراتب بعد موته.

اغتاظ الملك لويس الخامس عشر كثيراً. وأرسل إلى الحكومة البريطانية يطالب، سراً، بنفي موراند، أو اضطر الى اتخاذ موقف. فكتبت الحكومة البريطانية تقول انها لا مانع لديها من عملية «اختطاف» سريعة.

أرسل الملك عملاءه لاختطاف موراند. ولكن موراند علم بالنبأ فاتخذ احتياطاته. وتصرف العملاء بحماقة، إذ حاولوا اختطافه في الشارع العام، فراح موراند يصرخ ويطلب النجدة.

تدخل الانكليز وساعدوه، فشرح لهم أن عملاء الملك الفرنسي يحاولون اختطافه لأنه معارض. فهرب عملاء الملك.

طبع ثلاثة آلاف نسخة من «مذكرات امرأة مومس». وخشيت فرساي أن توزع في كل اوروبا، فجن جنونها، وأرسل الملك بومارشي منشيء الفيغارو ليشتري النسخ مهما كلف الثمن.

التقى بومارشي موراند، ودفع له عشرين ألف ليرة، عدا راتب شهري له ولعائلته بعد موته، ومقداره أربعة آلاف ليرة. وأخذ بومارشي ٩٠٠ ليرة كمصاريف.

حرية مؤقتة:

عاد موراند إلى بلده آرني لودوك في فرنسا غنياً، وعين قاضياً. وكتب اليه بومارشي يقول: «لقد فعلت حسناً يا سيدي، وأثبت لي انك عدت نقي الضمير، يحدوك شعور الفرنسي الشريف، بعد أن أنبك ضميرك على الانحراف طويلاً».

كان الفلاسفة تلك الفترة ينادون بحرية الصحافة. وقد احتج ديدرو وروسو وفولتير على الرقابة. وكتب جوكور يقول: «كل بلاد لا تسمح بحرية التعبير والتفكير، محكوم عليها بالبلاهة والبربرية».

أواخر «العهد القديم» الخامس من تموز ١٧٨٨، صدر قرار عن المجلس الأعلى ينظم الصحافة، ويمنحها بعض التسهيلات. وصدرت عدة صحف دورية، حتى قبل بدء الثورة. وكتب ماليرب نفسه مقالاً حول حرية الصحافة.

وصدر في اعلان حقوق الانسان القرار التالي: «التعبير عن الأفكار والآراء من حقوق الانسان الثمينة. لكل مواطن الحق في الكلام والكتابة، والنشر بحرية، شرط ألا يتمادى في استخدام حريته فيخالف القوانين المرعية». ■

الهوامش

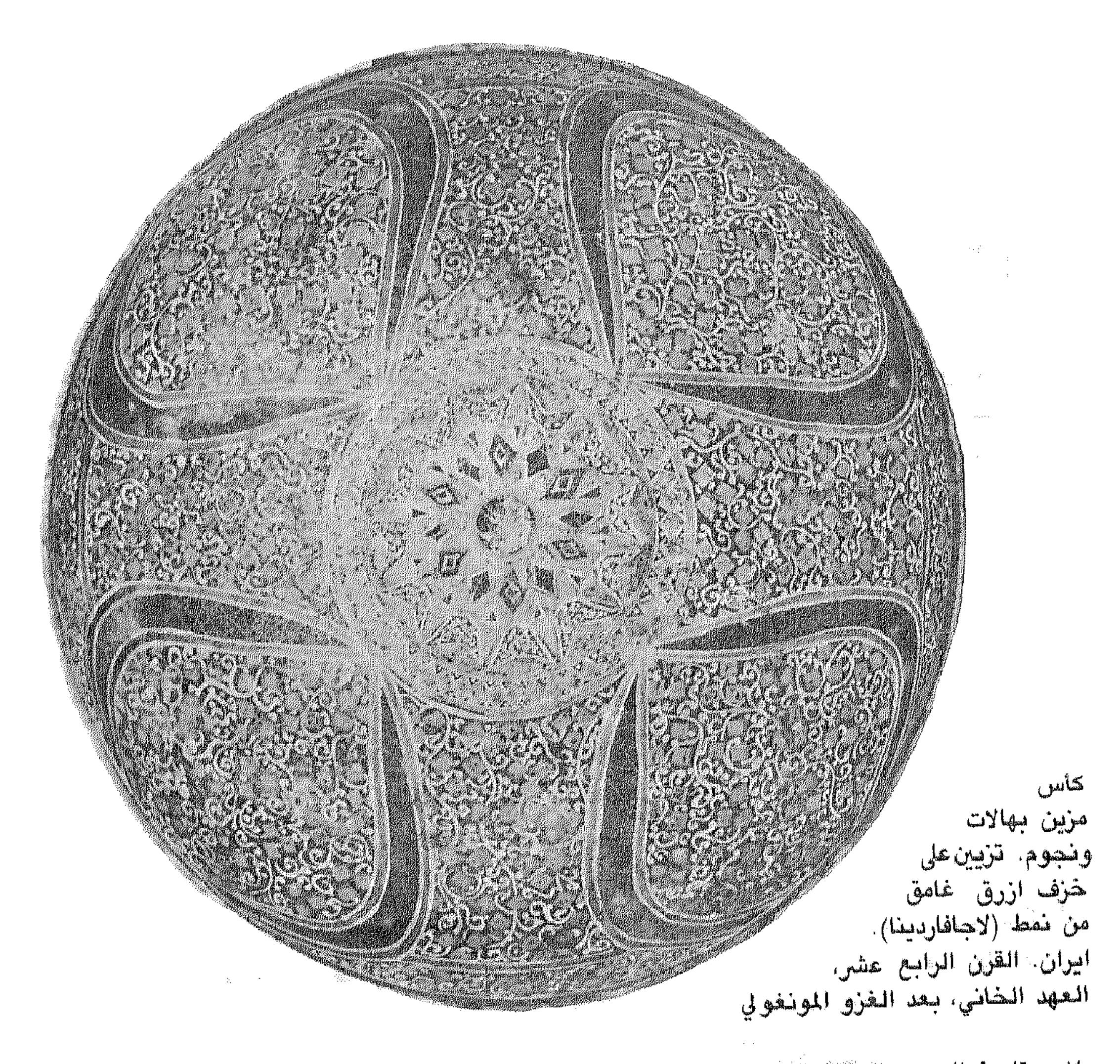
(١) كلمة (Canard) بالفرنسية تعني البط. وقد أطلقت على نوع خاص من الصحف فصار عامة الناس يستعملونها بمعنى الجريدة.

(١) بعض هذه الصحف كان انتقادياً.

الأمير والبيطار

□ استعرض هشام بن عبد الملك جنده ذات يوم فتقدم رجل حمصي بفرس كلما قدم يتأخر فقال له هشام: ما هذا؟ قال: ياسيدي انه فرس مقدام، ولكنه شبهك ببيطار كان يعالجه ففر! فضحك هشام وأمر له بجائزة.





كأس
مزين بهالات
ونجوم. تزيين على
خزف ازرق غامق
من نمط (لاجافاردينا).
ايران. القرن الرابع عشر،
العهد الخاني، بعد الغزو المونغولي

تقول السيدتان: شاريتا، ومولييراك[1]، اللتان نقدم دراستهما هنا: «لا سبيل الى المقارنة بين السيراميك الاسلامي، والسيراميك الأوروبي. فالاسلامي يتميز بالتنوع، وحداثة تقنية، صانعي الأواني المسلمين، وغنى الخزف، والتزيين، والفن الكامل الذي استوحاه العصر الأوروبي الوسيط، وعصر النهضة».

اقيم في باريس مؤخراً معرضان يلقيان ضوءاً شاملاً على مختلف مظاهر الفن الاسلامي: «فنون الاسلام من الأصول حتى ١٧٠٠» و«الاسلام في المجموعات العالمية»، ولكنها لا تقدم إلا عدداً محدوداً من الخزفيات، مع العلم ان السيراميك فن من الفنون الأساسية لهذه الحضارة الاسلامية، وهو جدير بدراسة استثنائية مخصصة له وحده.

يحتوي متحف اللوفر على مجموعة ذات شهرة عالمية، ولكن القليلين استطاعوا مشاهدتها بسبب عدم وجود مكان لعرضها، وهذا مؤسف حقاً.

من جهة ثانية، استطاع هذا القسم من المتحف ان يغني موجوداته بالشراء، او الهدايا، او الوصية. وثمة قطع عديدة، ذات قيمة خاصة، عرضت لأول مرة.

لقد حقق معرض متحف الفنون والتجارب امرين: الأول السماح للجمهور برؤية قسم كبير من المجموعة، واعطاء صورة عامة لمظاهر الفن الاسلامي، منظوراً اليه من زاوية تقنية، لا فنية واسلوبية. وكان لاسهام مختبر الأبحاث في متاحف فرنسا الفضل في التركيز على دراسة التقنيات الأساسية التي استخدمها صانعو الأواني.

اصل القيشاني:

لا بد من القول، بادىء ذي بدء، ان الخزافين المسلمين استلهموا القيشاني (الصيني) الذي شاع كثيراً ـــ السيراميك المصنوع من عجينة فخارية مغطاة بخزف رصاصي، اذهبت شفافيته بحامض القصدير ـــ واذا كانت بعض القرميدات المغطاة بالمينا، في سوس، قد احتوت على رصاص وقصدير، فقد كان ذلك في اوائل العصر العباسي فحسب، القرن التاسع في ما بين النهرين، ذلك ان الخزافين ارادوا تقليد الخزف الصيني فبحثوا عن طريقة لصنع خزف غير شفاف على السيراميك.

جرة من السيراميك، حفر ونقش. ما بين النهرين، القرن العاشر

وبعد تجارب عديدة حصلوا على نتائج مرضية، وذلك باضافة حامض القصدير الى خزف مرصص. بلغت هذه الطريقة مصر ثم اسبانيا وايطاليا، خلال قرون. ثمة نقطة ثانية جديرة بالانتباه: كانت مصر، وما بين النهرين، تعرفان ـــ في العصور القديمة ـــ استعمال المعجونة الصناعية، او المعجونة الصوانية (لأنها تحتوي على ٨٠ الى ٩٥ ٪ من (SIO_2)، بينما لا تحتوي المعجونة الفخارية اكثر من ٥٠ بالمائة).

هذه الطريقة، استخدمت في مصر في العهد الفاطمي، بعد محاولات وتجارب طويلة، واستخدمت كذلك في ايران في المرحلة السلجوقية، وسوريا العهد الأيوبي، والمرحلتين الصفوية والعثمانية. وقد تحقق، بنوع خاص من الشي في ايران مثلاً، خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، نوع من الخزف ذو ديمومة طويلة، زجاجي الى حد ما، شفاف، على قدر من السمك، وتلك خصائص يتميز بها عادة البورسلان الطري. هنا، كذلك، السيراميك الاسلامي متقدم عدة قرون على الانتاج المماثل الغربي، ولكن القيشاني يمكن تتبع مراحل انتشار اسسه، فيما توقف الانتاج الايراني،

(١) ماغي شاريا، وجان مولييراك: المكلفتان بالقسم الاسلامي من متحف اللوفر.

نتيجة التغيرات الكبيرة الناجمة عن الغزو المغولي، لذلك يمكن القول ان المعجونة الطرية الأوروبية لا تدين لتأثير الصناع المسلمين.

التقنيات التزيينية الأساسية:

دراسة التقنيات التزيينية الأساسية، هامة جداً لأنها تشير الى تنوع في التقنية، في استخدام المعجونة وطبيعتها، او الطلاء الخزفي، ووجود الدهان الفخاري، او عدمه، والمجموعة التزيينية، والأشكال المستعملة.

كان اللمعان المعدني والتزيين ذو الألوان الشبقة اهم التقنيات النادرة، واكثرها ذوقاً، فقد تميز بحرق ثان بعيداً عن اللهب المباشر.

التزيين اللامع:

لا نعرف اصوله على وجه التحديد. ويبدو انه طبق بادىء ذي بدء، في مصر وسوريا، على الزجاج. واقدم ما عرف منه كأس لحاكم مصر عام ٧٧٣، وجدت في حفريات الفسطاط. ثم استخدم على السيراميك، في ما بين النهرين. كما



شقف عليه رسم شخصي. لون واحد براق، على خزف ابيض قاتم.
مصر الفاطمية، XII°-XI°

ان الحفريات في سامراء، وسوس، والفسطاط، قدمت لنا عدة نماذج من القرن التاسع. فاللمعان يمنح القطع ذات الخزف الأصفر انعكاساً براقاً. ثم جرب الخزافون تعدد الألوان، مع تدرج لوني في الألوان البنية والصفراء والحمراء والخضراء، على ارضيات



دلو عليه قينات وفينيق. الري XIII°-XII°، من الميناء □ صحن عليه رسوم اشخاص من الميناء الري XIII°-XII°

بيضاء او رمادية. ثم استقروا على لمعان وحيد اللون، لسهولة تحقيقه دون ريب. اما طريقة الحصول عليه فسهلة: تخفيض اوكسيد النحاس، والفضة، في الفرن، او خليط من الاثنين، موضوع على سطح قطعة مخزفة ومشوية مرة من قبل: والشي الثاني يكون في افران خاصة، بعيداً عن اللهب المباشر، في حرارة اقل من ٦٥٠ درجة. يلين الخزف قليلاً، وتمتزج به القشرة المعدنية التي نحصل عليها من تخفيض الأوكسيد، لتشكل قشرة لامعة لا تبلى. كان لهذا النموذج موجة انتشار كبيرة وقد بلغ اسبانيا، كالقيشاني، مع السيراميك العربية ـ الاسبانية، وايطاليا.

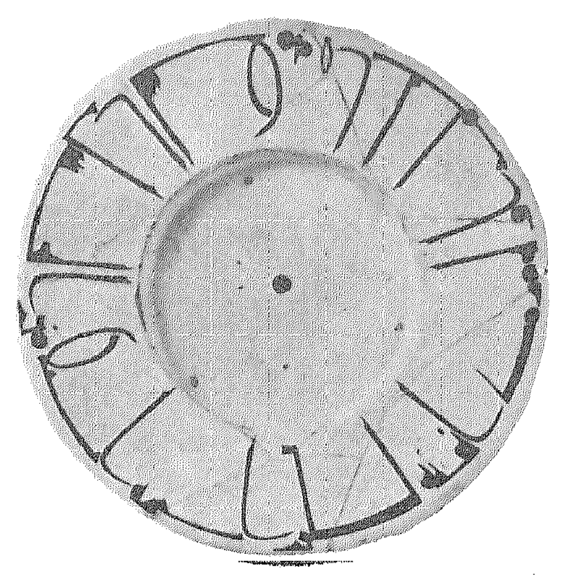
التزيين السباعي اللون:

هو تزيين ايراني ويدعى «المينا»، ويطبع بواسطة اوكسيدات معدنية، على خزف شوي وثبت، بشيّه مرة او مرتين بدرجة حرارة تقل عن ٦٠٠ درجة، بعيداً عن اللهب المباشر، ضمن غلاف فخاري، في جو اوكسيدي. هذا هو مبدأ النار الخفيفة المكتشف في اوروبا، القرن الثامن عشر، ولكنه عرف في ايران منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر. اما الألوان المستقلة اكثر من غيرها فهي الأزرق، والأسود، والأحمر القرميدي، والبنفسجي، والأبيض، والذهبي الموضوع بالورقة. هذه التقنية الدقيقة المكلفة، ظلت تستخدم زمناً بعد الغزو المونغولي (استخدام الوان محدودة) ثم تركت في نهاية القرن الرابع عشر.

هذه الأمثلة (القيشاني، المعجونة الطرية، والنار الخفيفة، والبريق المعدني) تدل على تقدم التقنية الاسلامية واهميتها لفهم السيراميك الأوروبي.

تاريخ الخزف الاسلامي الطويل:

منذ القرون الأولى للاسلام، نشأ فن جديد. قد يكون ورث حضارات سابقة (الساسانية في ايران، اليونانية والرومانية والبيزنطية في سوريا، والقبطية في مصر)، استقى منها الخزافون المسلمون، ولكن هذا الارث التقني الايقوني قد تجدد، وطور، فأتى بعمل فني مختلف وفريد.



صحن مزين بالخط رمادي على ابيض، فوقه طبقة خزف شفاف لا لون له. ايران، نيسابور، العهد الساماني X°-XI°

العصر العباسي: من القرن الثامن الى العاشر:

نجهل، مع الأسف، ماكان السيراميك في العهد الأموي. والعكس صحيح بالقياس الى العصر العباسي (القرون الثامن والتاسع والعاشر) فثمة صحاف فخارية او مطلية بالخزف، بلون واحد، ورسوم نخيل، او عقود، او اشرطة مرصعة، تذكر بمظهر المجوهرات، ومصنوعة بدقة. كذلك السيراميك اللامع، الذي استخدمت فيه الوان مختلفة، والذي ترك فيما بعد. تجد دائماً قاع الصحن أو الكأس مبطناً برسوم تجريدية او تمثيلية، وقد تلون الأطراف، بضربات ريشة، او ميداليات ضمنها سوق مرقطة، هي اغلب الظن (ماركة المحترف). اما التزيين فبلون الكوبالت الأزرق، او الأخضر او البني، على خزف عاتم ابيض او رمادي، يدهشنا بأسلوبه الذي يستخدم اشكالاً هندسية تصحبها احياناً جملة تمنيات، او توقيع.

اما السيراميك المطلي بخزف، المزين بالحفر تحت طلاء اخضر، او اصفر او بني، فيذكر بالانتاج الصيني من عصر «التانغ» دون ان ننسب الأسبقية لأحدهما.

من جهة ثانية، وجدت في المراكز المدنية



وعاء كروي عليه كتابة، التزيين مرسوم بالاسود، تحت خزف شفاف توركواز. سوريا XIII°-XII°. العهد الأيوبي

السامانية في الشمال الشرقي من ايران (سمرقند، نيسابور) مجموعة سيراميك استخدمت فيها تقنية خاصة: فالزينة مرسومة على ارضية فخارية لونها كريم، بفخار بني او قرميدي، على ان افضل مافيه الكتابة العربية. فثمة امثال، وحكم وجمل تعبر وسط الصحن، او تملأ حوافيه، كهذه «العلم، طعمه في البدء مر، ولكنه في النهاية عسل». احياناً تتحول الحروف الى اشكال من الزهور او الطيور، تصعب معها قراءتها.

مهما يكن، فان هذه المرحلة تتميز بناحيتين: الكتابة، والأرابسك، الطبيعي او التجريدي، فلا بدء له ولا نهاية.

مصر الفاطمية بين القرنين العاشر والثاني عشر:

تركت لنا مصر الفاطمية مابين القرنين العاشر والثاني عشر، عدة قطع مزينة، بحفر تحت طلاء خزفي شفاف ملون. وقد انتجت خاصة قطع سيراميك رائعة براقة، على طلاء عاتم ابيض او ملون بلون خفيف. ويذكر نمطها الايقوني بسيراميك سامراء، ولكنه يذكر كذلك بالأنسجة القبطية، ذات الرسوم الحيوانية، او الوجوه ذات العيون الواسعة كثيراً المدورة.

ويترك وسط الصحن لرسوم بارزة وفريدة نجد مثل هذه الخزفيات في المتحف العربي في القاهرة. وثمة صحاف متقنة، عليها رسوم اغصان نباتية مورقة.

العصر الأيوبي:

تطور هذا النموذج من السيراميك في العصر الأيوبي (١١٧١ ــ ١٢٥٠)، وتنوع انتاجه في سوريا، وخاصة الرقة. ففي القطع ذات التزيين اللامع، يشرك اللمعان بالأزرق، ويوضع فوق خزف شفاف. وقد لونت عدة قطع سيراميك بالأزرق والأسود تحت خزف شفاف لا لون له، او لونت بالأسود تحت خزف لامع لازوردي. وقد اضيف احياناً الأحمر الى الأزرق والأسود خاصة شقف الخزف التي وجدت في حفريات الرصافة.

في قعر الصحون والكؤوس المزينة بتشكيلات من الأحرف والأغصان، تميل طبقة الخزف الى ان تبدو بقعة عريضة يغدو معها التزيين قاتماً.

اما مصطلح «السيراميك المتقاطع» فطبق على آخر انواع السيراميك، المثلومة التزيين، فوق



صفحة من «كتاب الترياق» تمثل مسرح البلاط. الموصل، اواسط القرن الثالث عشر



«وعاء الارنب»، ايران. القرن الثاني عشر، العهد السلجوقي

دهان فخاري، وتحت خزف اخضر، واصفر، وبني، وهو مألوف في عدة مناطق حول المتوسط (سوريا، بيزنطة وقبرص).

ايران السلجوقية: عصر السيراميك الاسلامي الذهبي:

ثمة علاقة ثابتة بين اعمال الشرق الأدنى العربي واعمال ايران السلجوقية. فقد بلغ السيراميك الاسلامي العصر الذهبي، وقد تجسد في تنوع الأشكال، ونوع المعجونة، وابتكار زينات سطحية.

ولا بد من ذكر الانتاج الريفي وتمييزه عن نتاج المدن. ففي الريف البعيد، في المنطقة الجبلية من زنجان، ملجأ اتباع زارادشت، كان الخزافون يستخدمون تزييناً خاصاً، مستمداً من التقاليد قبل الاسلام، فالميناء على الدهان الفخاري، مغطى بخزف ملون، وقد نجد صوراً لحيوانات خرافية بحجوم غريبة. ففي اطار اغكاند، تتميز الاطارات بمواضيع مرسومة على طبقة فخارية بيضاء، ملونة بلون الأرض الحمراء. تنتسب الى هذه المدرسة الكأس الموقعة بتوقيع (ابي طالب) حيث رسم عليها ارنب ذواذنين طويلتين ممتدتين بين اغصان ملتفة.

اما في ظل المدن الأقرب الى السلطة، فالسيراميك اكثر ذوقاً، ومختلف تماماً. فالقطع بيضاء جداً وقاسية جداً، ومحفورة الأطراف او مثقفة، وتذكر بعهد السونغ الصيني. وفي هذه الحال، نقل الخزافون مظهر البورسلان (تقترب اشكالها من اشكال اواني المعدن) وقد حققوا احياناً انواعاً من السيراميك الناعم. ويمكن تفسير اثر التقنيات والأسلوب، اذ وجدت شقف صينية في سامراء، ومرافىء الخليج العربي. ولدينا نصوص عربية تؤكد العلاقات الاقتصادية منذ العهد العباسي بين الشرقين الأوسط والأقصى. مما يؤكد ان الخزفيات، رغم قابليتها للكسر، سافرت كثيراً منذ اقدم العصور.

وظهر السيراميك اللامع، والسيراميك المشوي على نار خفيفة، على بعض القطع الصغيرة المعاصرة، ويسودها طابع ايقوني، مصدره على الأغلب الموصل، وترجع الى بدايات القرن الثالث عشر. وتقع على نماذج من ذلك، في تزيينات كتاب «الأغاني»، وكتاب «الترياق»، الموجودين في مكتبة باريس الوطنية، ومكتبة فيينا.

في هذه الفترة تظهر رسوم الراقصات والخدم والموسيقيين محيطين بالملك على عرشه، وهو يقبض على الكأس، او يقوم بالصيد. وتحيط بالوجوه هالات مدورة، اما الحواجب فرفيعة وتصل الى قاعدة الأنف، فوق عيون طويلة مكحلة كحلة ناعمة.

لا يمكن حتى اليوم تحديد انتساب هذه الأنواع، ولكن تذكر مناطق كاشان، والري، والصفا، وجرجان. فثمة قطع كثيرة لم تمس (وضعت في جرار ابان الغزو المنغولي)، وجدت في جرجان، ولكن لا اثبات على مكان صنعها. اما الكتابات حول سلالات الخزف، الموجودة على اوان استقدمت من كاشان، فلا تتيح لنا معرفة مصدرها. مع ذلك فان ملامحها وبعض الخطوط والتوقيعات، توحي ان مصدرها واحد.

المرحلة المونغولية الخانية:

يبدو ان الغزو المونغولي لم يوقف نشاط معامل السيراميك الايرانية نهائياً. بعض المراكز



شقفة عليها رسم. تزيين بالمينا على خزف قاتم ابيض. ايران XIII-XII. العصر السلجوقي

مثل الري وجرجان ونيسابور اختفت تماماً، ولكن مراكز اخرى ككاشان استمر نشاطها. على ان التقنيات المستخدمة في الحقبة الخانية (١٢٥٦ ـ ١٣٣٦) لم تكن متنوعة. فقد استخدمت اساليب وتزيينات مستوحاة من الصين وآسيا الوسطى، وتغلب فيها صور التنين والفينيق، وطائر اسطوري طويل الذنب، وزهرة اللوتس، برعماً او متفتحة جداً.

اما اللمعان فمزيج بالأزرق. وقد بقي مستخدماً حتى نهاية القرن الرابع عشر. واستعين بالنار الخفيفة، في قطع تدعى مجموعتها لاجافاردينا. اما مواضيع الرسم فلونها اسود او احمر او ابيض، وتحتها اجزاء من اوراق ذهبية على دهان فخاري توركواز او ازرق غامق. واستخدمت انماط الشرق الأقصى او الجدائل والأرابسك.

مع ذلك كان الانتاج الكبير في هذه المرحلة، رغم شكله الغليظ، هو الانتاج المنسوب الى سلطان آباد. اما التزيين فتحت دهان فخاري



كاس مزين بمناظر طبيعية. لون واحد لامع. على خزف شفاف ازرق. ايران، القرن السابع عشر، السلالة الصفوية، التاثير الصيني من مرحلة مينغ واضح

لا لون له، على ارضية رمادية وبيج، مع طبقات من الدهان الأبيض المخطط بخطوط سوداء ميالة قليلاً الى الرمادي. اما المواضيع المرسومة فهي الأوراق المدورة ذات الشعيرات، كتلك التي نجدها على المنسوجات الحديثة.

مصر المماليك:

استخدمت مصر المماليك (١٢٥٠ ــ ١٥١٧) التقنيات ذاتها، مع ميل الى الكتابة في التزيين. ونلقى اهمية هذه الخطوط على قطع صفراء وبنية ذات اطراف مسننة، على دهان فخاري. وكانت تصنع احياناً حسب الطلبات الشخصية، لأنها تزين احياناً بألقاب او شعارات اعضاء العائلات العسكرية في السلطة.

من جهة ثانية، كشفت حفريات الفسطاط عن شقف ذات تزيين متعدد اللون، وشقف تقلد انماط البورسلان الأبيض والأزرق والأزرق الفاتح. كما وجدت قطع بورسلان مستوردة من الصين، تنتسب الى آخر نموذجين انتجا هناك.

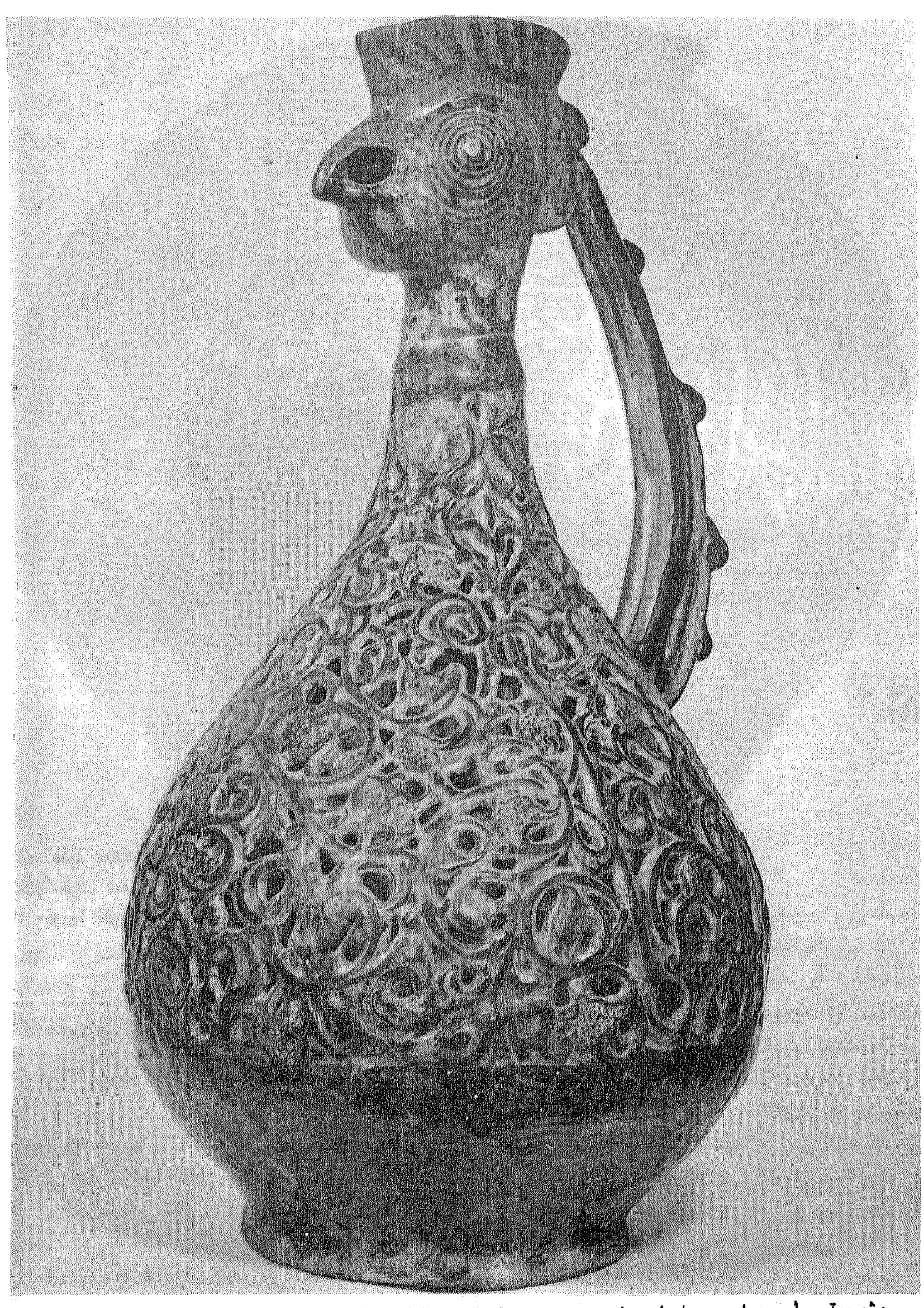
السلالة الشيعية الصفوية في ايران:

في مطلع القرن السادس عشر، تسلم السلطة في ايران الصفوية (١٥٠١ ــ ١٧٣٦) التي انعشت الصناعات الفنية. ففي مجال السيراميك نجد الأنماط الصينية في كل الشرق الأدنى. فثمة مجموعة كبيرة زرقاء او بيضاء، مستوحاة من عهد مينغ.

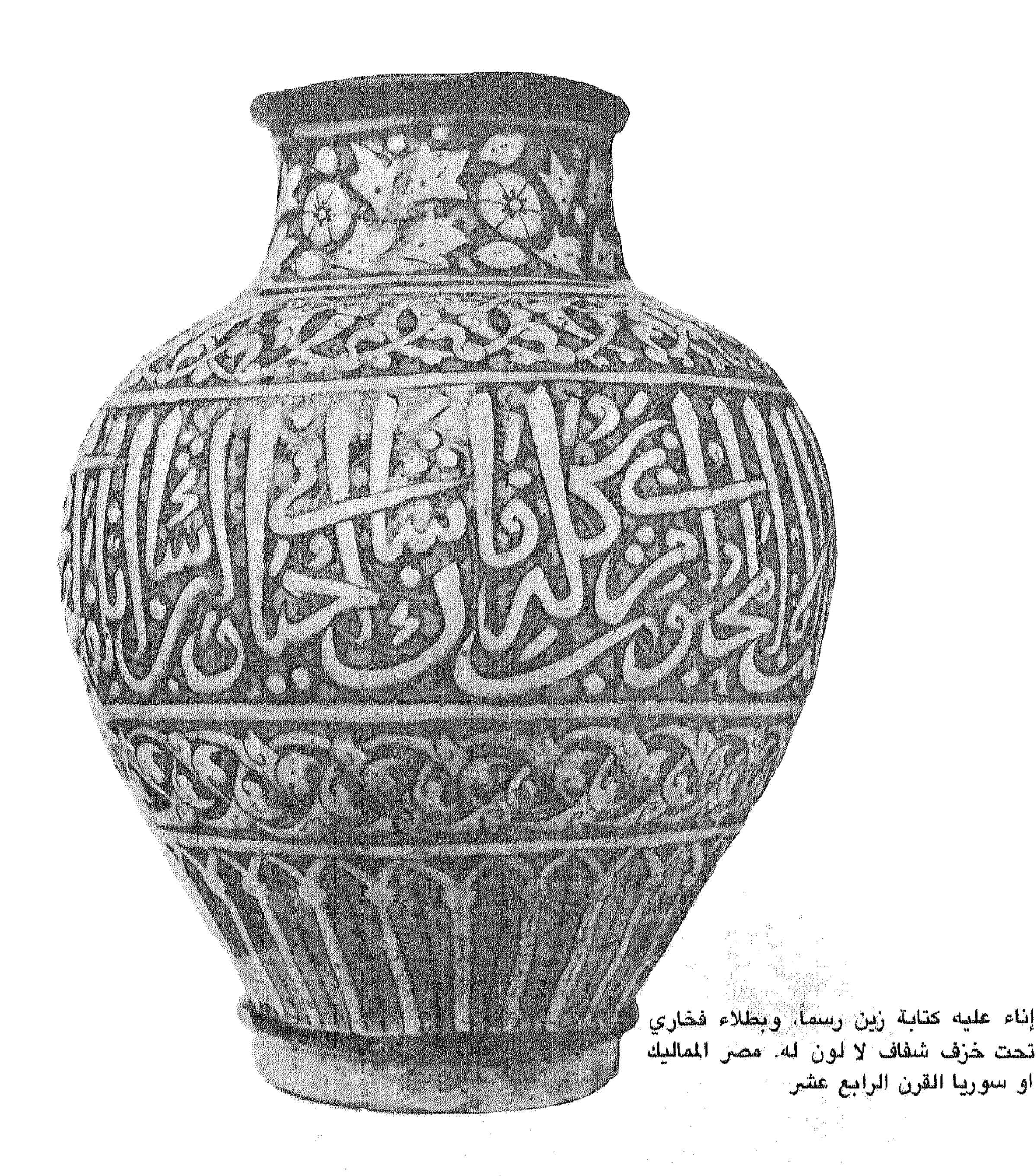


زجاجة مزينة بمناظر طبيعيه. وهي مرسومه تحت خزف شفاف غير ملون. ايران نهاية القرن السابع عشر، السلالة الصفوية

ولكن كان خزافو هذا العهد يستخدمون تقنيات معروفة، بعضها افلس فنياً. لذلك اعطيت القطع لمعاناً جديداً، في خدمة اشكال مختلفة، وفي تزيين شديد الأناقة. فالبورسلان الطري عاد الى الظهور، خاصة في الكؤوس الصغيرة البيضاء، الشفافة تقريباً. كما وجدت قطع مزينة بمواضيع دقيقة، يفصل بينها قشرة من دهان فخاري ملون. واحياناً يرتسم التزيين فوق خزف شفاف، او يظهر البريق بعد قرنين من الانحسار. وقد ظهرت الزجاجات الطويلة العنق المستديرة البطن، المزينة بالحيوانات او الزهور او الغصون المورقة.



مشربية برأس ديك. سيراميك، مزين برسوم وحفر تحت الخزف. ايران، كاشان، مطلع القرن الثالث عشر، العصر السلجوقي



إناء عليه كتابة زين رسماً، وبطلاء فخاري تحت خزف شفاف لا لون له. مصر المماليك او سوريا القرن الرابع عشر

الأناضول العثمانية، انتاج مبدع:

في المرحلة ذاتها، ابدعت الأناضول (١٣٠١ ــ ١٩٢٤) التي ظَلت حتى ١٥٠٠ تنتج سيراميك شبيهاً بالايراني، ابدعت نماذج نادرة. نجهل حتى الآن مكان صنعها، ولكن الحفريات في ايزنك تدل ان تطور الأساليب حدث في منطقة واحدة.

من نماذج ايزنيك النموذج المدعو (ابراهيم كوتاهية) (نهاية القرن الخامس عشر ومطالع السادس عشر)، وهو ازرق وابيض. والتزيين مرسوم احياناً بالأزرق على الأبيض، او يستعين بمواضيع صينية (اللوتس، الغيوم المستديرة) او المحلية (نخلة، نصف نخلة رفيعة، ازهار متنوعة). وقد حل تعدد الألوان في المرحلة التالية، واستخدمت تشكيلات من النباتات والتوليب، والورد، والزنبق، والقرنفل، واللوتس، مع غصون دقيقة مزهرة، في الوان توركواز او اخضر زيزفوني، او موف وبنفسجي.

وجاء الأحمر ليكمل القائمة. وخلقت سماكة «الوعاء الأرمني» انتفاخاً بسيطاً تحت الخزف الشفاف اللامع. ويزين ارضية الصحاف

صحن زينة نباتية. تركيا، ايزنك، منتصف السادس عشر. اناضول العثمانية

اضاميم زهور متحدة مع الأمواج والصخور، في مزيج من الواقعية والأسلوبية. وتندر التزيينات بالمراكب او حراشف السمك. هذه الأنماط مرغوبة في اوروبا، وقد اقتناها الفرنسيون في عصر النهضة على نحو مجموعات كاملة.

هذه خلاصة، ولكنها لا تفي بالتنوع الكبير، والتقنيات المختلفة، وروعة الابداع، ولا بد لذلك من دراسة اشمل. ■



● لا أمل للبشر في الحياة الا إذا أخرجوا الملح من مياه البحر!

(دكتور هـ. هاينمان)

● إنني أحب كل الذين يكافحون من أجل حريتهم.. أقصد أولئك الأميركان الذين يهاجرن ليعيشوا في أوروبا!

(نانسي ميتفورد)

تاريخ الطوابع

ميشال اسطفان

الطوابع ذات الموضوعات الخاصة

لقد أصبحت هواية جمع الطوابع متفرِّعة كثيراً، خصوصاً بين الهواة في البلدان الأجنبية، فبات كثيرون لا يجمعون طوابع بلد معين، بل موضوعاً معيناً أو أكثر من الموضوعات التي يفضلون عن غيرها، مثل طوابع الطيور أو الأزهار أو اللوحات المشهورة إلى غير ذلك، لدرجة جعلت المؤسسات الطوابعية تصدر كتالوجات ومجلدات خاصة بها.

ولما تسرَّبت هذه النزوة إلى الهواة العرب أيضاً، رأينا أن نكتب عنها بصورة دورية، مبوَّبة ومصورة، لنسهل لهم عناء التفتيش عنها في الكتالوجات العالمية، التي يندر وجودها لدى معظم الهواة لارتفاع أثمانها.

أبو ظبي

١ ــ من ضمن مجموعة عادية، صدرت في ٣٠ آذار/ مارس ١٩٦٤، هناك ثلاثة طوابع تحمل صورة الغزال العربي من فئة ٤٠ و٥٠ و٧٥ نيابيزه. صورة ١ و٢ و٣.

٢ ــ مجموعة الصقور، صدرت في ٣٠ آذار/ مارس ١٩٦٥، من فئة ٢٠ و٤٠ نيابيزه و٢ روبية. صورة ٤ و٥ و٦.

٣ ــ من ضمن مجموعة عادية بالعملة الجديدة، صدرت سنة ١٩٦٧، هناك طابعان يحملان صورة الغزال والصقر من فئة ١٢٥ فلس و٢٠٠ فلس. صورة ٧ و ٨.

٤ ــ من ضمن مجموعة عادية، صدرت في أول كانون الثاني/ يناير ١٩٧٠، هناك طابعان يحملان صورة الحصان والغزال من فئة ١٢٥ و١٥٠ فلس. صورة ٩ و١٠.

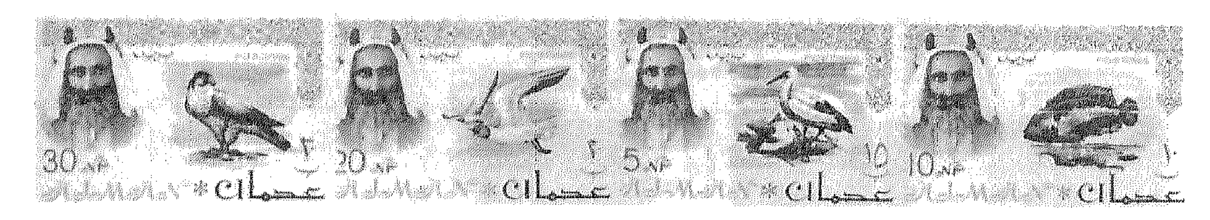


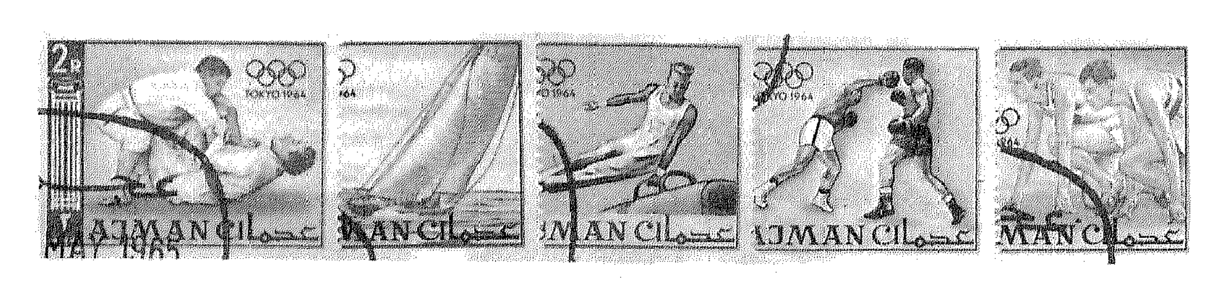
عجمان

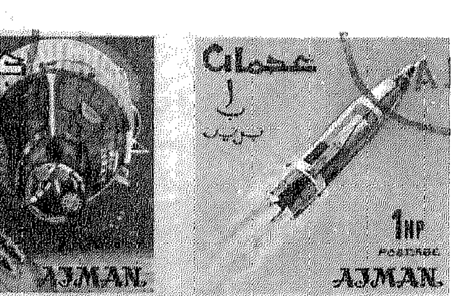
١ ــ مجموعة الطيور والحيوانات والأسماك، صــدرت سنة ١٩٦٤، مـؤلفة من ١٨ طابعـاً. تسعة طوابع بالحجم العادي، صورة ١ إلى ٩، من فئة ١ إلى ٣٠ نيابيزه. وستة طوابع بحجم أكبـر، الصــورة مكــررة، لفئـات ٤٠ و٥٠ و٧٥ نيابيزه و١ و$1\frac{1}{2}$ و٢ روبية. وثلاثة طوابع بحجم أكبـر من الطوابع السـابقة، الصـورة مكررة، لفئات ٣ و٥ و١٠ روبية. وقد تكررت الصور على تسعة طوابع لكـلٍ من مجموعـة للبريد الجوي وأخرى للبريد الرسمي، صدرتا سنة ١٩٦٥.

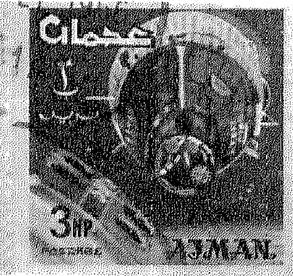
٢ ــ مجموعة اولمبيـاد طوكيو، صـدرت في ١٢ كانون الثاني / ينايـر ١٩٦٥، مؤلفـة من ١٠ طوابع تحمل صورة خمس ألعاب مختلفة، صـورة ١٠ إلى ١٤، والفئـات مـن ٥ إلى ٥٠ نيـابيزه وروبيـة واحـدة إلى ٥ روبيـات.

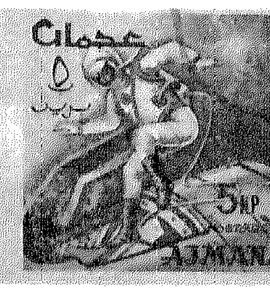


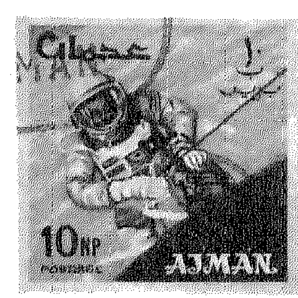




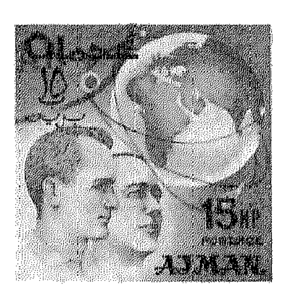








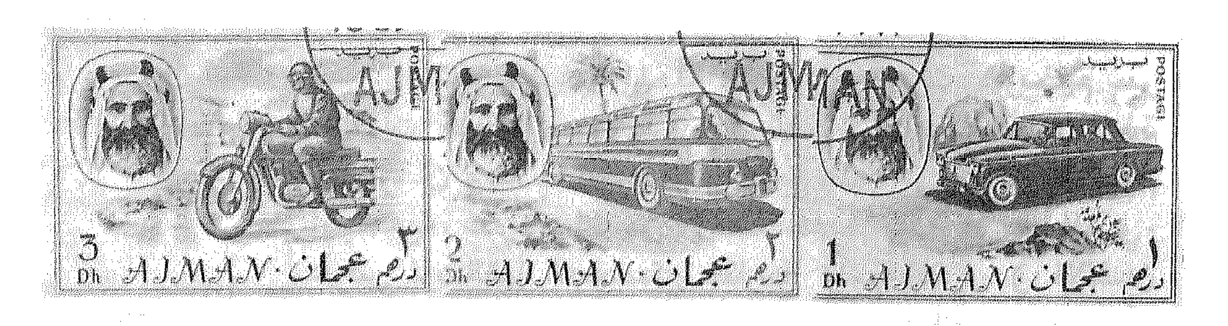


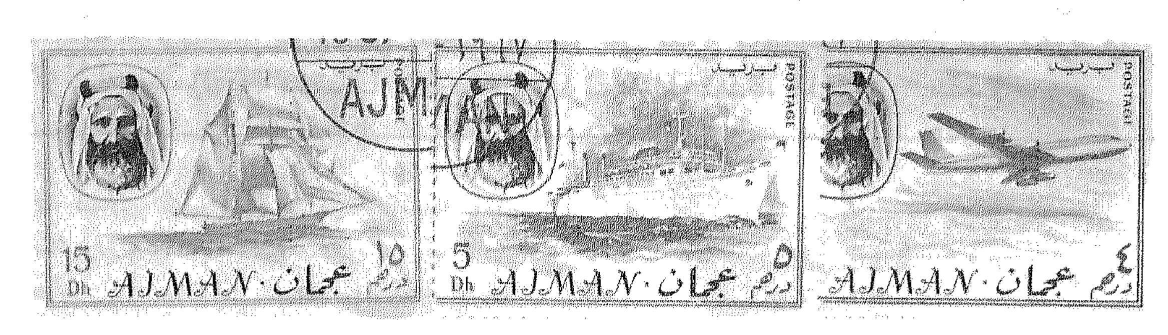


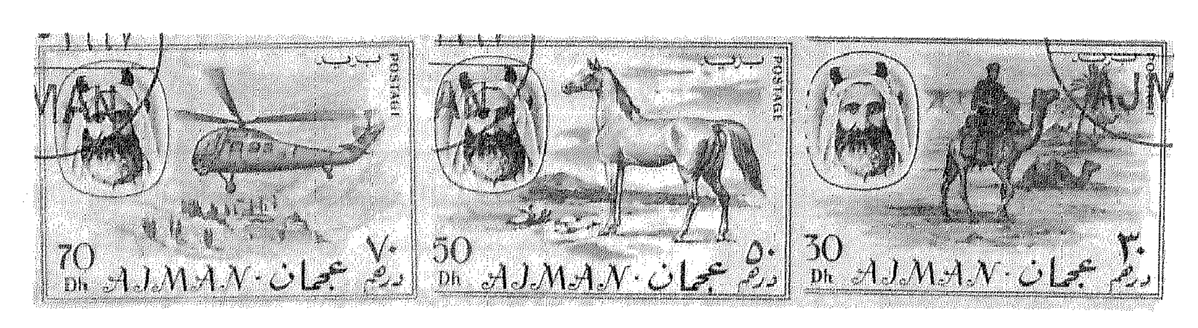
وبطاقة تحمل صورة أربعة طوابع من فئة ١ ½ و ٢ و ٣ و ٥ روبيات.

٣ ــ مجموعة الفضاء، صدرت سنة ١٩٦٦ مؤلفة من ١٠ طوابع تحمل صورة ستة مناظر رواد الفضاء، صورة ١٥ إلى ٢٠، والفئات من ١ إلى ٥٠ نيابيزه و١ و٣ و٥ روبيات. وبطاقة تحمل صورة الفئات ١٠ و١٥ نيابيزه بقيمة ١ و ٣ روبيات.

٤ ــ مجموعة النقل المختلف، صدرت في ٢٠ نيسان/ ابريل ١٩٦٧، مؤلفة من ١٤ طابعاً، تحمل صورة ٢١ إلى ٢٩، والفئات من ١ إلى ٧٠ درهم للبريد العادي و١ إلى ١٠ ريال للبريد الجوي.







المنتسبون إلى نادي الطوابع

٩ ــ علي أحمد حسن أبلان:
ص.ب. ٧٠٧٩ إب الجمهورية العربية اليمنية. العمر ١٧ عاماً ــ طالب ثانوي ــ هاوي مبتدىء ومتخصص ــ يجمع طوابع جديدة ومختومة وغير مخرّمة وذات موضوعات خاصة من البلدان العربية والافريقية والأوروبية وللقارتين الأميركيتين واوستراليا وكذلك طوابع شرقية.

وتسلمنا أيضاً من مراسلنا السيد **عبد الغني شنن** من حلب سورية، نماذج من اصدارات الجمهورية العربية اليمنية الحديثة وهي:

١ ــ بتاريخ ١٩٨٢/١/٢٥ ــ صدرت مجموعة تدكارية بمناسبة الذكرة التاسعةعشرة لثورة السادس والعشرين من سبتمبر الخالدة، من الفئات ٧٥ و١٢٥ و٣٢٥ و٤٠٠ فلس، مع بطاقة من فئة ٣٢٥ فلس.

٢ ــ بتاريخ ١٩٨٢/٢/١ ــ صدرت مجموعة تذاكارية بمناسبة الذكرى الألفية للحسن أحمد الهمداني، من الفئات ١٢٥ و٣٢٥ فلس، مع بطاقة من فئة ٣٧٥ فلس.

٣ ــ بتاريخ ١٩٨٢/٣/١ ــ صدرت مجموعة تذكارية بمناسبة اليوم العالمي للأغذية من الفئات ٢٠ و٥٠ و٦٠ و٧٥ و١٠٠ و١٢٥ فلس.



استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الآنسة «فاطمة هدايات عصافيري» عرض لرسالتها للماجستير «تاريخ مدينة ماري في الألفين الثالث والثاني ق.م». ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتاج باحثينا مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد الجميع.

تاريخ مدينة ماري

في الألفين الثالث والثاني ق.م.

- **رسالة ماجستير ــ قسم التاريخ، كلية الآداب ــ الجامعة اللبنانية الفرع الأول ١٦/١٢/١٩٨١.**
- **منحتها اللجنة المؤلفة من المشرف د. محمود أمهز ود. منتهى صاغية تقدير «امتياز».**



لم يقتصر البحث في «تاريخ مدينة ماري في الألفين الثالث والثاني ق.م. على الناحية السياسية فقط، بل شمل جوانب أخرى مختلفة من اقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية وفنية. لأن دراسة التاريخ، كما ترى الباحثة، لا تقتصر في مفهومها الحديث على سرد الأحداث التاريخية فحسب، بل يجب أن تتناول مختلف النواحي الحضارية، وإلا لكان التاريخ عبارة عن أحداث ميتة. وانطلاقاً من مفهوم الباحثة لدراسة التاريخ، بذلت جهداً كبيراً لكي توضح من خلال بحثها ــ الذي جاء في (٣٢٥) صفحة ــ مكانة مدينة ماري، وما كان لها من أهمية تاريخية وأثرية وفنية في التاريخ القديم معتمدة على الوثائق الأصلية والمصادر والمراجع التي عادت اليها، فجاءت أهمية رسالتها انها الأولى من نوعها نظراً لما احتوته من دراسة تفصيلية شاملة لكل ما يتعلق بهذه المدينة، فتضمنت مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة مدعمة بالخرائط والوثائق وعدد كبير من الصور والرسوم واللوحات.

استهلت الباحثة، قبل البدء بالحديث عن ماري، بدراسة مختصرة أرادت منها اعطاء خلفية تاريخية لهذه المدينة، فتناولت الاطار الجغرافي العام والملامح الحضارية وتطورها في العصور السابقة للتاريخ وظهور المدن الكبرى في وادي الرافدين وخاتمة.

تضمنت المقدمة عرضاً موجزاً لتاريخ مدينة ماري إذ وجدت أن الفائدة منه مزدوجة في تحقيق هدفها. فقد قصدت أول الأمر تعريف القارىء بمدينة لعبت دوراً هاماً في التاريخ القديم

بعد أن كانت مجهولة، والأمر الثاني هو ابراز معالم هذه المدينة الأثرية محاولة ايجاز ذلك بقدر الامكان توفيراً للجهد يبذله القارىء في قراءة تفاصيل لا طائل منها، كما تناولت المقدمة شرحاً للصعوبات التي اعترضتها، أبرزها قلة المصادر والمراجع.

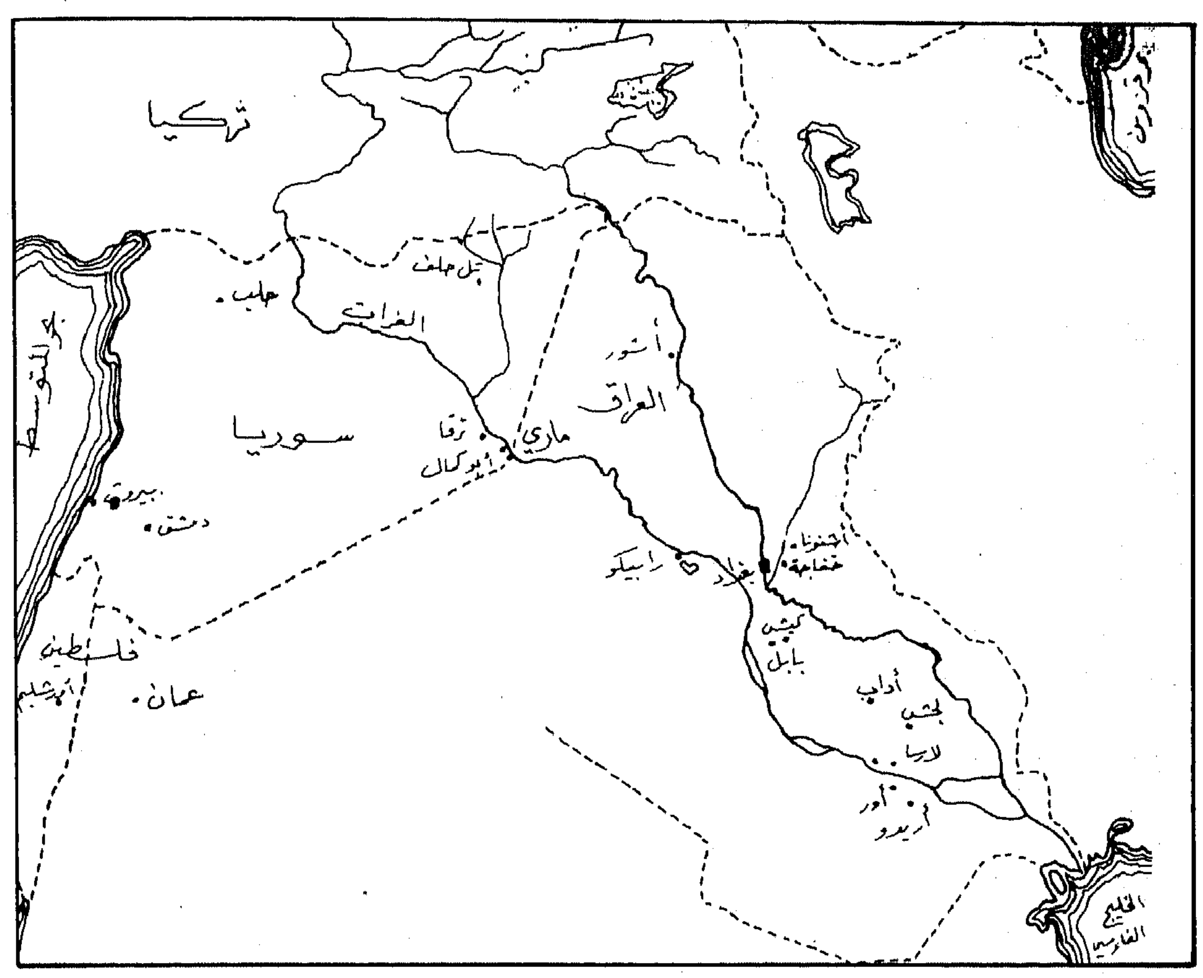
استهلت الباحثة الفصل الأول بالتعريف بمدينة ماري كذكر موقعها الجغرافي، وأصل تسميتها ومختلف آراء الباحثين والأثريين حول هذه التسمية وشرح الأسباب التي دعت اليها. ثم مدينة ماري قبل حفريات تل الحريري التي أظهرت هذه المدينة الى الوجود وذلك بفضل جهود البعثة الفرنسية المتواصلة برئاسة الأثري أندره سارو، واكتشاف المدينة ومراحل التنقيب الأثري ونتائجه، وأنهت الفصل الأول بالحديث عن أهمية مدينة ماري الاستراتيجية والاقتصادية معللة ذلك بشرح الأسباب والنتائج.

أما الفصل الثاني فتناول التاريخ السياسي لمدينة ماري في الألفين الثالث والثاني ق. م. وتم تقسيمه الى العهود التي مرت بها خلال هذه الفترة الزمنية بدأ بالعهد السومري القديم حيث تناولت الباحثة بالحديث عن السلالة التي حكمت مدينة ماري والتي تألفت من ستة ملوك حكموا ١٣٦ سنة مع التعريف عنهم وذكر ألقابهم، ثم علاقات مدينة ماري مع المدن السومرية، منها السياسية، والتجارية، وعلاقات صداقة اتضحت بتبادل الهدايا بين ملوك ذلك العهد أمثال ميسانيبادا حاكم مدينة أور وغانسود حاكم مدينة ماري، فاستوضحت من ذلك العلاقة التاريخية بين ملوك ذلك العهد ومكانة ماري في الحقل السياسي في الألف الثالث ق.م. ثم تحدثت عن الحروب الطاحنة التي اشترك فيها ملوك مدينة ماري والتي عرضتها للدمار.

وبدأت العهد الأكادي بالحديث عن الملك سرجون وتوسعاته وسيطرته على مدينة ماري، مستشهدة بذلك بصور بعض الآثار الأكادية المنقوشة والتي تحمل أسماء ملوك أو أبناء ملوك هذا العهد. وفي العهد السومري الحديث استرجعت ماري سيادتها على وسط الفرات وذلك بفضل أحد حكامها المخلصين الذي استطاع أن يؤسس سلالة خاصة به.



«يوزور ــ عشتار» ملك ماري وقد ظهرت براعة النحات



مواقع بلاد ما بين النهرين وموضع ماري (تل الحريري) علي الفرات

وتناولت القسم الرابع من الفصل الثاني بالحديث عن الاحتلال الأشوري لماري وأسبابه وذكرت أهم الملوك أمثال شمش ــ اداد وأبنائهم وما كان لهم من دور فعال في تاريخ ماري خلال هذه الفترة.

وتناولت القسم الخامس من الفصل الثاني بالحديث عن رسائل ماري المتبادلة بين الملوك في فترة الحكم الأشوري مع شرح واف لهذه الرسائل مبينة ما كان لها من أهمية نظراً لما تضمنته من أمور ادارية وسياسية حيث كانت بمثابة مرجع وافر ومتنوع إذ تناولت كل جوانب حياة مملكة ماري في فترة الاحتلال الأشوري، هذا مع أدلة ثابتة بالترجمة الحرفية لهذه الرسائل.

وتحدثت أيضاً عن المراسلات السياسية والادارية التي تميز بها عهد زمري ليم آخر ملوك ماري، وفائدة هذه الرسائل موضحة مدى اهتمامه بكل ما يتعلق بادارة مملكته، وهذا ما يدلنا على قوة شخصيته وحنكته السياسية ومقدرته وحزمه مستنتجة أن هذا ما زاد في قوة مدينة ماري وازدهارها في عهده ومما لفت اليها أنظار الغزاة الفاتحين.

وتناولت القسم السادس في الفصل الثاني بالحديث عن العهد البابلي فوضحت أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط مدينة ماري في يد البابليين وشرحت بشكل تفصيلي الوسائل التي اتبعها حمورابي لبلوغ هدفه.

أما القسم السابع من الفصل الثاني فتناول نهاية مدينة ماري. وتتضح أهمية هذا القسم بما ضمنته الباحثة من آراء لبعض الأثريين حول خراب مدينة ماري أمثال الأثري جان (M. Ch. Jean) والأثري بارو (A. Parrot) وتوصلت الى القول، بعد أن ألقت نظرة شاملة حول التاريخ السياسي لماري، أن بيئتها الطبيعية كانت مصدر

قوتها وضعفها من حيث أن قوتها هذه كانت خاضعة لتأثيرات خارجية التي كانت تسعى للسيطرة على طرق المواصلات الطبيعية للمدينة بحكم موقعها الاستراتيجي. فموقعها هذا حدَّد سير تاريخها الذي ابتدأ بتطلع الطامحين للسيطرة عليها.

أما الفصل الثالث فقد خصص لدراسة المعالم الحضارية لماري ويتضمن سبعة أقسام: فتناولت الباحثة القسم الأول من هذا الفصل بالحديث عن الناحية الاقتصادية وما تضمنته من بحث في الزراعة والثروة الحيوانية والصناعة والمعادن والتجارة والعقود العقارية والمقايضة والأوزان والمكاييل ووسائل النقل والتنظيم الاداري في الأعمال والمكوس الجمركية ولم تنس ذكر الأسباب الرئيسية للدور الكبير الذي كانت تقوم به ماري في التبادل التجاري، وأسباب التحالفات التي كانت تقوم بها مع المدن المجاورة لها ونتائجها.

وتناولت القسم الثاني في هذا الفصل الناحية الدينية وما تضمنته من التعريف بالآلهة والطقوس والمعتقدات الدينية والمدافن المختلفة باختلاف العهود التي مرت بها ماري.

وبحثت في القسم الثالث في الناحية الاجتماعية، فتحدثت عن المجتمع والتجمعات البشرية والطبقات الاجتماعية والمرأة والأسرة والأنظمة القانونية واهتمام السلطة بتنظيم الأسرة والتبني والزواج والارث.

ويتضمن القسم الرابع الادارة المركزية وما تشمل من الأعمال الخارجية والقائمين بها والأعمال الداخلية والأنظمة القضائية.

ويأتي البحث في الناحية الفكرية في القسم الخامس من الفصل الثالث وتشمل الآداب واللغة.

ونتعرف في القسم السادس من الفصل الثالث على آثار مدينة ماري فتحدثت الباحثة أولاً وبشكل تفصيلي عن قصور ما قبل سرجون مبينة أن الهندسة البنائية لهذه القصور لا تزال في حالة سليمة من آلاف السنين والتي تشهد على تتالي ثلاث حقب (عهد زمري ــ ليم، عهد قصر ما قبل سرجون العلوي وعهد قصر ما قبل



ختم اسطواني باسم موظف كبير في ماري يدعى «أنا ــ سن ــ تاكلاكو». انظر الشبه بينهما.

سرجون السفلي)، وتوسعت بالحديث عن قصر زمري ــ ليم الذي اكتشف عام ١٩٣٠م والذي اعتبره علماء الآثار من أروع الاكتشافات التي اتحفنا بها تل الحريري. وتحدثت عن دمار هذا القصر وأسبابه ورأي علماء الآثار حول هذا الموضوع أمثال ثورو ــ دانجان وشارل جان، وهيلدا غارد لوي والأثري أندره بارو.

ثم تحدثت عن المعابد بشكل عام وتناولت بالحديث مفصلاً عن أهمها وهي كثيرة مثل معبد نينهورساغ ومعبد الأسود. مبينة أن ضخامة الهندسة المعمارية لهذه المعابد والآثار التي عثر عليها في داخلها دلت على أنها كانت على جانب كبير من الثراء الذي يمكن استنتاجه أيضاً في الفن المتقن الذي اتبع في نحت التماثيل ومن الأشياء الثمينة.

ثم تحدثت عن الوثائق التي يزيد عددها على العشرين ألف لوحة فذكرت أهميتها التاريخية والاجتماعية والجغرافية والادارية والاقتصادية والدبلوماسية، وقد اعتبرها المنقبون من أروع الاكتشافات التي تمت في ماري إذ ألقت ضوءاً ساطعاً على ماض كان يعتبر مجهولا. فأمام هذا المستند الوثائقي الذي كشفته الدراسات في ماري لا يسع القارىء إلا أن يبدي اعجابه بأولئك القوم الذين حفظوا تراثهم منذ أربعة آلاف سنة في وثائق ولم يهملوا حتى ذكر الأحداث البسيطة منها والتي ذكرتها الباحثة مفصلاً في الرسالة.

وتحدثت في القسم السابع من الفصل الثالث عن الفنون في ماري بشكل عام وكيف أنها تعرضت للسلب مع ذكر الأسباب، وتحدثت في هذا المجال أيضاً عن فن العمارة التي استهدفت المساكن والمعابد والقصور وما تميزت به هذه

ختم اسطواني باسم موظف كبير في ماري يدعى «موكانيشوم»



الانشاءات خلال الألفين الثالث والثاني ق.م. وفن النحت الذي ابتدعته مشاغل ماري وميزته وجوهره وأنواعه وأسبابه. ثم الاختلاف الفني في صنع التداثيل وأسبابه بشكل عام وتناولت بالحديث مفصلاً عن أهم هذه التماثيل وهي كثيرة العدد مع توضيح خاصتهم التقليدية وتمايز في النوعية ووضوح اتصالهم بالعهود السابقة وكل ذلك بدقة وتفصيل.

وتكلمت عن فن النقش عامة وبصورة خاصة عن الأختام على اختلاف أنواعها وعهودها ومكان العثور عليها بالختم الاسطواني المسمى ختم آنو مثلاً والذي عثر عليه سنة ١٩٥٣م. وما دلت عليه هذه الأختام من علاقات وثيقة بمعتقدات، ومنها تجارية بين ماري والبلدان المجاورة. مما يثبت للقارىء أنها كانت مركزاً فنياً مدهشاً منذ الألف الثالث ق.م. وبداية الألف الثاني ق.م. مع ذكر الأسباب وأنها كانت في عهد زمري ــ ليم مركزاً لمدرسة فنية كاملة وديناميكية بشكل مدهش.

وخصصت الباحثة الجزء الأخير في القسم السابع بالحديث عن الجدرانيات التي بدأ فيها فن النحت جلياً ومكان وجودها فشرحت الأسباب التي دعت الى الابقاء هذه الرسومات السريعة العطب والتي توالت عليها نوائب الزمان آلاف السنين، وشرح تفصيلي لبعض اللوحات التي تحمل رسوماً جدارية تصور مشاهد دلت على نماذج عقليتين حيث، على الرغم من اختلاف الأساليب، وجدت القساوة السومرية والنزعة الطبيعية جنباً إلى جنب في انسجام كلي. ثم تحدثت بالتفصيل عن التشابه بين جدرانيات كل من قصري ألالاخ وماري ووجه الاختلاف مدعمة ذلك بأقوال علماء الآثار أمثال وولي، وأسبقية ماري على كريت في الرسوم الجدارية مستندة في إثبات ذلك على التواريخ التي اعتمدها علماء الآثار.

وتتلخص الخاتمة بالقول إن مدينة ماري التي ماتت على يد رجال الألف الثاني ق.م. تحيا الآن من جديد بفضل جهود رجال القرن العشرين بعد الميلاد فأعيد الى الوجود عالم كان مدفوناً منذ آلاف السنين. وترى الباحثة أن السبب في دمارها كان موقعها الاستراتيجي الذي جعل منها عائقاً مزعجاً بالنسبة لمؤسسي الامبراطوريات المبنية على توحيد البلاد، وكان هذا سبباً هاماً إن لم يكن رئيسياً في غاراتهم المتتالية عليها حيث كانوا يطمحون بضمها إلى امبراطوريتهم. ■

الأسر التنوخية الحاكمة في اللاذقية وجبلة


الأقوال كثيرة في التنوخيين، وهي على شيء من التباعد.

قال السمعاني في (الأنساب) تنوخ اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديماً بالبحرين وتحالفوا على التوازر والتناصر، وأقاموا هناك فسموا تنوخاً والتنوخ الاقامة.

وقد أخذ ابن خلكان هذا الكلام وردده في (وفيات الأعيان) وأضاف: أن هذه القبيلة أحدى القبائل الثلاث التي هي نصارى العرب وهم بهراء، تنوخ، وتغلب.

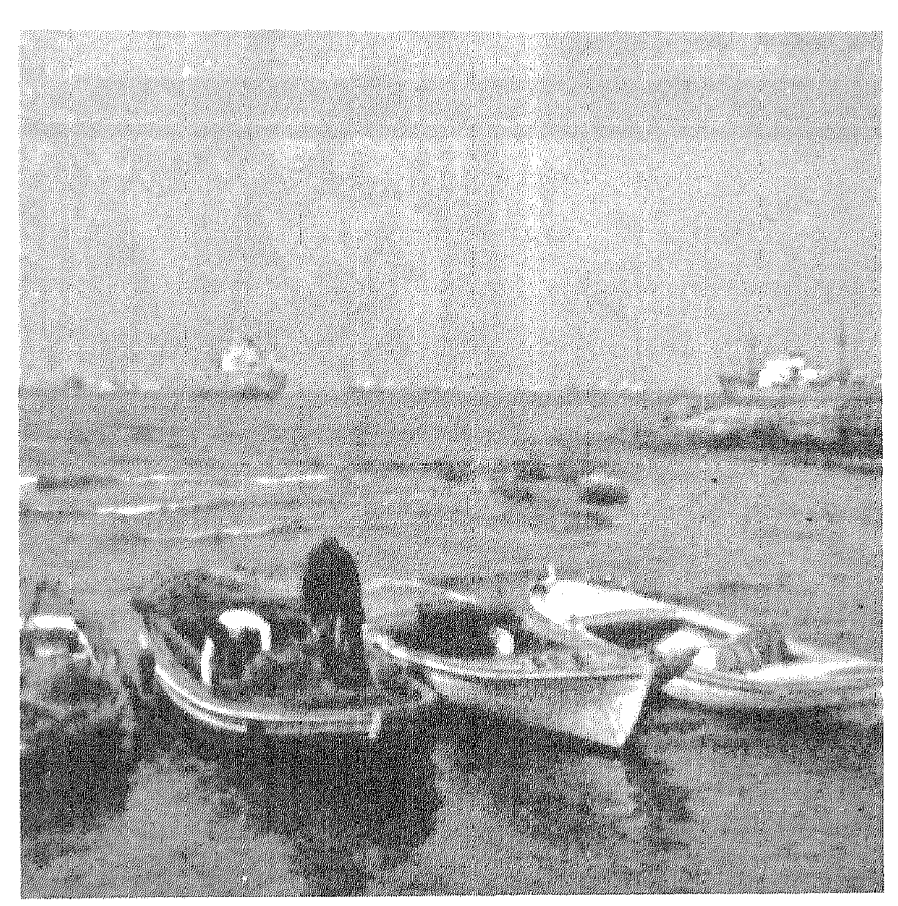
وقال سبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان) كذا العيني في (عقد الجمان) وابن تغري بردى في (النجوم الزاهرة) تنوخ قبيلة من اليمن ولم يزيدوا.

وقال ابن العديم في (الانصاف والتحري) قحطان هو مجتمع قبائل اليمن بأسرها، وتيم اللات مجتمع تنوخ بأسرها، وانما سموا تنوخاً لانهم تنخوا بالشام، وقيل بالحيرة. أي أقاموا. والتنوخ هو المقام في الموضع وكانوا أقاموا على مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم اللات، ونزلوا معه الحيرة، فاختطوها وبنوا فيها الأبنية وعمروها. وهم أول من عمر الحيرة ونزلها...

وقال محمد أمين البغدادي الشهير بالسيودي في (سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب) بنو تنوخ قال الجوهري هم حي من اليمن يعني من القحطانية ولم يزد على ذلك. وذكر المؤيد صاحب حماه في تاريخه أنهم من قضاعة وقال أبو عبيد هم ثلاثة أبطن نزار والاجلاف وفهم سموا بذلك لأنهم حلفوا على المقام بمكان بالشام. والتنخ المقام. قال وانما تنخوا على مالك بن زهير بن عمرو بن فهم تيم الله ابن اسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان وعلى مالك بن فهم عم مالك بن زهير. قال ابن سعبذ ومن الناس من يطلق تنوخ على الضجاغمه ودوس الذين تنخوا بالبحرين. وذكر الحمداني أن المعرة من بلاد الشام هي صليبة تنوخ بمعنى أن بها جمعهم المستكثر.

وذكر حمزة الأصفهاني في (تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء) أنه لما حدث سيل العرم تمزقت عرب اليمن من مدينة مأرب الى العراق والشام، فكانت تنوخ وهم حي من أحياء الأزد ممن تمزق الى العراق، وذلك أنه اتفق مجيء مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان الأزدي من بني نصر بن الأزد في جمهور من الأزد، ومجيء مالك بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن قضاعة في جمهور من قضاعة، ولما افترقت قضاعة عن تهامة الى البحرين، فقال مالك بن فهم الأزدي لمالك بن القضاعي نقيم بالبحرين ونتحالف على نوانا فتحالفوا فسموا تنوخاً، وذلك أيام ملوك الطوائف، فنظروا الى العراق وعليها طائفة من ملوكها وهي شاغرة، فخرجوا عن البحرين وسارت الأزد الى العراق مع مالك بن فهم الأزدي. ثم سارت قضاعة الى

اللاذقية



الشام مع مالك بن فهم القضاعي...

وهكذا يتبين أن سكنى التنوخيين بلاد الشام قديمة جداً، حتى أن جبال اللاذقية كانت تسمى بهراء وتنوخ على مايذكر الأصطخري في (كتاب الأقاليم).

ويستفاد مما ذكره أبو الفرج الملطي في (تاريخ الدول السرياني) أن التنوخيين كانوا في البدء مخيمين عند نهر قويق بحلب. وفي أيام المأمون – أي ما بين سنة ١٩٨ و٢٠٠ للهجرة – حشد ناصر الخارجي القيسيين وزحف بهم يريد التنوخيين المخيمين عند نهر قويق بحلب وقاتلهم عشرة أيام فخارت قواهم وارتحلوا رجالاً ونساء الى قنسرين ودخل القيسيون والحلبيون ونهبوا خيامهم الواسعة وهي حافلة بالأموال والبضائع.

لكن الامارة التنوخية في اللاذقية لم تبدأ الا سنة ٢٤٩هـ ومؤسسها يوسف بن ابراهيم التنوخي المعروف، بالفصيص. ففي سنة ٢٤٩ هـ وثب يوسف بالمعرة فجمع جموعاً من تنوخ، وصار الى مدينة قنسرين فتحصن بها، فلم يزل بها حتى قدم محمد المولد، مولى أمير المؤمنين، فاستماله واستمال غطيف بن نعمة، وصار اليه، ثم وثب بغطيف بن نعمة فقتله، وهرب الفصيص فصار الى جبل الأسود، واجتمعت قبائل كلب – بناحية حمص على الامتناع على المولد، فسار اليهم فواقعهم، فكانت عليهم، ثم وثبوا عليه، فهزموه، وقتلوا خلقاً عظيماً من أصحابه، وانصرف الى حلب في فله، ورجع الفصيص الى قنسرين، جرت بينه وبين كلب محاربة وعزل المولد وولى أبو الساج الأشروسني، وكتب الى الفصيص يؤمنه وصير اليه الطريق والبذرقة، ثم ولاه اللاذقية ونحوها(١).

ثم تعرضت الامارة التنوخية، بعد وفاة يوسف الى هزات، وخرج الحكم من أيدي بني الفصيص لبعض الوقت. ففي سنة ٣١٩هـ ولى مؤنس المظفر غلامه طريف بن عبد الله السكري أو السكبري على بعض الروايات فقام بمحاصرة بني الفصيص في حصونهم باللاذقية وغيرها، فحاربوه حرباً شديداً حتى نفذ جميع ما كان

عندهم من القوت والماء، فنزلوا على الأمان فوق لهم وأمر مهم، ودخلوا معه حلب مكرمين معظمين فأضيفت اليه حمص مع حلب(٢).

لكن التنوخيين سرعان ما استعادوا سيطرتهم على اللاذقية وأعادوها الى حكمهم من جديد على يد علي بن ابراهيم التنوخي ممدوح المتنبي، الذي سحق ثورة اللاذقيين كما يفهم من قصيدة المتنبي في مدحه والتي مطلعها:

أحاد أم سداس في أحاد
لليلتنا المنوطة بالتنادي

ومنها:

ويوم جلبتها شعث النواصي
معقدة السبائب للطراد
وحام بها الهلاك على أناس
لهم باللاذقية بغي عاد
فكان الغرب بحرا من مياه
وكان الشرق بحراً من جياد
وقد خفقت لك الرايات فيه
فظل يموج بالبيض الحداد
لقوك يا كبد الابل الابايا
فسقتهم وحد السيف حاد
وقد مزقت سيف الغي عنهم
وقد ألبستهم ثوب الرشاد
فما تركوا الامارة لاختيار
ولا انتحلوا ودادك من وداد
ولا استعلوا لزهد في التعالي
ولا انقادوا سروراً بانقياد
ولكن هب خوفك في حشاهم
هبوب الريح في رجل الجراد
وماتوا قبل موتهم فلما
مننت أعدتهم قبل المعاد

وكان علي المذكور شجاعاً داهية، استطاع بحنكته أن ينقذ اللاذقية من الدمار وذلك عندما دهمها الروم سنة ٣٥٧هـ ففي هذه السنة، خرج ملك الروم نقفور الى معرة النعمان ففتحها وأخرب جامعها وأكثر دورها وكذلك فعل بمعرة مصرين، ولكنه أمن أهلها من القتل، وكانوا الفا ومائتي نفس وأسرهم وسيرهم الى بلد الروم وسار الى كفر طاب وشيزر وأحرق جامعها ثم الى حماه ففعل كذلك، ثم الى حمص، وأسر من كان صار الى تلك الناحية من الجفلة. ووصل الى عرقة ففتحها وأسر أهلها، ثم نفذ الى طرابلس ففتحها، ومنها الى اللاذقية فانحدر اليه أبو الحسين علي بن ابراهيم بن يوسف الفصيص فوافقه على رهائن تدفع اليه منها، وانتسب له فعرف نقفور سلفه وجعله سردغوس وسلم أهل اللاذقية(٣).

وكان علي بن ابراهيم التنوخي آخر من حكم اللاذقية من التنوخيين ولا نعلم شيئاً عن حياته، ولا تاريخ وفاته سوى ما ذكره المتنبي عنه في قصائده.

وتجدر الاشارة الى أن المتنبي عندما قدم الى اللاذقية سنة نيف وعشرين وثلاثمائة، اتصل بأسرتين تنوخيتين كان لهما الصدارة هما آل اسحاق وعرفنا منهم محمد والحسين (رثى المتنبي الأول ومدح الثاني) وآل ابراهيم، وعرفنا منهم علي.

قال المتنبي في رثاء محمد بن اسحاق التنوخي:

اني لأعلم، واللبيب خبير
أن الحياة وان حرصت غرور

ومنها:

خرجوا به ولكل باك خلفه
صعقات موسى يوم دك الطور
والشمس في كبد السماء مريضة
والأرض واجفة تكاد تمور
وحفيف أجنحة الملائك حوله
وعيون أهل اللاذقية صور

وعندما استزاده بنو عم الميت قال:

صبراً بني اسحق عنه تكرما
ان العظيم على العظيم صبور

وقال أيضاً:

ألآل ابراهيم بعد محمد
الا حنين دائم وزفير

ومنها:

ولقد منحت أبا الحسين مودة
جودي بها لعدوه تبذير

وقال المتنبي في مدح الحسين بن اسحاق التنوخي:

هو البين حتى ما تأنى الحزائق
ويا قلب حتى أنت ممن أفارق

ومنها:

قضاعة

اسلم ـ جهينة
عمران ـ حلوان
عمرو
بهرا
بلى

سليح ـ معد ـ ضجعم ـ عوف ـ عمر
تزيد
ربان
تغلب ـ وبرة
النمر
أسد ـ تيم اللات ـ تنوخ
كلب ـ كنانة

هبولة ـ زياد
هبالة ـ داود اللثق

وما ترزق الأقدار من أنت حارم
ولا تحرم الأقدار من أنت رازق
ولا تفتق الأيام ما أنت راتق
ولا ترتق الأيام ما أنت فاتق
لك الخير غيري رام من غيرك الغنى
وغيري بغير اللاذقية لاحق
هي الغرض الأقصى ورؤيتك المنى
ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق

وقال أيضاً:

كأني دحوت الأرض من خبرتي بها
كأني بني الاسكندر السد من عزمي
لألقى ابن اسحق الذي دق فهمه
فأبدع حتى جل عن دقة الفهم

ومنها:

وجدنا ابن اسحق الحسين كحده
على كثرة القتلى بريئاً من الاثم
أطعناك طوع الدهر يا ابن يوسف
بشهوتنا والحاسدو لك بالرغم

وقد ألمح المتنبي في مدحه لتنوخي اللاذقية الى نسبهم. من ذلك قوله في الحسين بن اسحاق التنوخي:

يمين بني قحطان رأس قضاعة
وعرنينها بدر النجوم بني فهم

وهذا يدل على أن التنوخيين عرب أقحاح، من العرب العاربة. لأن العرب العاربة هم بنو قحطان وكانت مساكنهم بالحجاز ومنهم بنو عبد شمس الملقب بسبأ لكثرة سببه. ...ومنهم بنو قضاعة بن مالك بن حمير وبنو فهم حي من قضاعة.

والجدول اعلاه يوضح تفرع قبائل قضاعة باختصار(٤):

وتجدر الاشارة الى أن الأسرة التنوخية في اللاذقية ارتبطت مع الأسرة الأرسلانية في لبنان برباط المصاهرة، فالأمير عز الدولة تيمي بن الأمير المنذر الأرسلاني (ت ٣٨٧هـ) تزوج من سعدى ابنة الأمير ابراهيم بن اسحق بن محمد بن ابراهيم التنوخي(٥):

أما حكم التنوخيين لجبلة فقد بدأ سنة ٤٧٣هـ، عندما استخلصها من أيدي الروم القاضي عبد الله بن منصور بن الحسين التنوخي المعروف بابن ضليعة أو صليحة، وذلك بمعاونة القاضي جلال الدين بن عمار صاحب طرابلس.

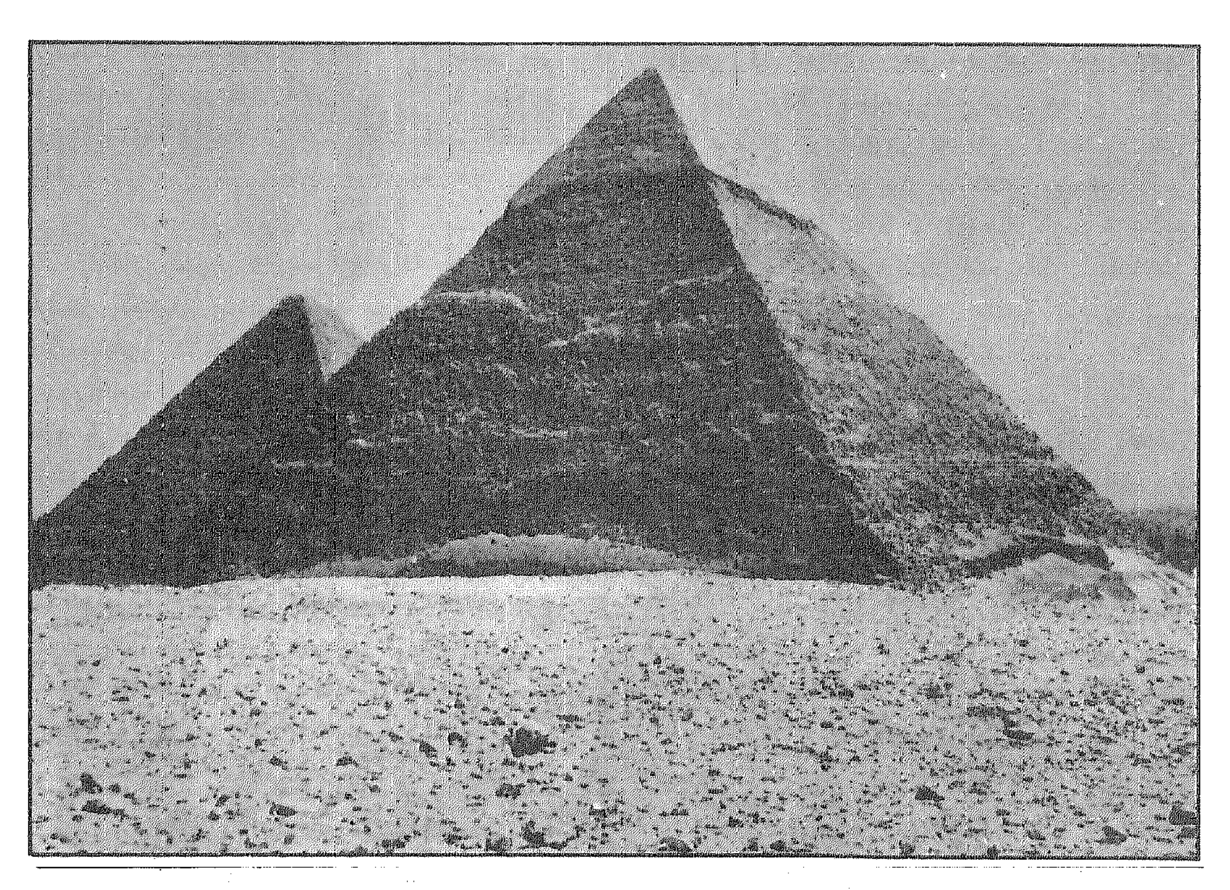
وظل ابن صليحة حاكماً لها قرابة احدى وعشرين سنة، من سنة ٤٧٣هـ الى سنة ٤٩٤هـ، ويبدو أنه آنس من نفسه عجزاً عن مقاومة الروم، وخشية أن تقع المدينة في أيديهم أرسل الى ظغتكين أتابك دقاق صاحب دمشق يلتمس منه انقاذ من يراه من ثقاته ليسلمها اليه، فانتدب طغتكين ولده تاج الملوك بوري أو توري فتسلمها منه، الا أن بوري أساء هو وأصحابه الى أهل جبلة وظلموهم، فشكوا حالهم الى ابن عمار صاحب طرابلس فأرسل اليهم عسكراً هزموا بوري وأصحابه وملك عسكر ابن عمار جبلة وأخذ توري أسيراً وحملوه الى طرابلس فأحسن اليه ابن عمار وسيره الى أبيه. وأما القاضي ابن صليحة فانه سار بماله وأهله الى دمشق ثم الى بغداد وبها بركيا روق وقد ضاقت يده فطلب من ابن صليحة ما لا فحمل اليه جملة طائلة.

وهكذا انتهى حكم التنوخيين للاذقية وجبلة.

المحامي هاشم عثمان
اللاذقية

الهوامش

(١) تاريخ اليعقوبي.
(٢) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب.
(٣) ابن العديم، زبدة الحلب.
(٤) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام.
(٥) روض الشقيق في الجزل الرقيق، نسيب أرسلان.



أهرامات الجيزة بالقاهرة

وهي العجيبة الوحيدة الباقية من تلك العجائب السبع في العالم وأهمها الهرم الأكبر أو هرم خوفو ويرجع تاريخ بناء هذه الأهرامات الى الفترة ما بين ٤٧٥٠ ــ ٣٠٠٠ ق.م وما زالت المهارة التي تم بها قطع الأحجار التي استخدمت في بناء الأهرامات ثم في رفعها الى هذا العلو الشاهق ووضعها في أماكنها الصحيحة على هذا النظام الهندسي العجيب وما زالت هذه المهارة مسألة تثير دهشة العالم حتى هذه الأيام اذ لم يعثر على أي أثر للأدوات التي كانت تستخدم لهذا الغرض.

وتقع أهرامات الجيزة على مسافة بضعة أميال من القاهرة في المكان الذي كان يعرف قديماً باسم «ممفيس».

يقول المثل المصري حديث «اضحك يا زمن من كل شيء، الا الأهرام تضحك منك يا زمن».

والمعنى الواضح هو ان الزمن له القدرة على اهلاك كل شيء الا الأهرام بأنها لاتزال قائمة بعد خمسين قرناً من الزمان.

هرم خوفو أو الهرم الأكبر: وصفه بعضهم بأنه جبل هائل من الأحجار، رفعه الشعب بأسره، من أجل رجل واحد.

وطبقاً لما رواه المؤرخ الأغريقي هيرودوت فان خوفو بدأ في هذا باغلاق جميع المعابد، ومنع تقديم كافة القرابين، ثم عمد بعد ذلك الى اكراه آلاف المصريين على العمل من أجله، وهكذا أخذ مائة ألف رجل يكدحون كدحاً متواصلاً وكان يستبدل بهم كل ثلاثة أشهر مجموعة جديدة واستغرق العمل برمته ٢٠ سنة.

كان ارتفاعه ١٤٦ متراً او ما يعادل ٤٨٢ قدماً ثم زالت قمته فأصبح ١٣٧ متراً ومساحة قاعدته ثلاثة عشر فداناً تقريباً وأوجهه مواجهة للجهات الأربع الأصلية. واضلاع القاعدة ٢٣٠ م، الوزن بالتقريب ٥,٥٠٠,٠٠٠ طن، كتل

الأحجار المستخدمة ٢,٣٠٠,٠٠٠ حجر بني هذا الهرم الأكبر قبل أكثر من ٤٦٠٠ سنة في عهد الأسرة الرابعة من أسر ملوك مصر القديمة أو فراعنتها.

واذا نظرت الى وجهه البحري رأيت المدخل واذا دخلته سرت في ممرات زلقة مبنية من الحجر الصوان ووصلت بعد جهد الى حجرتين الواحدة فوق الأخرى ويطلق على الحجرة العليا اسم حجرة الملك وهي متخذة من عدة أحجار ملتصق بعضها ببعض التصاقاً تاماً وفي هذه الحجرة نافذتان متصلتان بالخارج وتابوت من الصخر ليس به شيء وفوقها خمس حجرات صغيرة لتقليل الضغط الواقع على حجرة الملك، أما حجرة الملكة فتقع أسفل حجرة الملك وهي متخذة من الصوان أيضاً وكان هذا الهرم مكسواً بطبقة ملساء هي الحجر الجيري ولكنها زالت عنه على ممر الأيام.

عندما أراد خوفو بناء هرمه مهد طريقاً منحدرة من النيل الى هضبة الأهرام ثم رصفها وقضى في ذلك ١٠ سنوات ثم أخذ العمال يقطعون الأحجار من محاجر طره ويجرونها الى النيل ثم تحملها السفن الى الشاطىء الأيسر ثم تجر الى هضبة الأهرام وكانوا كلما بنوا صفاً من الحجارة وصلوا الطريق المنحدرة اليه كي يتمكنوا من جر الأحجار الضخمة ووضعها فوق هذا الصف بغير استعمال آلات لرفع الأحجار.

هرم خفرع او الهرم الأوسط: وخفرع هذا هو الذي ورث العرش بعد خوفو، كان ارتفاعه ١٤٣,٥ متراً ثم زالت قمته فأصبح ١٣٧ متراً، ولا تزال على قمته تلك الطبقة الحجرية الملساء التي كانت تغطي جميع سطحه..

ومن توابع هذا الهرم معبد واقع شرقيه، وهو الآن متهدم وكان متصلاً بالمعبد الثاني الموجود في الوادي. وهو معروف باسم معبد أبي الهول وكلا المعبدين تابع لهرم خفرع.

هرم منقرع أو الهرم الأصغر: ومنقرع هذا هو ابن خفرع ووريث عرشه، وبناؤه أقل الأهرام الثلاثة اتقاناً وارتفاعاً، ارتفاع هرم منقرع ٦٦,٥م. ومع ذلك فلم يتمكن الملك من اتمامه أيام حياته وتممته ملكة تسمى نيتو كريس، وكان له معبدان فتهدما.

أبو الهول: ذلك التمثال الضخم الذي يمثل مخلوقاً أسطورياً له جسم أسد ورأس انسان والذي يعبر عن فكرة الصمود لأهوال الدهر.

ارتفاعه من القاعدة الى أعلى رأسه عشرون متراً، وطوله ستة وأربعون متراً، وعرض وجهه أربعة أمتار، وطول أذنه متر وثلث، وطول أنفه متر ونصف، وطول فمه متران ونصف.

فلو ان رجلاً وقف على أذنه ورفع كلتا يديه لما وصلت أصابعه الى تاجه، وهذا الصنم رمز الشمس التي كان يعبدها المصريون ويسمونها هيرماخيس ولذا يوجد بين كفيه معبد يصعد اليه القوم بعدة درجات. واذا نظرت الى رأسه رأيت بقية التاج الذي كان عليه وآثار الحية المقدسة التي كانت على جبهته وهي رمز الملكية حينذاك.

وترى أيضاً جزءاً من اللحية التي كانت أسفل ذقنه غير أن الحية واللحية قد سقطتا فنقلتا الى دار الآثار بلندن.

ولقد ضاع بهاء هذا التمثال الهائل وذلك لقدمه ولأن المماليك الذين حكموا مصر من عهد قريب جعلوه هدفاً يطلقون عليه القذائف من بنادقهم فكسروا أنفه، وشوهوا وجهه.

عبد الله محمد حاج عبدو
حلب ــ عفرين ــ كفر صفرة
الجمهورية العربية السورية

عجائب الدنيا السبع هي:

١ ــ أهرامات الجيزة بالقاهرة.
٢ ــ الجنائن المعلقة في بابل.
٣ ــ تمثال زيوس في المبيا.
٤ ــ معبد ارتميس في أفسوس.
٥ ــ ضريح هاليكار ناس في آسيا الصغرى.
٦ ــ تمثال عملاق رودوس.
٧ ــ منارة الاسكندرية.

تاريخ العرب والعالم

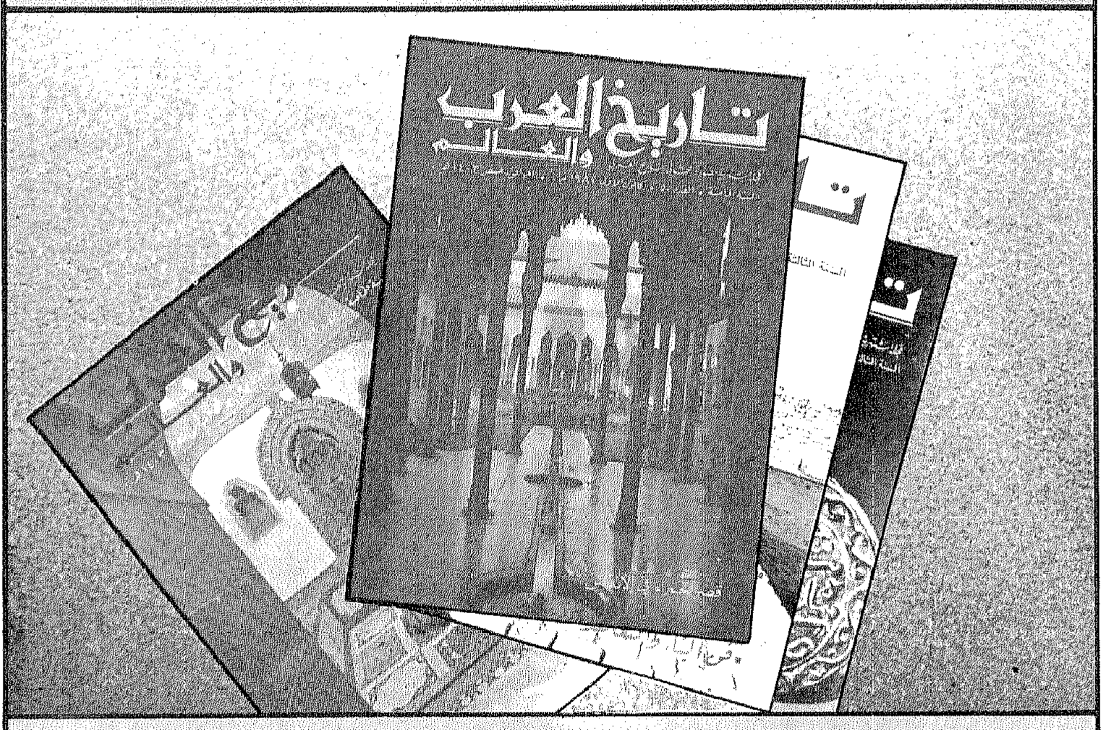
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨

تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

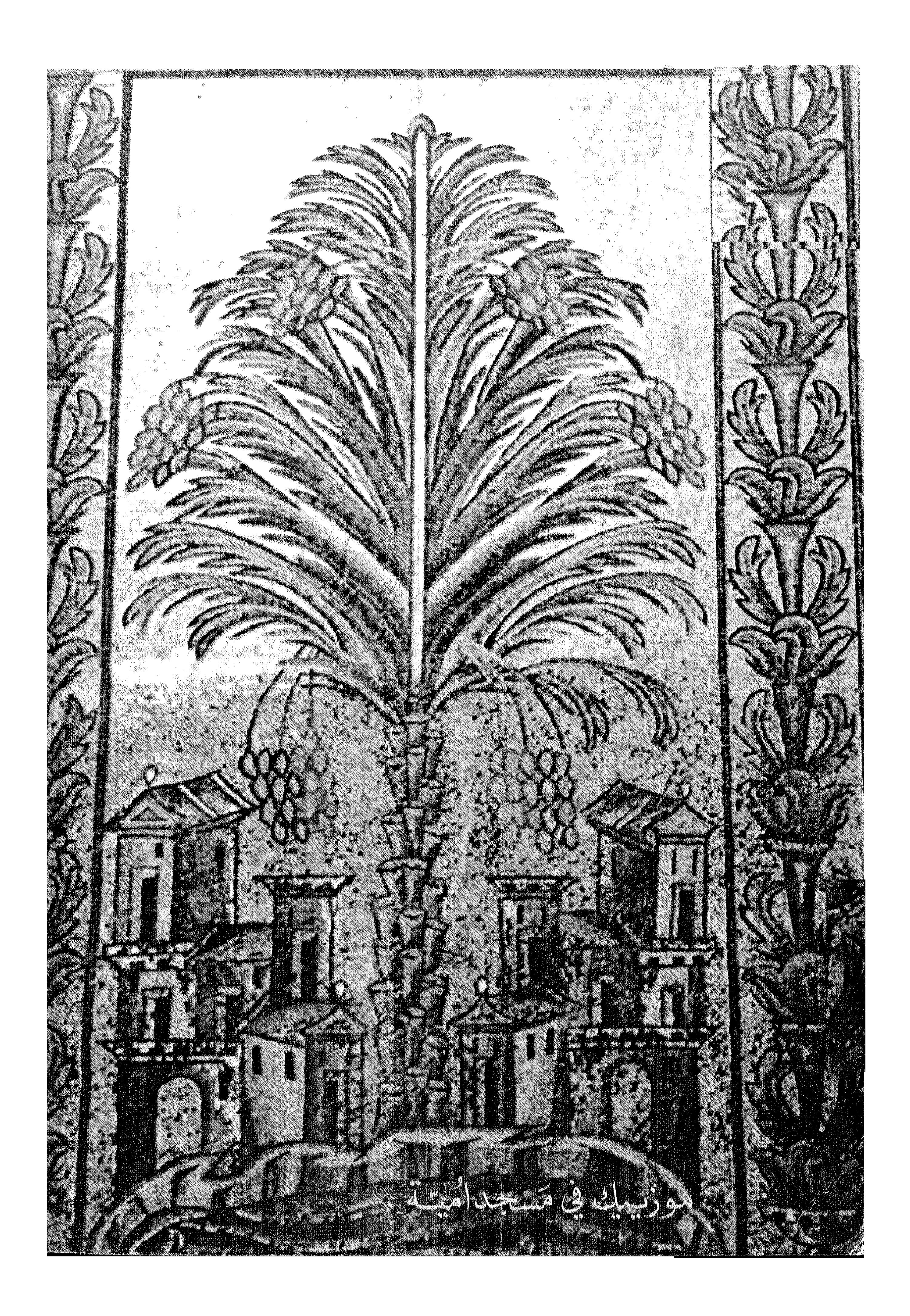


الاشتراكات

- للأفراد في لبنان .... ١٠٠ ل.ل.
- للأفراد في الوطن العربي .... ١٢٥ ل.ل.
- للأفراد في دول العالم الأخرى .... ١٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في لبنان .... ٢٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي .... ١٠٠ دولار

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣



موزييك في مَسجد أُميّة